سلسلة المائة كتاب
@ketab_n
5.4.2016
رؤية
دوستويفسكي للعالم
تأليف : نيقولا بردياتف
ترجمة : فؤاد كامل

رؤية
دوستويفسكي للعالم

تأليف : نيقولا بردياتف
ترجمة : فؤاد كامل

الطبعة الاولى ـ بغداد | ١٩٨٦

دار الشؤون الثقافية العامة

وزارة الثقافة والإعلام

Twitter: @ketab_n

تصدر عن
دار الشؤون الثقافية العامة

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
الدكتور محسن جاسم الموسوي

حقوق الطبع محفوظة
تعلن كافة المراسلات
لرئيس مجلس ادارة دار الشؤون الثقافية العامة

العنوان
أعظمية - ص . ب ٤٠٣٢ تلكس ٢١٤١٢٥
العنوان البرقي فاق تلفون - ٤٤٣٦٠٤٤
بغداد - العراق

Twitter: @ketab_n

الفهرست

الفصل الاول
الوجه الروحي لدوستويفسكي ١١
الفصل الثاني
الأنسان ٣٣
الفصل الثالث
الحرية ٥٧
الفصل الرابع
الشر ٧٧
الفصل الخامس
الحب ٩٧
الفصل السادس
الثورة ـ الاشتراكية ١١٥
الفصل السابع
روسيا ١٣٧
الفصل الثامن
المفتش الأكبر
المسيح وضد ـ المسيح ١٦١
الفصل التاسع
نحن ودوستويفسكي ١٨٣

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

تصدير

لعب دوستويفسكي في حياتي الروحية دورا حاسما . فقد تلقَّيتُ منه ـ ولماً زلتُ مراهقا ـ مايشبه التطعيم . وأثار فيّ من الحماسة والنشوة مالم يثره كاتب او فيلسوف آخر . وكنت في كل مراحل حياتي أشطر الناس قسمين : أولئك الذين تأثروا بروح دوستويفسكي ، وأولئك الذين كانوا عن هذه الروح غرباء . واذا كانت المشكلات الفلسفية قد تمثلت لوعيي في وقت مبكر جدا ، فما ذلك إلا بفضل تلك « الاسئلة اللعينة » التي أثارها دوستويفسكي بكل تأكيد . وما من مرة قرأته فيها ، الا تكشَّف لي منه وجه جديد . وفي شبابي صدمتني على وجه الخصوص « اسطورة المفتش الأكبر » الى درجة انني عندما تحولت لأول مـرة الى السيد المسيح ، لاح لي في الصورة التي اتخذها في تلك « الاسطورة » . وكانت فكـرة الحرية تقوم دائما عند اساس تصوري وادراكي للعالم . وفي هذا الحدس الأصلي للحرية عثرت على دوستويفسكي وكأنه في الوطن الذي اختاره لنفسه . ومنذ ذلك الحين استولت عليّ زمنا طويلا الرغبة في ان أكرسَّ له كتابا بأكمله : بيد أنني لم احقق هذه الرغبة الا بصورة جزئية في بضع مقالات متفرقـة . وأخيرا دفعتني المحـاضـرات التي القيت في النـدوة التي خصصت لدوستـويفسكي في شتـاء ٢٠ ـ ١٩٢١ الى ان اجمع شتات تأملاتي عن هذا الموضوع . وهكذا وضعت هذا الكتاب الذي لم أحاول فيه الكشف عن تصور دوستويفسكي للعالم فحسب ، بل حاولت ان اضع فيه أيضا شطرا كبيرا مما يؤلف تصوري الخاص عن العالم .

موسكو ، ٢٣ سبتمبر ١٩٢١ ـ ن . بردياثف

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

تصدير
للطبعة الفرنسية الجديدة

كتب هـذا الكتاب منـذ خمسة وعشـرين عامـا . ومـازلت أفسر تصـور دوستويفسكي للعالم على النحو عينه ، غير ان بعض وجهات النظر التي تضمنها هذا الكتاب لم تعد ترضيني . فـأنا اكتب اليـوم الفصل السـادس (الثورة . الاشتراكية) والفصل السابع (روسيا) عـلى نحو مختلف . وانـا اقدم اليـوم تقويمـا على شيء قليل من الاختلاف للثورة وللاشتراكية وكـذلك للنزعـة المسياويـة* الروسية Messianisme ، والنزعة الشعبية populisme كما أن تقـديري لليـون تولستـوي قد تزايد . وتبدو لى الآن مشكلة النزعة الانسانية عند دوستويفسكي أشد تعقيدا عما كانت عليه عند تأليفي هذا الكتاب . بيد ان دوستويفسكي هذا مابرح مطابقـا اساسا لفكرتي عنه ، ولهذا لم ادخل على هذه الطبعة الجديدة سوى تعـديلات طفيفة جدا .

باريس ، ١٩٤٦ ، نيقولا بردياثف

---

* النزعة المسيـاوية هي النـزعة التي تعتقـد في عودة المسيـح مرة اخـرى في نهايـة الزمان . (المترجم)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الأول

الوجه الروحي لدوستويفسكي

Twitter: @ketab_n

ما أحاول ان اكتبه هنا ليس بحثا في تاريخ الأدب ، كما انني لا اعتزم ان اقدم عن دوستويفسكي سيرة أو صورة . وكذلك لاينتمي كتابي أقل انتماء الى النقد الادبي . كما لايستطيع أحد ان يزعم ـ من جهة أخرى ـ أنني أتناول موضوعي من وجهة نظر نفسية ، وأنني انوي تقديم مجموعة من الكشوف التي تنتسب الى المجال النفسي . كلا .. فالمشكلة تتمثل لي على نحو مختلف تماما : ذلك ان عملي يصدر عن « علم الروح » لا عن « علم النفس » . ان اكتشف في دوستويفسكي الجانب الروحي ، هذا هو موضوعي . أريد أن أنفذ الى اعماق الطريقة التي عانى بها العالم ، وان أعيد بهذه العناصر ، وعن طريق الحدس — intuition بناء رؤيته للعالم .

ذلك أن دوستويفسكي لم يكن فنانا عظيما فحسب ، بل كان مفكرا عظيما أيضا ، وصاحب رؤية عظيما في رؤيته : وكان جدليا عبقريا في جدله كذلك ، كما كان اعظم ميتافيزيقي انجبته روسيا . والأفكار تلعب في مؤلفاته دوراً راجحا ، كما ان جدله (ديالكتيكه) الرائع يمثل مكانا مساويا لبصيرته النفسية الفذة . بل ان هذا الجدل يشارك في طبيعة فنه نفسه : فبالفن ينفذ دوستويفسكي الى أسس عالم الأفكار ؛ كما ان عالم الأفكار يشيع في فنه . ذلك أن الأفكار تحيا لديه حياة عضوية ، كما أن لها مصيرا حيا محتوما . الوجود في أعلى صُوره دينامية . لاشيء ساكن (إستاتيكي) هنا : لاتوقف ، ولا تحجر . ولقد درس دوستويفسكي العملية الحية لهذه الدينامية دراسة متعمقة ، وعرض الأفكار في أعماله وكأنها أعاصير من اللهب ، وأحاطها بجو مشتعل . أما المفاهيم الباردة ، فلا تعنيه . انه يحمل بين جنبيه نفحة من روح هيراقليطس : كل شيء نار وحركة ، تضاد وصراع . وما الأفكار سوى موجات من النيران ، وليست مقولات متجمدة أبدا . كل فكرة عند دوستويفسكي ترتبط بمصير الانسان ، بمصير العالم ، بمصير الرب . والأفكار هي التي تقوم بتحديد هذه المصائر . ولأن هذه الأفكار وجودية (انطولوجية) من حيث انها تحتوي على جوهر الوجود نفسه . فأنها تخفي ـ في حالة كمون ـ الطاقة المدمرة الشبيهة بالديناميت . ويبين لنا دوستويفسكي أن

Twitter: @ketab_n

انفجارها ينشر الدمار فيما حولها ، ولكنها تملك ايضا الطاقة التي تستطيع ان تبعث بها الحياة . وعالم الأفكار ـ كما يتصوره دستويفسكي ، عالم أصيل تماما ، ويختلف كل الإختلاف عن عالم أفلاطون . اذ لايعتقد ان الأفكار هي النماذج الاولى (أو المُثُل) للوجود او انها كيانات أولية او حتى معايير ـ انها بالنسبة لدوستويفسكي مصير الكائن الحي ، وطاقة النيران التي تدفعه . ويعترف دوستويفسكي بأن للأفكار قيمة خاصة ، اعترافا لايقل عن اعتراف أفلاطون : ونظرا للطريقة الحالية التي تنزع الى انكار هذه القيمة المستقلة للأفكار ، والى تجاهل ثمنها عند كل كاتب ـ لن نستطيع ان نفهم دوستويفسكي أو حتى نقترب منه دون ان نغوص غوصا تاما في عالم الأفكار ـ ذلك العالم الرحيب كل هذه الرحابة ، الأصيل على هذا النحو من الأصالة لدى دوستويفسكي . ان مؤلفات دوستويفسكي مأدبة حقيقية للفكر ، وهؤلاء الذين يرفضون المشاركة فيها ، والذين تنكر أفكارهم المتشككة فعالية كل فكر ، يحكمون على انفسهم بوجود ضيق كئيب من الناحية الروحية .

لقد اكتشف دوستويفسكي عوالم جديدة عوالم لا تكف عن الحركة عوالم لاتتضح بدونها المصائر الانسانية ولن نستطيع دخول هذه العوالم اذا اقتصرنا في بحثنا على الجانب الشكلي من الفن او حصرنا انفسنا في علم النفس . وهذه العوالم هي ماأردت النفاذ الى اعماقه حتى اقتضى ما أسميته **تصور دوستويفسكي للعالم** . وماذا يكون تصور اي كاتب للعالم ، ان لم يكن هو نفاذه الحدسي Intuitive تماما الى الماهية الحميمة لهذا العالم ، الى كل مايكتشفه المبدع في الكون وفي الحياة : فالأمر لايتعلق هنا بمذهب مجرد ، لايمكن ان نتطلبه ـ على الأقل ـ من فنان ، ولكن مانطلبه عند دوستويفسكي هو حدس عبقري للمصير الانساني والكوني . حدس فني ، ولكنه ليس فنيا فحسب ، وانما هو حدس عقلي ايضا حدس فلسفي ، معرفة Gnose حقيقية . وبمعنى خاص لهذه الكلمة كان دوستويفسكي عارفا gnostique وما اعماله الا معرفة connaissance علم للروح science de L'esprit . وكان لديه عن العالم تصور دينامي الى اعلى درجة ، وبوصفه كذلك

Twitter: @ketab_n

نحاول ادراكه . ولو اننا نظرنا حقا الى الاشياء من وجهة النظر الدينامية (الحركية) ، فلن نجد ثمة تناقض في اعماله . فهو يحقق مبدأ تلاقي الاضداد Coincidentia oppositowm . ونحن ننهل من قراءة دوستويفسكي معرفة جديدة وهذه المعرفة هي ما احرص على استخلاصه في صورة متكاملة .

وما كُتب عن دوستويفسكي كثير ، كما قيلت عنه اشياء حقيقية شائعة . بيد ان احد لم يبلغ الاحاطة بجماع شخصيته وهؤلاء الذين تصدوا له فعلوا ذلك من وجهة نظر محدودة ، ولم يدرسوا منه الا ما يندرج تحت اطار بحوثهم . وهكذا كان دوستويفسكي في نظر البعض مدافعا عن « المستذلين والمهانين »[1] وهو في نظر البعض الآخر « موهبة قاسية » وهو في نظر آخرين ايضا نبي المسيحية الجديدة ، لقد كان الكاتب الذي يكشف عن « انسان تحت الأرض » L'homme souterrain ؛ وكان اخيرا نمط المسيحي الأرثوذكسي والمبشر بفكرة المسياوية الروسية . بيد ان أحدا لم يقدم على التوليف بين هذه الجوانب المتباينة ، بل كان دوستويفسكي أقل الكتاب تعرضا للنقد التقليدي الروسي ، ذلك النقد الذي ظل دوستويفسكي بالنسبة اليه مغلقا تمام الاغلاق ، كغيره من الظواهر الكبرى في الأدب الروسي . فها هو ميخائيلوفسكي Mikhailovski ـ على سبيل المثال ـ كان عاجزا عجزا عضويا عن فهمه ذلك لأنه كان من الضروري للنفاذ حقا الى كاتب « الاخوة كارامازوف » ان يمتلك المرء روحا مصوغة على نحو معين .... روحا تمُت بصلة القرابة الى روح دوستويفسكي : فكان لا بد من انتظار بداية القرن العشرين والحركة الروحية والعقلية التي اتسم بها هذا القرن للعثور على امثال هذه الارواح بالضبط . وفي هذا العصر ايضا بدأ ذلك الاهتمام الهائل بأعمال دوستويفسكي .

وينبغي ان نذكر على وجه الخصوص كتاب ميريجكوفسكي Merijkovski بعنوان « ليون تولستوي ودوستويفسكي » وهو أفضل الكتب التي ظهرت حتى الآن . وعيب هذا الكاتب انه كان حريصا أكثر مما ينبغي على عرض نظريات

---

١ ـ احدى روايات دوستويفسكي وعنوانها بالفرنسية humilieset offenses ولها ترجمة بالعربية للدكتور سامي الدروبي (المترجم)

Twitter: @ketab_n

دوستويفسكي الدينية مع مرعاة الموازنة بينها وبين نظريات تولستوي . ولم يكن دوستويفسكي في نظره سوى الأداة في دعوته الخاصة الى دين الجسد ، فلم يفطن بالتالي الى الاصالة الفريدة التي تميزت بها هذه الروح . ومع انه قد فتح عن دوستويفسكي آفاقا ظلت مجهولة أمدا طويلا ، الا أن كتابه يبدو زائفا من حيث المبدأ الذي يصدر عنه . فالكاتب العظيم لايعدو ان يكون تجليا كاملا للروح ، ومن حيث هو كذلك ينبغي أن يؤخذ بوصفه وحدة متكاملة . وهذه الوحدة لايمكن أن ننفذ اليها إلا على نحو حدسي ، بأن نندمج واياها ، وبأن « نحياها » ولا جدوى من تحليلها من الخارج لكي نحاول من بعد اعادة تكوين الأجزاء ؛ ذلك انها تكون قد ماتت تحت مبضع الجراح . ولهذا ينبغي اذا وقفنا ازاء تلك الظاهرة الروحية العالية التي هي الانسان العبقري ، ينبغي ان نسلك مسلك النفس المؤمنة . ولن نلجأ هنا الى تقليد كثير من معاصرينا الذين يميلون دائما الى استخدام المبضع لتشريح الكاتب الذي يحبونه ، مرتابين في اصابته بمرض مستتر ، نوع من السرطان السري : فلنتجه صوب دوستويفسكي عن طريق المؤمنين ، ولنتوغل دون فكر مسبَّق في عالم أفكاره الدينامية حتى نستطيع النفاذ الى سر تصوره الاساسي للعالم .

* * *

يقال ان كل عبقرية لابد وأن تكون قومية National بالذات وعلى الاخص بقدر ماتكون انسانية : وهذا حق لا مراء فيه اذا قصدنا به دوستويفسكي . فهو روسي على وجه الخصوص ، روسي حتى أعمق أعماقه ، بل هو أكثر روسية من كل كتاب روسيا مجتمعين ؛ ولكنه في الوقت نفسه اكثرهم انسانية ، سواء كان ذلك بنفسه او بالموضوعات التي اختارها . « كنت دائما روسيا بحق » جاء هذا في رسالة بعث بها الى مائيكوف Maikov وما اعمال دوستويفسكي الا تفسير روسي لما هو عالمي Universel وهذا هو علة ما تثيره لدى الغربيين من اهتمام شديد . فهم يبحثون فيه عن كشف يصل الى مرتبة العمومية عن المسائل التي تؤرقهم وفي الوقت نفسه عن كشف لهذا العالم المختلف ، الملغز بالنسبة اليهم ، عالم الشرق الروسي . وفهم دوستويفسكي فهما متكاملا معناه ان يستوعبوا شطرا أساسيا من الروح

Twitter: @ketab_n

الروسية ومعناه فك شفرة سر روسيا بصورة جزئية .

يقول تيوتشف Tloutchev وهو عبقرية روسية عظيمة اخرى :

« نحن لا نستطيع ان نفهم روسيا بالعقل ، كما لانستطيع أن نقيسها بمقياس عادي . »

ودوستويفسكي يعكس متناقضات الروح الروسية جميعا ، وكل مافيها من نقائض antinomies أثارت بدورها احكاما متناقضة تطلق على روسيا وعلى شعبها . ونستطيع أن نتابع المعمار الروحي لهذا الشعب وان ندرسه في حد ذاته . وقد ادرج الروس انفسهم في عداد « الرؤياويين »[٢] apocalyptiques و « العدميين » mihilstes وهم يقصدون بذلك انهم لايستطيعون احتمال مناخ نفسي وسط وان مزاجهم يسوقهم حتما صوب الأطراف les extremes فكل من النزعة الرؤياوية والنزعة العدمية اتجاه متطرف ، وكل منهما ينطوي على الحاجة الى دفع الاشياء الى اقصى مداها والى سحبها الى هذين القطبين المتناقضين (الرؤياوية والعدمية) وهنا تختلف الروح الروسية عن الروح الألمانية أو الفرنسية اختلافا عميقا ، فالرجل الألماني إما أن يكون صوفيا او نقديا ، والفرنسي اما ان يكون شكاكا او قطعيا . اما الروسي فأبعد الناس عن تطوير حضارة أو عن شق طريق تاريخي . فهل يمكن ان يكون مثل هذا الشعب سعيدا في تاريخه يوماً ما ؟ فبهذه النهايات المتعارضة التي يبلغونها وبالتطرف في الدين ، كما يتطرفون في الالحاد ، وبالنزعة الرؤياوية وبالنزعة العدمية على السواء يدمرون الحضارة والتاريخ اللذين يحتلان طريقا وسطا . واذا كان الروسي متمردا على هذه الحضارة وهذا التاريخ ، واذا كان يلغي القيم جميعا ويحيلها الى صفحة بيضاء ، فأنه من العسير ان نميز : هل يفعل ذلك بوصفه عدميا أم بوصفه رؤياويا مقتنعا بأن العالم سوف يغوص في نهاية دينية هائلة . يقول دوستويفسكي في مذكراته : « ظهرت النزعة العدمية عندنا لأننا جميعا عدميون . » وهذه النزعة العدمية هي التي يدرسها حتى النخاع ، وهي نزعة عدمية ـ أقول عنها مرة اخرى ـ انها نزعة رؤياوية مقلوبة .

ها نحن نرى كيف يمكن ان يكون هذا المزاج الروحي عائقا لأي عمل تاريخي يقوم به شعب ، وعقبة في سبيل تطوير قيمه الثقافية ، وكيف ان مثل هذا الاستعداد لايشجع بحال من الاحوال على اقامة أي نظام روحي discipline spirituelle

---

٢ ـ أي الذين يؤمنون بالآخرة وبرؤية القديس يوحنا التي يطلق عليها في العهد الجديد اسم الـ Apocalysese (المترجم)

Twitter: @ketab_n

. وهذا ما أراد أن يعبر عنه ليونتييف leontiev عندما قال ان الروسي يستطيع ان يكون قديسا ، ولكنه لا يستطيع ان يكون رجلا أمينا . لأن الأمانة نوع من الوسط الأخلاقي ، mllieumoral العادل فهي فضيلة بورجوازية لايأبه بها المتطرفون الذين يؤمنون بأن هذا العالم سائر الى نهايته . وهذه سمة قاتلة بين غيرها من السمات ـ التي يتسم بها الشعب الروسي ، فالقديسون هم ايضا استثناءات ، أما أكثر الناس فمالهم ألا يكونوا أمناء . وبالنسبة لصفوة من الناس يبلغون حياةً روحية هي اسمى ما يمكن ان يبلغه انسان تظل الغالبية العظمى في مستوى أقل كثيرا من الوسط المثقف للشعوب الاخرى . ولهذا كان التضاد حادا عند الروس بين صفوة ترقى الى مستوى روحي هو أكمل مايكون ، وبين الجماهير السادرة في الأمية . ليست هناك ثقافة متوسطة في روسيا ، ولا وسط ، بل لاتكاد توجد تقاليد ثقافية . ومن هذه الناحية ، يكاد الروسيون جميعا ان يكونوا عدميين . لماذا ؟ لأن الثقافة لاتضع حلولا للمشكلات المصيرية ، الخلاص من العملية الارضية ؛ بل على العكس انها تعزِّز الوسط الانساني . وبالنسبة « للفتى الروسي » (وهو تعبير أثير عند دوستويفسكي) المستغرق في حل المسائل الميتافيزيقية ، والتفكر في الله والخلود ، او في تنظيم الانسانية وفقا لشريعة جديدة ؛ وكذلك بالنسبة للملحد ، وللاشتراكي ، وللفوضوي .... بالنسبة لهؤلاء جميعا تمثل الثقافة عقبة تعترض حركتهم الجامحة صوب حلٍّ لتلك المشكلات. وهكذا ، على حين يحرص الغربيون على تنظيم العالم تاريخيا ، ينشد الروسيون العثور على مخرج فورا ، بوثبة هائلة ومن هنا كان نفورهم من العنصر الشكلي ، سواء تعلق ذلك بالقانون او بالسيادة او بالفن ، أو بالفلسفة او بالدين . ذلك لأن الشكل يفترض المقياس La mesure ويقيم حدودا ، أي مايرفضه العدمي والرؤياوي Apocalygase بتمردهما . وفي الكتاب الشائق الذي كتبه اشبنجلر تحت عنوان : « بروسيا والاشتراكية » يقول ان روسيا عالم قائم بذاته لامعقول وغامض بالنسبة للأوروبي ، وهو يكشف فيها عن « تمرد رؤياوي ضد العصور القديمة » . فالرؤياويون والعدميون الروس يقفون على المشارف المتطرفة للروح . وقد دفع دوستويفسكي بدراسة هذا الاتجاه المزدوج حتى أبعد الاعماق ، وكان أول من نَـدَّد بهذا النوع من الهستيريا الميتافيزيقية للروح الروسية وبميلها المتطرف نحو تسلط الفكرة L'obsession والافتتان envoutement ودرس دوستويفسكي الملكات الثورية لهذه الروح ، تلك الملكات التي ترتبط ارتباطا حميما بملكاتها الرجعية . وقد كان المصير التاريخي لروسيا مبررا للنبوءة الدوستويفسكية : فلقد قامت الثورة وفقا لدوستويفسكي في شطر كبير

Twitter: @ketab_n

منها . ومهما بدت هذه الثورة مدمرة دامية فلا ينبغي ان يكون ذلك سببا لوصفها بـأنها ليست روسيـة ، وليست قوميـة ، ذلك ان تـدمـير الذات L'autodestsuctin واستهلاك الذات L'autoconsomption سمتان قوميتان لروسيا .

وقد استغل دوستويفسكي بعمق هذه الاستعدادات التي تميز بها جنسه لكي يتخطى حدود الحياة النفسية حتى يكشف عبـر الآفاق البعيـدة ، أعماقـا روحية . فتحت تلك الطبقات التي ارتادها عالم النفس فعلا ، واضاءها بـأنوار عقلانية ، واخضعها لمعايير العقل ، اكتشف دوستويفسكي في كل موجود موقدا بركانيا : براكين تحت ارضية سوف تملأ انفجاراتها اعماله القادمة . هذه القوة الكامنة ، وهذه الطاقة الروحية الثوريـة ، استغرقت وقتـا طويلا حتى تصـوغ نفسها . واستحالت التربة التي تحتويها رويدا رويدا الى تربة بركانية ، على حين بقيت الروح على السطح محتفظة باتزانها القديم ، خاضعة للقوانين القديمـة . وبغتة ، وعلى حين غرة ، كـان التفجير ، وكـان انفجار الدينـاميت . وقد كـان دوستويفسكي نذير هذه الروح الثورية وهي بسبيلها الى التحقق . ولم يعبر في مؤلفاته الا عن هذه الدينامية العنيفة العاصفة للطبقة الانسانية . والانسان في هذه اللحظة ينفصل عن النظام الاجتماعي ، ويمتنع عن الخضوع للقواعد ، وينفذ الى عالم له بعد آخر . وهذه الروح ـ كما كان يراها دوستويفسكي ـ روح جديدة ، وفي هذه اللحظة تولد رؤية جديدة للعالم . وفضلا عن ذلك ، فأن هذه الدينامية التي تستغرق الروح كلها ، هذه الحركة التي تستمد طبيعتها من طبيعة النار ، كان يحملها في اعماق روحه . كتب الى مائيكوف قائلا : « ان اسوأ ما في الامر هو ان طبيعتي خسيسة وشديدة الحماسة . وفي كل شيء ، اذهب الى الاطراف : وفي حياتي كلها ، تجاوزت كل اعتدال . » كانت روحـه متقدة دائمـا ، متأججـة ، تلتهمها حماسة باطنية . وكانت السنة اللهب التي تلتهمه جهنميـة ، يتفاداهـا ليصل الى النور . وكل ابطال دوستويفسكي هم في حقيقة الامر نفسه ذاتها . وهم يسلكون السبيل الذي سلكه ؛ وجوانب وجوده المختلفة ، وعـذاباتـه ، وقلقه ، وتجربته الاليمة ، هي بعينها تجاربهم . ولهذا السبب لاتنطوي اعماله على أي جزء ملحمي epique ، او اي تصوير لوسط موضوعي ، او اي اسلوب موضوعي

Twitter: @ketab_n

للعيش ، كما لايتمتع بأية موهبة لبعث العالم الخارجي في تباينه ، وباختصار ، لاشيء فيه مما يكون الجزء الاقوى في مؤلفات ليون تولستوي . وروايات دوستويفسكي ليست في حقيقة الامر روايات بالمعنى الصحيح : ولكنها تؤلف مأساة .. المأساة الباطنية للمصير الانساني المتفرد ، للروح الانسانية المتفردة وهي تتبدى في وجوهها المختلفة وفي مراحل متباينة من طريقها .

وقد كان دوستويفسكي يملك موهبة ادراك الانسان في حركيته العناصفة العنيفة الجامحة . ويشعر القارىء نفسه بأنه محمول في هذا الاعصار الذي يجتاح كل اعماله . هذه الحركات الصاخبة يخفيها الانسان في الاغوار العميقة من وجوده : وكان فن دوستويفسكي العظيم هو التعبير عن هذه الحركات المستسرة التي تثير التربة التحتية للطبيعة الانسانية . وكان دوستويفسكي معنيا بتلك الدفعة الدينامية التي تعطل باستمرار الاشياء الكائنة جميعا . فلا جدوى من الالتفات الى النظام المستقر الذي يكرسه الماضي ، كما يفعل تولستوي ، وانما ينبغي التطلع الى المستقبل المجهول وحده . وهنا نرى كم كان مثل هذا الفن تنبئيا prophetique . انه يميط اللثام عن سر الانسان . ولهذا السبب فأنه يدرسه ـ لا في وسطه الثابت المستقر ؛ او في حياته الاجتماعية التي يحياها كل يوم ، او في المعايير الشكلية العقلانية لوجوده ، وانما يدرسه في اللاشعور ، في الجنون ، في الجريمة . ففي الجنون لا في الصحة ، وفي الجريمة لا في الشرعية ، وفي التيارات الغامضة اللاشعورية ، لا في الممارسات اليومية ، في مناطق الروح التي يضيئها نهار الوعي العظيم ، نستطيع ان نسبر اغوار الطبيعة الانسانية ، وان نلمس حدودها . ومؤلفات دوستويفسكي ديونيزية[٣] dionysiaque الى اعلى درجة .. هذه الديونيزية التي تتولد عنها المأساة ، ذلك انه لايستطيع ان يعرض علينا الا طبيعة الانسان في ذروة نشوته ، بحيث يبدو لنا كل شيء بعد هذا التصوير باهتا ماسخا . وكأننا نعود بعد ان قمنا بزيارة اكوان اخرى ، ومستويات اخرى ـ الى عالمنا المحدد ، المنظم ، الى مكاننا ذي الابعاد الثلاثة . والقراءة الواعية لدوستويفسكي تشكل في حياة المرء حدثا يتلقى فيه مايشبه التعميد المتقد . والانسان الذي عاش في العالم الذي

Twitter: @ketab_n

صاغه دوستويفسكي يحتفظ منه حقا بكشف للاشياء غير المطروقة من الوجود ، ذلك ان دوستويفسكي ثوري عظيم للروح قبل كل شيء ، مناهض لكل اشكال الجمود والتحجر .

ثمة تضاد حاد بين دوستويفسكي وليون تولستوي . فدوستويفسكي المبشر بالروح الثورية وهي بسبيلها الى التحقق ، صاحب الطبيعة الدينامية الى اقصى حد ، المتجه صوب المستقبل ، هو من يعلن ارتباطه بأرض الوطن ، وهو الذي يؤكد فضيلة تقاليد التاريخ ، وتراث الاشياء المقدسة ، والذي يعترف بالحكومة والكنيسة الرسمية لروسيا . اما تولستوي فعلى العكس ، لم يكن قط ثوريا بالروح ، بل كان مصورا للمادة الساكنة Staique ، وللوسط الاجتماعي كما كان وكما هو كائن ؛ وهو يتجه ببصره ايضا نحو الماضي ، لا نحو المستقبل . ومع ذلك ، فقد ثار على التقاليد التاريخية والدينية جميعا ، وهو الذي انكر في اصرار لم يسبق له مثيل ـ الارثوذكسية والامبراطورية ، بل لم يكن يريد ان يقبل اولوية الثقافة . اما دوستويفسكي فيبرهن على الطبيعة العميقة للنزعة العدمية الروسية . وتولستوي يعلن نفسه عدميا هو الاخر ، هادما للتراث وللقيم جميعا . وكان دوستويفسكي يعرف الثورة التي سوف تتحقق ، والتي تعتمل في الاغوار العميقة من الروح وكان يتنبأ بالسبل التي سوف تسلكها ، وبالثمار التي سوف تجنيها . اما تولستوي ، فلم يكن يعلم ان الثورة تتشكل ، ولم يكن يتنبأ بشيء ولكنه كان هو نفسه منقادا ، كالأعمى ، في دوامة هذه العملية الثورية التي شرعت في الحركة . كان دوستويفسكي يتحرك في مجال « الروحي » ومن هناك كان يلحظ كل شيء . اما تولستوي فكان معتصما بالمجالين النفسي والجسدي حيث لايستطيع ان يدرك ما يعتمل في الاعماق . وربما كان تولستوي فنانا بلغ من الكمال مالم يبلغه دوستويفسكي ، وربما كانت رواياته افضل من حيث هي روايات فقد كان مصورا عظيما لما هو قائم . اما دوستويفسكي فلم يكن يشغل باله الا بالصيرورة . ولهذا ، فمن الايسر ادراك الكمال على المادة الساكنة لا على المادة المتطورة . بيد ان دوستويفسكي مفكر اعظم من تولستوي ، وكان محيطا بأشياء اكثر منه ، وعلى كان احدهما يسير في خط مستقيم قدما الى الامام دون ان يلتفت برأسه ، كان

Twitter: @ketab_n

الاخر يعرف التناقض الانساني الابدي الذي يرغم المرء في كل خطوة على الارتداد الى الوراء . وكان دوستويفسكي يدرك الحياة نفسها في علاقتها بالروح الانسانية ؛ ولهذا كان يعرف ان الثورة سوف تتحقق ، تلك الثورة المتأججة في صميم هذه الروح . اما بالنسبة لتولستوي ، فقد كانت الحياة صادرة عن الطبيعة ؛ فلم يكن يرى فيها غير السائل الحيوي الذي يسري باستمرار خلال النبات والحيوان ؛ لم يكن يفطن الا الى عملية بيولوجية ، وهي عملية يتمرد على قوانينها . هذه الاخلاق الاحادية الجانب unilateraleالتي يعتنقها تولستوي لم يكن من الممكن ان تكون ابدا اخلاق ذلك البصير بالقلب البشري الذي هو دوستويفسكي . واذا كررنا قولنا بأن الاول قد اخضع اشكال الماضي لكمال فنه الذي لاجدال فيه ، ذلك الكمال الذي لم يستطع الثاني بلوغه في مجاله الذي لم يثبت بعد ، واعني به مجال الصيرورة ، فأننا نستطيع ان نستخلص من ذلك ان فن تولستوي هو فن ابو لون Apollon وان فن دوستويفسكي هو فن ديونيزوس Dionysos

وقد يكون من الشائق ان نتابع الموازنة من وجهة نظر اخرى . كان تولستوي يبحث طيلة حياته عن الله ، كما يبحث عنه الوثني ، والانسان القريب من الطبيعة الذي هو بماهيته بعيد جدا عن الاله . وكان اللاهوت يطارد دماغه والمعروف عن تولستوي انه كان لاهوتيا رديئا . وعلى العكس ، كان دوستويفسكي أقل انشغالا بالاله منه بالانسان ومصيره ، وبلغز الروح . كانت الأنثروبولوجيا (علم الانسان) هي التي تطارده ، لا اللاهوت . ولم تكن المشكلة الالهية هي مايبغي حلها كالرجل الوثني الذي مابرح قريبا من الطبيعة ؛ ولكن كالانسان الروحي ، كالمسيحي ، كانت المشكلة على العكس من ذلك ، هي مشكلة الانسان . ذلك أن مسألة الاله هي المسألة التي يضعها الانسان . ومسألة الانسان هي التي تضع مسألة الاله . وربما كان من الممكن بالضبط من خلال اللغز الانساني أن نقترب خير اقتراب من الاله . ولم يكن دوستويفسكي لاهوتيا ، ومع ذلك كان اقرب من تولستوي الى الاله الحي ، لأن الاله يتكشف له في مصير الانسان . وربما كان من الانسب أن يكون المرء انثروبولوجيا من ان يكون لاهوتيا .

Twitter: @ketab_n

هل كان دوستويفسكي واقعيا ؟ قبل ان نوضح هذا السؤال ، ينبغي ان نتسائل الى أي حد يمكن أن يكون الفن الأصيل العظيم واقعيا ؟ وليس من شك ان دوستويفسكي كان يحب ان يوصف بهذا الوصف ، وان ينظر الى واقعيته بأنها واقعية الحياة نفسها . ولم يكن يفهم ـ بكل تأكيد ـ هذه الكلمة بالمعنى الذي يفهمه النقد الرسمي حين يؤكد وجود مدرسة واقعية وعلى رأسها جوجول : فأن شيئا من هذا الذي تغطيه هذه البطاقة قد وجد على الاطلاق ، لا عند جوجول او عند دوستويفسكي بصورة أقل من ذلك . والحقيقة هي أن كل فن أصيل هو فن رمزي : انه جسر يمتد بين عالمين ، والعلامة التي يتم تحتها التعبير عن واقع عميق ، الواقع الحقيقي . وغاية الفن هي انه بتجاوزه للواقع التجريبي ـ يصبو الى التعبير عن الواقع المستتر بيد انه لايستطيع اعادة بنائه ابدا على نحو مباشر ، وانما يتوسل الى ذلك بالرموز ، بالظلال المائلة . وقد كان دوستويفسكي اقل الناس انشغالا بالعالم التجريبي . وفنه منغمس كله في هذا الواقع العميق ، في هذا العالم الروحي . وبناء رواياته نفسه لايذكرنا ادنى تذكير بصنعة الروايات المنعوته بأنها « واقعية » . ونحن نحس عبر الحبكة الخارجية التي تروى مايشبه رواية الجريمة ـ نحس في كل موضع بحضور هذا الواقع الباطني المختلف ، الاكثر واقعية من ذلك الواقع الآخر . ذلك ان العالم التجريبي والاشكال الخارجية للحياة ، والانسان من لحم وعظم ـ ليس هذا كله ـ عند دوستويفسكي هو الوقائع النهائية . وانما الواقع بالنسبة اليه ـ هو الاعماق الروحية للانسان ، هو مصير الروح الانسانية . الواقع هو علاقات الانسان بالله ، وعلاقة الانسان بالشيطان ؛ الواقع هو الأفكار التي يحيا بها الانسان .

ان ازدواجية الروح ، ذلك الموضوع الأساسي في روايات دوستويفسكي جميعا ـ لاينتمي الى الفن الواقعي . وكيف يمكن ان نصف بالواقعية تلك اللوحة العبقرية من العلاقات بين ايفان كارامازوف وبين سمر دياكوف ، وهي العلاقات التي جعلت من ازدواجية ايفان الخاصة شيئا محسوسا ؟ ولا اقل من ذلك لوحة العلاقات بين ايفان والشيطان . اننا لانستطيع ان نجعل من دوستويفسكي

Twitter: @ketab_n

نفسانيا واقعيا ، فلم يكن دوستويفسكي نفسانيا ، ولكنه كان روحانيا وميتافيزيقيا ، ورمزيا . فلديه دائما تحت الحياة الواعية يتخفّى عالم من اللاوعي وبهذا العالم ترتبط استشفافاته بوصفه صاحب رؤية Visionnaire والكائنات لا تتصل عن طريق الخيوط المرئية فحسب في نور الوعي وانما تتصل على الاخص بهذه الروابط الخفية التي تغوص في اعماق حياتها اللاواعية . روابط مستترة تربط بين ميشكين وبين ناستاسيا فيليبوفنا وروجوجين ؛ وتربط بين راسكولنيكوف وسفيدرجائيلوف ؛ وبين ستافروجين من جهة وتشرونو موجكا وشاتوف من جهة اخرى . ودوستويفسكي يصور هؤلاء جميعا مقيدين بعضهم الى البعض الآخر بحلقات ليست من هذا العالم الدنيوي . فلاشيء عرضي في الواقع ـ في صلة احدهم بالآخر ، ولا مجال للمصادفة التي نجدها في واقعية تجريبية . ويبدو لنا ان التقاء هؤلاء الكائنات قد تحدد منذ الازل بارادة عليا ؛ فهم يحملون ميسم قدر محتوم يتحقق بحذافيره ، وتصادماتهم جميعا ، وردود افعالهم المتبادلة لاتعبر عن الواقع الموضوعي الزائف ، وانما تعبر عن الواقع الباطني ، عن المصير الداخلي لبنى البشر . وفيهم تعبر « فكرة » الكون العظمى عن نفسها حقا كما ينحل لغز الانسان والسبيل الذي يسلكه وهذا كله لايشبه في شيء ما درجنا على تسميته بالرواية « الواقعية » فاذا كان لابد من ان نسمي دوستويفسكي واقعيا فنحن نقول انه واقعي صوفي

ويشير مؤرخو الأدب والنقاد الأدبيون المولعون بالبحث في الكُتّاب عن مؤشرات وبصمات متبادلة ـ يشيرون الى ان دوستويفسكي ـ ولاسيما في المرحلة الأولى في ابداعه ـ قد خضع لمؤثرات شتى ، وبالأخص من فيكتور هوجو وجورج صاند ، وديكنز ، بل من هوفمان . ومع ذلك فأن القرابة الوحيدة الواضحة لدوستويفسكي هي تلك التي تربطه بواحد من اعظم الكتاب الغربيين هو بلزاك ، الذي لم يكن واقعيا هو الآخر . أما بين الروس العظام ، فيرتبط دوستويفسكي مباشرة بجوجول ، ولاسيما في رواياته الأولى . بيد أنه يعالج الطبيعة البشرية على نحو مختلف تمام الاختلاف . فقد رأى جوجول ان الشخصية الانسانية بسبيلها الى الانحلال ، فلم يضع على وجهها غير قناع شبيه بالقرد كثير الغضون : وفن

Twitter: @ketab_n

آندريه بيلي Andre Biely هو أقرب الفنون اليه . وعلى العكس من ذلك ، يرى دوستويفسكي أن الشخصية الانسانية غير قابلة للانحلال ، وقد عرف كيف يجدها في اشد نماذجها وضاعة . وفضلا عن ذلك ، فإن دوستويفسكي ابتداء من اللحظة التي يكون فيها في اوج امتلاكه لنفسه ، وحين يطرح صيغته الجديدة ، فإنه يعلو على كل المؤثرات ، ويتجاوز كل البصمات : فهنا يمثل تجليا خلاقا لا سابقة له .

ورواية « الروح تحت الارض L'rsprit Souterrain تُقَسِّم مؤلفات دوستوفيسكي الى قسمين . فقد كان دوستويفسكي حتى هذه اللحظة نفسانيا ـ أصيلا بلا شك ، وصاحب نزعة انسانية في الوقت نفسه ، يتعاطف مع « المساكين » ومع « المستذلين والمهانين » ومع ابطال « دار الموتى » Maison des Morts . بيد ان « الروح تحت الأرض » تفتتح الجدل العبقري الذي تميَّز به دوستويفسكي فيما بعد . فهنا لم يعد مجرد عالم نفساني ، بل أصبح متيافيزيقيا يتعقب مأساة الروح الانسانية حتى آخر الشوط . ولم يعد صاحب نزعة انسانية وفقا للصيغة القديمة ، بل لم يعد يشترك مع فيكتور هوجو او جورج صاند أو ديكنز ... الخ . وهنا قطع صلته نهائيا بنظريات بيلنسكي Bielinski . واذا ظل صاحب نزعة انسانية فإن حبه للانسانية قد اتخذ طابعا جديدا ، مأساويا . واصبح الانسان يحتل ـ أكثر من ذي قبل ـ مركز انتاجه كما اصبح المصير الانساني هو الموضوع الوحيد الذي يثير اهتمامه . بيد ان الانسان لم يعد يعالج بوصفه مخلوقا سطحيا وانما يؤخذ الآن في أعماقه وفي اغواره الروحية المكتشفة حديثا . فهذه مملكة بشرية جديدة قد انبثقت ، مملكة « دوستويفسكية » تماما . ودوستويفسكي كاتب مأساوي : وذلك القلق الكامن في الأدب الروسي كله يبلغ لديه أعلى درجة من التوتر . والجرح الذي يخلفه المصير الاليم للعالم ، والمصير الاليم للانسان ، حي وحساس لديه الى أعلى درجة .

وهنا ينبغي ان نفتح قوسين ، وان نتذكر أن الروس لم يتمتعوا أبدا بعصر للنهضة (رينيسانس) . فقد حرمهم مصير تعس من المتعة التي احدثتها هذه

Twitter: @ketab_n

الصحوة لغيرهم من الشعوب . وربما أضاء لهم نور شبيه بأنوار عصر النهضة في بداية القرن التاسع عشر ، في عهد الاسكندر الأول ـ ذروة الثقافة ـ عندما تفجر الشعر الروسي بغزارة اشاعت حوله ضربا من النشوة . رشافة ابداع سعيد لم تلبث ان انطفأت : ففي اثناء حياة بوشكين ، كان النبع قد تشبع بالسم فعلا . والواقع أن الأدب الروسي العظيم الذي ظهر في القرن التاسع عشر لم يتبع الطريق الذي خطَّه بوشكين : ذلك أن هذا الأدب الذي كان يعاني من أجل خلاص العالم ، متحملا عذابات أليمة ، وقلق عظيم ـ كان يبدو أنه يكفِّر عن خطيئة ما فيه . وقد كانت شخصية تشادايف Tchadaev الحزينة ، المكروبة على نحو فاجع ـ عند أصل الحركة التي بلغ عندها الفكر الروسي في القرن التاسع عشر أوان نضجه . ولم ينتج لرمنتوف Lermontov وجوجول وتيوتشيف Tioutchev شيئا يتفق وروح النهضة (الرينيسانس) ، وانما شاع القلق والعذاب في انتاجهم . وفي أعقابهم بدت لنا شخصية قسطنطين ليونتيف Constan tin leontiev الغريبة ـ على العكس من ذلك ـ شخصية رجل من الرينيسانس من القرن السادس عشر ، تائها في روسيا القرن التاسع عشر المعادية كل العداء لروحه ، فكان أن عانى فيها مصيرا شديد الحزن والقنوط . واخيرا ، هاهما القمتان الشامختان في الأدب الروسي تولستوي ودوستويفسكي ... فلا شيء فيهما يذكرنا بعصر النهضة . لقد ادركهما العذاب الديني ، فأخذا يبحثان عن الخلاص . وهذه هي سمة المبدعين الروس ... أنهم يبحثون عن الخلاص متعطشين الى التكفير معذبين من أجل العالم . ومؤلفات دوستويفسكي التي هي ذروة الأدب الروسي ـ ما هي الا أفضل تعبير عن هذا الطابع ، الجاد ، الديني ، المعذَّب لهذا الأدب . وهكذا كان ينبغي ان يفضي الطريق الأسمى الذي سلكه الأدب الروسي الى دوستويفسكي . وهذه الظلمات التي تخبطت فيها الحياة الروسية والمصير الروسي تكثَّفت لديه ، بيد ان شعاعا من النور بدأ في الالتماع . ثمة صدع في العالم القديم يتسلل منه النور الجديد . ومأساة دوستويفسكي ـ ككل مأساة حقيقية ـ تحمل في ثناياها التطهير والخلاص . وهؤلاء الذين يزعمون انه يبقى في الظلمات المتراكمة لايفهمونه ،

Twitter: @ketab_n

هؤلاء الذين يحزنهم دون أن يجلب اليهم المسرة . ان مطالعة دوستويفسكي تمنح أيضا نوعا من السرور ، من تحرير الروح . انها مسرة لا نحصل عليها الا بالألم . وهذا هو السبيل الذي يسلكه المسيحي . ان دوستويفسكي يبعث الايمان في الانسان ، في فكرة عمقه التي تجاهلتها النزعة الانسانية[٤] . وعندما يؤمن الانسان بالله يولد من جديد وبهذا الشرط وحده يستطيع أن يؤمن بنفسه . ولا يفصل دوستويفسكي الايمان بالانسان عن الايمان بالمسيح ، بالاله ـ الانسان . وكان طيلة حياته يحتفظ بشعور خالص بنوع من الحب العميق لوجهه الالهي . وبأسم المسيح وبالحب اللامتناهي للمسيح قطع علاقته بالعالم الانسيّ Humanitaire (نسبة الى مذهب الانسية Humanitarsme) الذي كان نبيه بيلنسكي Bielinskl ، وهذا الايمان أسسه في بوتقه شكوكه وصهره في النار . ونحن نجد هذه الجملة في مذكراته : « لم يكن لأي تعبير عن الالحاد في اوربا مثل هذه القوة . والظاهر انني لم أكن طفلا عندما اعتقدت في المسيح واعترفت بإيمانه .. وانما في أتون هائل من الشكوك ارتفعت صيحتي بتمجيد الرب سبحانه » . وكان دوستويفسكي قد فقد إيمان الصبا باعتناقه للنزعة الشيللرية Achillerisme (وكان يطلق هذه الكلمة على كل « ما هو جميل وعظيم » والنزعة الانسية المثالية) . وهذه النزعة الشيللرية لم تقاوم في نظره أي امتحان وحمل ايمانه بالمسيح النزعتين معا . وهكذا كفَّ عن ايمانه بالانسان على الطريقة الانسية ، ولكنه ظل يؤمن به بوصفه مسيحيا ، معمقاً ومدعماً هذا الايمان . ولهذا السبب لايستطيع دوستويفسكي ان يكون كاتبا متشائما قانطا . فهناك نور يسطع دائما في الظلمات ؛ وهذا النور هو المسيح بالنسبة له . وليس من شك ان دوستويفسكي يقود الانسان عبر هاوية الازدواجية (الازدواجية موضوع أساس في مؤلفاته) ، بيد ان هذه الازدواجية لا تحطم الفرد في نهاية الأمر . ذلك أن صورة الانسان سوف تتكون من جديد من خلال الاله ـ الانسان . Dieu — Homme

---

٤ ـ استخدام هنا كلمة النزعة الانسانية Humanisme بمعنى التوكيد الذاتي للانسان، الذي لا يريد الاعتراف بشيء أعلى منه. (١٩٤٤)

Twitter: @ketab_n

ينتمي دوستويفسكي الى ذلك الجنس من الكتاب الذين يضعون أنفسهم في مؤلفاتهم . فقد عبَّر عن الشكوك جميعا ، وعن متناقضات روحه كلها ، وربما كان قادرا - لأنه لم يُخْف شيئا مما يعتمل في وجوده العميق - على ان يصل الى هذه الكشوف المذهلة عن الانسان بوجه عام . فمصير أبطاله هو مصيره نفسه ، وشكوكهم ، وازدواجيتهم هي شكوكه وازدواجيته ، ومحاولاتهم الاجرامية هي نفسها الجرائم المتوارية داخل نفسه . ومن ثم فإن سيرة دوستويفسكي أقل كثيرا من مؤلفاته من حيث الأهمية ، كما ان مراسلاته أقل احتواء على المعلومات من رواياته . لقد كشف النقاب عن نفسه تماما في عمله الروائي ، وبفضل هذا الاعتراف ، يبدو لنا أقل الغازا بكثير عن غيره من الكتاب كجوجول مثلا ، الذي يعد أشد الشخصيات الأدبية غموضا في روسيا . فلا شيء ينبؤنا في الواقع في مؤلفات جوجول عما كان عليه وجوده الخاص : ويبدو انه حمل سرَّه معه . هذه ايضا هي حالة الفيلسوف فلاديمير سولوفييف Vladimir Soloviev في أيامنا هذه ، ذلك أن مجموع ابحاثه الفلسفية واللاهوتية لاتحمل أي اثر لصراعاته وصدماته الشخصية ؛ وربما أفلت منه شيء من هذا في اشعاره المتناثرة التي تشف عن نغمة أكثر حميمية .

والأمر يختلف كل الاختلاف بالنسبة لدوستويفسكي . فإن أصالة عبقريته كانت على نحو جعله قادرا في تحليله لمصيره الخاص الى اقصى مداه .. أن يعبرَّ في الوقت نفسه عن المصير الشامل للانسان . فهو لم يخف عنا شيئا من مثله الأعلى المزدوج : المثل الأعلى للشر ، لسدوم ، وعلى القمة تتربع المادونا Madone المثل الأعلى للخير . هذا التمزق الدائم هو الكشف العظيم الذي قام به دوستويفسكي . وحالة الصَّرع عنده ليست هي نفسها مرضا عارضا : ففيها تتكشف الروح عن اعماقها .

وقد حرص دوستويفسكي على تأكيد أنه « إبن وطنه الأصيل » Autochtone وانه يعتنق أيديولوجية مقصورة تماما على جنسه . ولم يستأصل قط الجذور التي تربطه بأرض مولده . ومع ذلك ، فأن من الخطأ ان ننسبه الى السلافوفيل Slavophiles (أنصار النزعة الصقلبية) وان ندرجه بينهم : اذ ينتمي الى عصر آخر ، ويبدو الى جانبهم متخذا شخصية الشريد Vagabond فهو روسي متجول في

Twitter: @ketab_n

عالم الروح ، لايملك أرضا ، ولا مستقرا ، بل لايملك عشا مريحا كما يملك بعض النبلاء الريفيين . وهو لا يرتبط بأي شكل مستقر من أشكال الوجود : كل ما في طبيعته دينامية وقلق ، وروح ثائرة . انه رجل الرؤيا (نهاية العالم) . وهذا المرصد الرؤياوي لم يمس السلافوفيل . فدوستويفسكي يجسد قبل كل شيء مصير الرحّالة والمتمرد ، وهو مصير يرى أنه سمة مميزة لجنسه . أما السلافوفيل فعلى العكس ـ تمتد جذورهم في الأرض التي ولدوا فيها ، وشبوا عليها ، وفوقها يستهلكون قواهم . واذا كانت الأرض تبدو راسخة تحت أقدامهم ، فأن دوستويفسكي كان رجل الحركات التي تمور تحت الأرض ، وعنصره هو النار ، وموقعه هو الحركة . وفضلا عن ذلك فإن موقفه من الموضوعات جميعا يختلف عن موقف السلافوفيل . وهو في مواجهة اعدائه الغربيين ، نصير لأوروبا ؛ وفي مواجهة أبطال موسكو القديمة ، المُعْجب بعهد بطرس وسان بطرسبرج . وسنرى فيما بعد كم يختلف عنهم بأفكاره عن روسيا بوجه عام . بيد ان ما ينبغي أن نبرهُن عليه فورا هو ان دوستويفسكي ليس منهم وليس من جنسهم وما يمثله بالضبط هو انه كاتب بلده ، والأديب الذي يحيا من عمله . وهو خارج الأدب ، ولايتصور شيئا . فهو من الناحيتين الروحية والمادية يعيش عليه . ومصيره الأسيان يجسد مصير كتاب روسيا .

* * *

كان ذكاء دوستويفسكي خارقا . ويعد بين الأرواح أكثرها حدة ، وأدعاها للانبهار في كل العصور . ولا يعادل ذكاؤه موهبته الفنية فحسب ، ولكنه ربما كان متفوقا عليها . وهو في هذا يختلف اختلافا شديدا عن تولستوي الذي يعد ـ بكل تأكيد ـ فنانا اكثر منه مفكرا ، فنانا تثير آراؤه احيانا شيئا من الدهشة لما تتسم به من ضيق الافق . فاذا عقدنا بينهما المقارنة كان دوستويفسكي هو المفكر الاعظم . وما من احد يمكن ان يقارن به في هذا المجال ، اللهم الا اذا كان شكسبير ، النور الباهر في عصر النهضة . وحتى روح جيته نفسه ، وهو عظيم بين اعظم العظماء ـ ولاتتمتع بهذه الحدة ، بهذا العمق الجدلي (الديالكتيكي) . وهذا ادعى للدهشة ، لأن دوستويفسكي يتحرك في تيار ديونيزوسي ، عاصف لايتاح له

Twitter: @ketab_n

الوضوح الا قليلا ، بل انه يعكر عادة صفاء الذهن . ولكننا نرى لديه ان هذيان النشوة بدلا من ان يُلْغى الفكر يؤثر عليه ، وأن الافكار وجدلها هي التي تسير وفقا لايقاع ديونيزوسي . ويصبح دوستويفسكي منتشيا بالافكار ، ذلك ان الافكار في مؤلفاته تبعث على النشوة ؛ ولكن وسط هذا الوجد لا تنثلم أبدا رهافة الفكر . وهؤلاء الذين لا يعنيهم هذا الجدل ، هذه المسيرة المأساوية لفكر دوستويفسكي العبقري هؤلاء الذين لا يرون فيه سوى فنان او نفساني لايفهمونه بكل تأكيد . اذ أن مؤلفاته جميعا ليست غير حل لمشكلة واسعة من الأفكار . وبطل « روح تحت الأرض » ما هو الا فكرة ، وراسكولنيكوف فكرة ، وكل من ستافروجين وكيريلوف Kirilov وشاتوف Chatov وفرهوفنسكي Verhovenski ـ لايعدو أن يكون فكرة . وايفان كارامازوف فكرة . هؤلاء الأبطال جميعا تبتلعهم أفكار بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة ؟ وهم سكارى بهذه الأفكار ؛ ولايتحدثون الا لتطوير جدلهم الايديولوجي . وكلهم يطوف حول هذه « الاسئلة اللعينة الأبدية » . وليس معنى هذا أن دوستويفسكي كتب روايات تخدم اتجاها او قضية a'these (على حد تعبير الفرنسيين) ترويجا لهذه الفكرة المحددة او تلك . كلا ان الأفكار مباطنة Immanentes في فنه وهو يكتشف وجودها على نحو فني. فهو كاتب « مثالي » بالمعنى الأفلاطوني لهذه الكلمة ، لا بالمعنى الذي يخلو من التعاطف الذي يقصده النقد عادة . ودوستويفسكي يتصور الأفكار الأصيلة ، ولكنه يتصورها دائما في حالة حركة ، يتصورها دينامية ، في مصيرها الفاجع . فلنتذكر تلك السطور التي كتبها متواضعا عن نفسه : « أنا ضعيف بما فيه الكفاية في الفلسفة (ولكن ليس في حبي لها فأنا في هذا الحب قوي جدا) » . ضعيف في الفلسفة الأكاديمية التي لاتناسبه ذلك ان عبقريته الحدسية ترشده في هذا المجال الى الدروب الحقيقية ، لقد كان فيلسوفا حقيقيا ، بل أعظم فيلسوف روسي . وقد كرس نفسه الى ما لانهاية للفلسفة ، ويبدو أنه ينبغي على النظر الفلسفي أن يتشبع بتصوراته . ومؤلفات دوستويفسكي لها دين كبير في عنق الانثروبولوجيا الفلسفية ، وفلسفة التاريخ ، والدين ، والأخلاق . وربما لم تكن الفلسفة قد علمته الا القليل ، ولكنها تستطيع

Twitter: @ketab_n

أن تأخذ منه الكثير ؛ واذا كان قد ترك لها الاسئلة الوقتية فيما يتعلق بالأمور النهائية finales ، فأنها عاشت فعلا منذ سنوات طوال ، تحت شارة دوستويفسكي .

* * *

اكتشف دوستويفسكي اذن عالما روحيا جديدا ؛ واسترد للأنسان العمق الروحي الذي سُلب منه لوضعه على مستوى متعال ، الى أعالي لايستطيع الوصول اليها . فلم يتبق للانسان غير غلاف جسده ، وغير المناطق المتوسطة من روحه : وكف الانسان عن ادراك بُعْد العمق . وكان هذا ضربا من البتر الذي بادرت اليه الكنيسة حينما ابعدت الحياة الروحية الى عالم آخر ، متعالٍ عن هذا العالم الارضي ، وأنشأت دينا للنفس التي تحمل الحنين الى تلك الحياة الروحية المفقودة . وكان من الضروري ان تفضي هذه العملية الى المذهب الوضعي Positivins والى اللا أدرية ، والى المادية ، أي الى تفريغ الروحية تفريغا تاما من الانسان ومن الكون . ووجد العالم المتعالى نفسه منسحبا الى ما هو غير قابل للمعرفة Inconnaissalie وقُطعت كل السبل المؤدية اليه ، بحيث أنكر في نهاية الأمر وجوده نفسه . وهكذا كان عداء المسيحية الرسمية لكل مذاهب المعرفة (الغنوصية) يؤدي حتما الى تعزيز اللاأدرية Agnoetieisme ؛وكان من نتائج الجهد الذي بذلته لكي تجعل العمق الروحي شيئا خارجيا عن الانسان ـ انكار كل تجربة روحية ، وحصر الانسان في الواقع « المادي » و « النفسي » . وكان دوستويفسكي بوصفه حاملا لرسالة عظمى من الروح ـ معاديا لهذه الاتجاهات جميعا . وهكذا أعاد الحياة الروحية الى داخل الانسان ، وجعله يتفادى الوقائع السطحية التي حصروه فيها . وأصبح الانسان معه مخلوقا روحيا . وهو يعلن التجربة الروحية بلا نهايات ، ويقضي على الحدود والمراكز الامامية جميعا . وهكذا تكشفت الآماد الروحية في مباطنة Immanence حركتها الداخلية . ففي الانسان وبالانسان نستطيع أن نصل الى الله .

هذا هو اذن طريق الحرية ، كما اكتشفه دوستويفسكي . والمسيح يقف عند نهايته ، في اعماق الانسان . وها نحن أولا نرى أن دين دوستويفسكي معارض من

Twitter: @ketab_n

حيث نمطه لنمط الدين التسلطي . Autoritaise ودينه يتمتع بأقصى درجة من الحرية فهو الدين الذي يظهر للعالم متشبعا بفكرة الحرية بيد ان دوستويفسكي في تصوراته الدينية ، لم يبلغ أبدا الوحدة الشاملة ، ولم يتغلب تماما على تناقضاته ؛ بل على العكس ، كان هذا الحب ، هذا الدين غير المعهود للحرية يمثل لديه شيئا من المطلق . وليس من شك ، اننا نستطيع أن نعثر في « يوميات كاتب » على فقرات تثبت أنه حتى في هذا الموضوع كان فكر دوستويفسكي ينطوي على متناقضات . بيد ان دوستويفسكي أودع في « يوميات كاتب » كل افكاره الاساسية التي كانت متفرقة في أعماله ـ أودعها في هذه اليوميات كتلة واحدة . وهذه الأفكار نفسها كان قد فصّلها في رواياته بقوة أشد . فهناك نجد جدله الأيديولوجي عن « اسطورة المفتش الأكبر » الذي يؤكد فيها بكل دقة دين الحرية هذا . وعلى خلاف الرأي الشائع ، لا نستطيع ان نكرر بشدة كافية أن روح دوستويفسكي تميل الى البناء لا الى الهدم ، وأن حالته النفسية تدفعه الى التوكيد لا الى النفي . ولكنه كان يتصور الله والانسان والعالم من خلال صنوف القلق والظلمات المتولدة عن الازدواجية . واذا كان قد فهم أعماق طبيعة العدمية الروسية فذلك لأنه كان هو نفسه مناهضا للعدمية . Antinihiliste وهذا هو مايميزه عن ليون تولستوي الذي ادركته عدوى العدمية . واننا لنرى دوستويفسكي ـ في اللحظة الحاضرة ـ أقرب الينا من أي وقت مضى . كما أننا نجد أنفسنا وقد اقتربنا منه . وثمت اجزاء جديدة من عمله تتضح في ضوء المصير الفاجع الذي ينبغي ان يعرفه الروس الذين يعيشون في يومنا هذا .

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني

الإنسان

Twitter: @ketab_n

كان الانسان ومصيره هو الشغل الشاغل لدوستويفسكي ، والموضوع الفريد الذي كرّس له قوته الخلاقة .. وقد كان مولعا بعلم الانسان ، ومتمركزا حول الانسان Anthropocentriste الى درجة لا سبيل الى التعبير عنها . وكانت مشكلة الانسان تستغرقه الى حد الهوس ، بل كانت تلتهمه التهاما . ولم يكن الانسان في نظره مجرد ظاهرة طبيعية ، ظاهرة من نفس النظام الذي تتبعه سائر الظواهر أيا كان ارتفاعها في سلم الكائنات : انما كان الانسان بالنسبة اليه عالما مصغّرا Un microcosme ومركزا للوجود وشمسا يتحرك حولها كل شيء . وفي الانسان يكمن لغز الكون ؛ وحل مسألة الانسان معناه حل مسألة الاله . ومؤلفات دوستويفسكي كلها تمثل نوعا من الشفاعة من اجل الانسان ومصيره شفاعة تصل الى حد الصراع مع الاله ، وتنحل اخيرا بتسليم هذا المصير الانساني الى الاله ـ الانسان ، الى المسيح . مثل هذا التصور الانثروبولوجي (البشري) الى هذا الحد الخالص ليس ممكنا الا في عالم مسيحي ، وفي حقبة مسيحية من التاريخ . فلاشيء من هذا نجده في العالم القديم ؛ وانما المسيحية هي التي وجهت العالم صوب الانسان ، وجعلت من هذا الاخير شمس الكون . ومن ثم فقد عامل دوستويفسكي الانسان على نحو مسيحي عميق . ومن هنا كان كاتبا مسيحيا عظيما ، فضح العيب الاساس في النزعة الانسانية Lhumanisme الا وهو عجزها عن العثور على حل لمأساة المصير الانساني .

وهكذا لايعرف انتاج دوستويفسكي شيئا خارج الانسان وهو لايرى في الانسان نفسه مايمكن ان يربطه بالعالم الخارجي ، بتيار من الحياة الموضوعية . فالروح الانسانية توجد وحدها وهي وحدها التي تهم الكاتب . وقد كتب ستراخوف Strakhov الذي كان يعرف دوستويفسكي معرفة وثيقة ، كتب في معرض الحديث عنه : « كان انتباهه كله موجها صوب الناس وكان سعيه منصبا فحسب على ادراك طبيعتهم وشخصيتهم . كان معنيا بالناس ، بالناس وحدهم ، وبتركيبة نفوسهم ، وطريقتهم في الحياة ، وبمشاعرهم وافكارهم . » وفي اثناء رحلة قام بها دوستويفسكي للخارج : « لم تكن الطبيعة او الذكريات التاريخية ، أو الأعمال

Twitter: @ketab_n

الفنية هي التي تستوقف دوستويفسكي بخاصة . » ولا ريب انه قد صور المدينة ، في كل رواية من رواياته ـ المدينة بأحيائها العفنة ، وحاناتها المقززة ، وبنسيوناتها المنفِّرة . بيد ان المدينة ليست سوى الجو الذي يعيش فيه الانسان ، فهي فصل من مصيره الفاجع ، والمدينة متشبعة بالانسان الذي يقطنها .. انها نسيج الخلفية التي يتحرك عليها . والواقع ان الانسان قد اعرض عن الطبيعة واستأصل جذوره ، وسقط في احشاء المدن البغيضة ، وهناك استغرقته الوان العذاب . ذلك لأن المدنية هي مكان مصيره الفاجع . بطرسبورج مثلاً بطرسبورح التي احس بها دوستويفسكي وصورها بهذه الطريقة المدهشة جدا ـ ليست الا رؤية طيف تولد من رأس الانسان الجوال المارق . ووسط ضباب هذه المدينة ـ الشبح تتولد أفكار مجنونة ، وتنضج خطط اجرامية . وفي هذا الجو يتركز كل شيء ويتراكم حول الانسان ... الانسان المستأصل من أصوله الالهية : والاشياء جميعا التي تحيط به والمدينة بزخمها الخاص ، وبزخارفها ورياشها البشع والنفايات القذرة النتنة ، وكل تلك الحبكة الخارجية للرواية .. لا تمثل جميعا سوى علامات .. رموز للعالم الروحي الباطني للانسان ، انعكاس لمأساته الباطنة . فما من شيء خارجي ، ينتسب الى الطبيعة او الى المجتمع او الى العادات ، يتمتع عند دوستويفسكي بحقيقة في ذاته وتلك الحانات التي يتحادث فيها « الفيتان الروس » عن المشكلات العالمية ليسوا هم ايضا سوى اسقاطات للروح الانسانية وللجدل الايديولوجي الملتحم التحاما وثيقا بمصير هذه الروح . اما تعقيد الحبكة ، والتباين الخارجي للشخصيات التي تُقبل أو تُدبر متلهفة في هذا الاعصار العاطفي ، فلا يعكسان سوى الروح الانسانية الفريدة في اعماقها الباطنة . وهما ضروريان لأظهار اللحظات المستترة للمصير الى النور : بيد ان كل شيء يتحرك حول اللغز الانساني .

وتنبني روايات دوستويفسكي جميعا حول شخصية مركزية سواء كانت الشخصيات الثانوية تتلاقى نحوها او كانت ـ على العكس ـ تشع صوب الشخصيات الثانوية . هذه الشخصية الاساسية تمثل دائما لغزا يجتهد كُلٌّ في كشف الحجاب عنه . اليكم على سبيل المثال رواية « المراهق » L'Adolesleni وهي

Twitter: @ketab_n

عمل من اهم اعمال دوستويفسكي وأقلها تقديرا . فالكتاب كله يدور حول شخصية مركزية شديدة الجاذبية على نحو خارق هي شخصية فرسيلوف Versilov ويبدو أن لاشيء يوجد في الكتاب الا من أجله او من أجل النفور أو الجاذبية التي يستطيع الايحاء بها . وليس للشخصيات الاخرى سوى غاية واحدة او « شأن » آخر سوى اكتشاف سره سر شخصيته سر مصيره الغريب . ولن يجد احدهم الراحة الا اذا هتك السر الذي يحيط بطبيعة فرسيلوف . انه الشاغل الحقيقي ، الفريد ، الانساني على نحو عميق ، لحياتهم . ومن وجهة النظر الشائعة يمكن اعتبار شخصيات دوستويفسكي عاطلة من العمل . فالعلاقات القائمة بينهم هي التي تشكل « عملهم » الرئيسي : بيد انه « عمل » في الواقع بل اكثر الاعمال جدية ، هذه العلاقات الانسانية وفي المملكة الانسانية المتنوعة الى ما لانهاية في اعمال دوستويفسكي ، لا يحتاج المرء الى البحث عن شيء آخر . وهكذا حول محور الشخصية الرئيسية تتحرك باستمرار دوامة من العواطف الجامحة ، دوامة تصعد من اعماق الطبيعة الانسانية نفسها ، من تلك المنطقة تحت الأرضية ، البركانية ، من تلك الاغوار البشرية السحيقة . بأي شيء ينشغل المراهق ، الابن الطبيعي لفرسيلوف ، انشغالا دائما ، وماهو همه الوحيد من الصباح حتى المساء ، دون انقطاع أو راحة ؟ انه الجري من شخص الى آخر لمعرفة سر فرسيلوف والكشف عن لغز شخصيته . « مسألة » جدية الى أقصى حد . ذلك ان كل شخص في الرواية يقدر اهمية فرسيلوف وكل منهم مندهش بما تنطوي عليه الحقيقة من تناقض ولا معقول . ان لغز حياته قد وضع ؛ ولكن الحقيقة هي انه لغز المصير الانساني جميعا . هذه الشخصية المعقدة المتناقضة اللامعقولة التي هي فرسيلوف ، تضم لغز الانسان بعامة . ولهذا لا يوجد شيء خارجه ، ولا يوجد شيء الا من أجله ولا يوجد شيء الا بالنسبة اليه : فليس كل شيء الا تجسيدا لمصيره الباطني الخاص .

هذا البناء المركزي نفسه هو ما يميز رواية « الممسوسين » Les possedes فستافروجين نجم تدور حوله كل حركة ، كل شيء ينزع نحوه وكأنه شمس ؛ كل شيء يخرج منه ويعود اليه . تشاتوف ، فرهوفنسكي ، كيريلوف .. هؤلاء جميعا

Twitter: @ketab_n

ليسوا سوى شظايا من شخصية ستافروجين المفككة ، انبثاقات صادرة عن شخصيته الفذة التي تستهلك نفسها في هذا التناثر . لغز ستافروجين ، سر ستافروجين . هذه هو الموضوع الفريد لرواية « الممسوسين » . والفكرة الثورية المسيطرة التي يمتلىء بها الكتاب ، تمثل لحظة في مصير ستافروجين وهي ترمز الى نشاطه الباطني الى طغيانه . ويعتقد دوستويفسكي ان اساس الوجود لايمكن التعبير عنه في الظروف الثابتة اليومية للحياة ولايمكن ان يظهر الى النور الا في تيار من النار تنصهر فيه كل الاشكال الدائمة وتبيد كل الاطر الاجتماعية الجامدة المتحجرة . ودوستويفسكي يجعلنا ننفذ الى تلك الاغوار السحيقة للمتناقضات الانسانية والتي تبدو عند فنانين من نمط آخر ـ متنكرة تحت قناع الحياة الاجتماعية واكتشاف هذه الاغوار السحيقة يفضي بالانسان ـ حتما ـ الى الكارثة ، اذ يكون قد تجاوز القواعد القديمة التي استقرت من اجل انسجام العالم . وهكذا نشاهد في « الممسوسين » تفكك شخصية انسانية عظيمة لأنها استهلكت قوتها في تطلعات لا حد لها بحيث لم يتبق لها أية ملكة تستطيع ان تقدم بها على الاختيار أو التضحية .

أما تصور « العبيط L'idiot فيتعارض مع تصور « المراهق » و « الممسوسين » . فالحركة في « العبيط » لاتتجه صوب الشخصية المركزية وهي شخصية الأميرميشكين Muichkine ، ولكنها ـ على العكس ـ تبدأ من الأميرميشكين لتتجه صوب الشخصيات الأخرى . وميشكين هو الذي يحل لغز كل شخص ، وبخاصة لغز المرأتين أجلاييه Aglae وناستاسيا فيليبوفنا Nastia philppovna فهو يهرع لمعونتهما ، زاخرا بالمشاعر التنبؤية وبالبصيرة الحدسية الشفافة . والعلاقات بين البشر هي شغله الشاغل الذي نذر له نفسه جميعا . وتنطلق العاصفة حوله ، ولكنه هو نفسه يعيش في وَجْد صامت . وقد رأينا أن المبدأ الملغز واللامعقول ، « والشيطاني » بحق الذي تنطوي عليه نفس كل من ستافروجين وفرسيلوف ، كان يؤجج الجو المحيط ، ويولّد حولهما دوارا جهنميا . أما المبدأ اللامعقول أيضا ـ وان يكن هذه المرة « ملائكيا » ـ الذي تتصف به طبيعة ميشكين ، فأنه لا

Twitter: @ketab_n

يخلق بنفسه حالة التسلط أو المس المرضية Lolsession ، ولكنه عاجز عن طردها من حوله ، وان كان ميشكين يريد بكل روحه أن يكون شافيا . ولم يكن ميشكين انسانا كاملا Complet بالمعنى الذي يعطيه دوستويفسكي لهذه الكلمة . ولامراء في ان طبيعته من ماهية صاروفية (ملائكية) ، ولكنها ناقصة . وقد حاول دوستويفسكي فيما بعد تقديم الانسان الكامل في آليوشا Aliocha . ومن الشائق ان نرى أنه بين أبطال دوستويفسكي على حين أن الذين تحيطهم الظلمات ويلفّهم الغموض مثل ستافروجين وفرسيلوف وإيفان كارامازوف ، هم الذين نجتهد في تخمين مقاصدهم وشخصياتهم والذين تتجه صوبهم كل حركة ـ نجد ان الذين يشع منهم النور Lumineux ـ من أمثال ميشكين وآليوشا ـ هم الذين يخمنون مقاصد الآخرين ، وتبدأ منهم الحركة . فآليوشا يخمن إيفان (« ايفان لغز ») ، وميشكين يقرأ في نفس ناستاسيا فيليبوفنا وآجلاييه . وعلى حين أن « المنيرين » يتمتعون بموهبة التنبؤ ويحاولون المسارعة الى نجدة الآخرين ، نرى ان « المظلمين » يشتركون في طبيعة ملغزة ، تزعج اشباههم وتعذبهم . هذا هو تصور الحركة المركزية الطاردة والجاذبة بين الكائنات الذين تحفل بهم روايات دوستويفسكي .

أما « الجريمة والعقاب » فقد كان تصورها مختلفا . فالمصير الانساني لايحل في الجماعية Collectivite ، في ذلك الجو المحرق من العلاقات الانسانية : وانما يكتشف راسكولنيكوف بينه وبين نفسه على انفراد حدود الطبيعة الانسانية ، وعلى طبيعته الخاصة يمارس تجاربه . ان راسكولنيكوف « المظلم » ليس « ملغزا » بعد مثل ستافروجين او ايفان . بل يمثل مرحلة أقل تقدما على طريق الطغيان الانساني حيث يسبقهما ، وهو لم يصل بعد الى ما هما عليه من درجة التعقيد . وليس راسكولنيكوف هو نفسه الذي يبدو لنا مُلْغزا ، بل جريمته . فهنا يتعدى الانسان حدوده . بيد ان طعْم الطغيان عنده لم يبدِّل بعدُ طبيعته البشرية بصورة جذرية . وراسكولنيكوف ـ شأنه في ذلك شأن بطل « روح تحت الأرض » يضع مشكلات وألغازا . وسيكون فرسيلوف وايفان كارامازوف وستافروجين هم أنفسهم هذه المشكلات وتلك الألغاز .

Twitter: @ketab_n

كان دوستويفسكي قبل كل شيء عالما عظيما بالأنثروبولوجيا (علم الانسان) مجرِّبا على الطبيعة البشرية . وقد اكتشف علما جديدا للانسان ، وقام بتطبيق منهج جديد للبحث عليه ، لم يكن معروفا من قبل . والعلم الفني او لوشئنا التفضيل ـ الفن العلمي (الذي قام دوستويفسكي بتطبيقه) يدرس الطبيعة البشرية في طياتها بعيدة الغور وفي اتساعها بغير حدود ، كاشفا عن أعمق طبقاتها ، وأشدها احتجابا . فهي تجربة روحية تلك التي يجريها دوستويفسكي على الانسان : اذ يضعه في ظروف استثنائية ، مستبعدا كل التكوينات الخارجية واحدا اثر الآخر ، مقوضا الأسس الاجتماعية جميعا . وهو يواصل دراسته الانثروبولوجية وفقا لمنهج الفن الديونيزوسي ، وفي الوقت نفسه الذي ينفذ فيه الى الأعماق الغامضة للطبيعة البشرية ، تنفذ معه الى تلك الطبيعة اعاصير عنيفة . وما أعمال دوستويفسكي جميعا سوى انثروبولوجيا متحركة ، تتكشف فيها الاشياء في جو من الوجد واللهيب : بحيث لا تتضح الا لأولئك الذين تجتاحهم هم أنفسهم تلك العاصفة . فلا شيء ساكن في مثل هذه الأعمال ولا شيء جامدا او متحجر . كل شيء دينامية ، حركة ، سيل لاينقطع تدفقه من الحمم الملتهبة . ودوستويفسكي يصحبنا الى الاغوار السحيقة الغامضة ، الفاغرة أفواهها في باطن الانسان ـ عبر أشد الظلمات كثافة . ومن الظلمات ينبغي ان يومض بصيص من النور .. وهو يريد له أن ينبثق . وعلى هذا النحو يتناول دوستويفسكي الانسان متحررا ، متجردا من القوانين ، متحاشيا للنظام الكوني ، فيتابع مصيره في هذه الحرية . ويكشف عما يقوده اليه هذا المصير حتما . هذا هو مايهم دوستويفسكي اكثر من اي شيء آخر : مصير الانسان ، الذي ما ان يمتلك الحرية حتى يتخبط حتما خبط عشواء . وهنا فحسب تتجلى اعماق الطبيعة البشرية وسر هذه الاعماق لايمكن ان يتبدى من خلال وجود سويّ ، وجود مستقر على ارض راسخة . كلا ، ان مصيره لا يعنى دوستويفسكي الا في اللحظة التي يقف فيها الانسان ضد النظام المستقر موضوعيا للكون ، وحين ينتزع نفسه من الطبيعة ، ويستأصل جذوره العضوية ، ويحقق جانبه الجزافي المستبد . وهذا المنشق عن الطبيعة ،

Twitter: @ketab_n

وعن الحياة المنتظمة ، يلقى بنفسه ـ وفقا لدوستويفسكي ـ في المطهر وفي جحيم المدينة ، وهناك يسلك سبيل العذاب ، ويكفّر عن خطئه .

وقد يكون من المفيد ان نقارن بين تصور الانسان عند كل من دانتي وشكسبير ودوستويفسكي . أما بالنسبة لدانتي ـ وهو هنا لايختلف عن القديس توما الأكويني ـ ليس الانسان سوى جزء عضوي من النظام الموضوعي للعالم ، للكون الالهي . وهو درجة من درجات التصاعد الكلي Universelle hierarchie . وفوق الانسان ، توجد الجنة والجحيم تحته . والرب والشيطان حقيقتان تنسبان الى النظام الكلي ، المفروض من الخارج على الانسان . ودوائر الجحيم ومافيها من ألوان العذاب الرهيب ، تؤكد وجود هذا النظام الموضوعي الالهي . ولايتكشف الله والشيطان والجنة والنار في أعماق الروح الانسانية او في أغوار التجربة البشرية ، وإنما تُعْطى للانسان ، إذ تملك واقعا معادلا لواقع موضوعات العالم المادي . هذا التصور للعالم الذي شع في العصر الوسيط ، والذي كان دانتي المفسِّر العبقري له ، يرتبط ارتباطا وثيقا بتصوّر العالم عند الانسان القديم . اذ كان هذا الانسان يشعر بأن الجنة فوقه بمراتبها التصاعدية السماوية ، وان الجحيم تحته . وهذا الايمان لم يحطمه الا عصر النهضة . فمنذ ذلك العصر يبدأ في الواقع تصور جديد تماما للعالم . لقد بدأت حقبة النزعة الانسانية ، وهي النزعة التي يؤكد بها الانسان نفسه ، ويغلق عليها في عالم الطبيعة ، لقد أوصدت الجنة والجحيم أبوابهما أمام الانسان الجديد ، بيد ان لا متناهي العوالم قد انفتح امامه . لم يعد ثمة وجود لكون فريد بمراتبه المنظمة ، ولم تعد السماء الفلكية اللامتناهية الخالية تشبه في شيء سماء دانتي ، سماء العصر الوسيط : وهنا نستطيع أن نفهم ذلك الرعب الذي افصح عنه بسكال أمام « الفضاءات اللامتناهية » . les espaces infinis والانسان ضائع في هذه الانعزالات اللا محدودة التي لم تعد تنظم الكون . ومن ثم فأنه يتوغل في نفسه ، في مملكته النفسية الشاسعة ؛ ويلوذ اكثر فأكثر بالأرض ، ويخشى ان ينفصل عنها انه يخاف من ذلك المتناهي الغريب عنه . وهذه هي المرحلة الانسانية للعصور الحديثة ، التي اخذت خلالها القوى الخلاقة للانسان تصاب

Twitter: @ketab_n

بالارهاق . فالانسان لم يعد مقيدا بأي نظام كوني موضوعي ، معطى من الخارج ، بل أصبح يشعر بأنه حر . انه عصر النهضة (الرينيسانس) ، وقد كان شكسبير واحد من اعظم عبقرياته . ولأول مرة تكشف اعماله عن عالم النفس الانسانية ، ذلك العالم المعقد الى ما لانهاية ، المتنوع ، عالم الانفعالات الزاخر بالقوة والطاقة ، والذي يمور بتفاعلات قوى الانسان بعضها مع البعض الآخر . وكان فردوس دانتي وجحيمه قد اختفيا فعلا من مؤلفات شكسبير . ذلك ان تصور العالم كما وضعه اصحاب النزعة الانسانية Humanistes هو الذي حدد انتاجه والمكان الذي يحتله الانسان فيه : وهو تصور متجه صوب العالم النفسي للانسان ، لاصوب العالم الروحي ، او صوب الأعماق الأخيرة لروحه . كان الانسان واقفا عند محيط الروح ؛ منصرفا عن المراكز الروحية . وقد كان شكسبير ـ وهو النفساني العظيم ـ نفسانيٌ فن النزعة الانسانية . L'art Humaniste

أما دوستويفسكي فقد ظهر في حقبة أخرى من الزمان وفي مرحلة أخرى من مراحل الانسانية . فالانسان لم يعد منتميا لديه هو ايضا ـ الى ذلك النظام الكوني الموضوعي الذي كان ينتمي اليه انسان دانتي . وفي غضون المرحلة الحديثة حاول الانسان ان يثبت أقدامه على سطح الأرض ، وأن يحصر نفسه في عالم انساني خالص . أما الرب والشيطان ، والنعيم والجحيم ، فقد أبعدهم نهائيا في مجال مالا يقبل المعرفة L'inconnaissble ، دون ان يكون ثمة إتصال بينهم وبين العالم الأرضي ، حتى فقدوا كل واقعية . وأضحى الانسان مخلوقا مسطّحا ذا بعدين : اذ فقد بُعد العمق . ولم تتبقَّ له غير نفسه . أما روحه فقد طارت . ولكن ، ذات يوم ، نضبت القوى الخلاقة ، وغاص الفرح الذي اتسم به عصر النهضة . وشعر الانسان أن الأرض تحت قدميه لم تعد بالرسوخ والثبات كما كانت تبدو له . ومن هذه الاعماق الموصدة صعدت بغتة أصوات هادرة ، وبدأ الوجود تحت الأرضي وطبيعته البركانية في الظهور . وانفتحت في صميم الانسان نفسه هاوية لاقرار لها ، وهناك ظهر الرب والشيطان من جديد ، وظهرت الجنة والنار . وفي هذه الاعماق ، لم يكن من المستطاع التحرك في بادىء الأمر إلا تحسسا : اذ أخذ ضوء النهار الذي كان

Twitter: @ketab_n

ينير عالم النفس والعالم المادي المقدر له ـ أخذ في الخفوت ؛ على حين لم يكن من شأن النور الجديدان يتوهج بغتة .

وكان العصر الحديث اشبه بمرحلة اتقان الصنعة بالنسبة للحرية الانسانية ، وفيه أخذت قوى الانسان تتحقق في حرية ولكن في نهاية هذه المرحلة من التاريخ ، انتقل هذا الاختيار للحرية الانسانية الى مستوى آخر ، في بُعْد آخر ، وهناك شرع المصير الانساني في القيام بدوره . فالحرية الانسانية بعد ان هجرت العالم النفسي الذي ينيره ذلك الضوء النهاري الذي سطع على العصر الحديث كله ـ هذه الحرية الانسانية ارتبطت بأعماق العالم الروحي . وساد الاعتقاد بأن الأمر أشبه بهبوط الى الجحيم وهنا تجلى للانسان من جديد ، لا مجرد الشيطان والجحيم فحسب ، بل الرب والنعيم أيضا ؛ ولم يكن ظهور هذا كله وفقا لنظام موضوعي ، مفروض على الانسان من الخارج ، ولكنه كان أشبه بالتقاء مع الأعماق العليا للروح الانسانية ، وكأنه واقع يتكشف باطنيا . ومؤلفات دوستويفسكي جميعا نجدها في هذه المعاني . والانسان يحتل فيها مكانا يختلف تماما عن المكان الذي يحتله في مؤلفات دانتي او شكسبير . فالانسان لايشارك في نظام ثابت موضوعي ، كما أنه لايستقر على سطح الأرض ، أو على سطح نفسه . لقد رُدَّت اليه الحياة الروحية ، ولكنه لم يجدها الا في نفسه ، وفي أعماقه الخاصة ، من خلال الظلمات ، وعبر المطهر والجحيم . فالسبيل الذي سلكه دوستويفسكي ، مباطن Immanent اذن للحياة الروحية ، وليس عاليا عليها Transcendant وليس معنى هذا ـ واعتقد انه مفهوم جيدا ـ انه انكر كل واقع متعال .

* * *

الفردية المتطرفة ، والانعزال ، والتمرد على الانسجام الخارجي للعالم .. هذه هي السمات الاولى للانسان المتحرر . وهي تتحول لديه الى أنانية مرضية ، تجعله يكتشف المناطق التحتية من وجوده . فبدلا من ان يبقى على سطح الأرض ، يهبط الانسان الى ما تحتها . وهذا الانسان تحت الأرضي ، هذا المخلوق الشائه الذي يخلو من الجمال ، يظهر للناس ، ويعرض جدله (ديالكتيكه) . ويقوم دوستويفسكي في روايته « الروح تحت الأرض » بسلسلة من الكشوف عن

Twitter: @ketab_n

الطبيعة الانسانية . الطبيعة البشرية متطرفة ، متناقضة ، لامعقولة . وفي الانسان انجذاب لا يقاوم صوب اللامعقولية ، صوب الحرية الجامحة التي لاتحكمها القواعد ، صوب العذاب . فالانسان لاينزع بالضرورة الى الكسب . وطغيانه يدفعه في كل لحظة الى ايثار المعاناة . فهو لايتكيف مع تنظيم عقلاني للحياة ، ويضع الحرية في مرتبة أسمى من السعادة . بيد ان الحرية ، ليست هي أولوية العقل على العنصر النفسي : كلا ، انها حرية لا معقولة الى أقصى حد ، خرقاء ، تجر الانسان الى ماوراء الحدود الموضوعة له . وهذه الحرية اللامحدودة تسومه العذاب ، وتسوقه الى الخراب . العذاب والخراب هما اللذان يعتز بهما الانسان . والكشوف التي يقوم بها دوستويفسكي لما تحت الأرض في الموجود الانساني تحدد مصير راسكولينكوف وستافروجين ، وايفان كارامازوف .. الخ . وهنا تبدأ الرحلات الأليمة للانسان على طريق الحرية العشواء : وهذه الرحلات (او السياحات) تفضي به الى الحدود القصوى للازدواجية . .

هذا الجدل عن الانسان ومصيره الذي انفتح في « الروح تحت الأرض » يتطور من خلال روايات دوستويفسكي جميعا ، حتى يجد خاتمته في « اسطورة المفتش الأكبر » . وهنا يصبح ايفان كارامازوف هو الخطوة الأخيرة على طريق الطغيان ، والتمرد على الاله . وبعد هذا تظهر شخصية زوسيما وآليوشا (وكانا قد ظهرا من قبل) . وسنرى كيف ينحل هذا الجدل الفاجع للانسان في « اسطورة المفتش الأكبر » بصورة السيد المسيح . ولكن ، بم بدأ هذا الجدل ؟

ان إنسان « تحت الارض » ينفر من كل تنظيم قائم على الانسجام وعلى السعادة الشاملين . ويقول بطل « الروح تحت الأرض » : « لن يتولاني العجب اذا ظهر بغتة ودون سابق انتظار ، وسط كل هذا « العقل » الكلي المقبل ، سيد مهذب له سحنة سوقية ، أو ان أحسناً القول ، متخلف ومستهزىء ، وقد وضع قبضتيه على عجزيه ليقول لنا : « مالكم ! أيها السادة ، ألايجوز لنا مرة أن نستهين بهذا العقل وندوسه بأقدامنا ليتحول هباء منثورا ، لا لشيء الا لكي نبعث الى الشيطان بكل هذه اللوغاريتمات ، ولنحيا وفق ارادتنا اللا معقولة ؟ » ولن

Twitter: @ketab_n

يكون هذا شيئا ، ولكن أشد مايبعث على الحيرة انه يجد اتباعا على الفور ؛ وهكذا صُنع الانسان . وهذا كله يصدر عن سبب شديد التفاهة الى درجة لايستحق معها الكلام عنه : وهو ان الانسان أيا كان ، وفي أي مكان وجد ، يطيب له أن يتصرف كما يفهم نفسه ، لا كما يوجهه العقل او المصلحة . ويستطيع المرء أن يريد شيئا ضد مصلحته الخاصة ، بل أحيانا يكون مضطرا الى ذلك . والتلاعب بارادته الحرة ، ونزوته الخاصة ، مهما يكن من اسرافها ، وخياله الذي قد يكون جامحا الى حد الجنون .. هذا هو أكبر كسب له ، الكسب الحقيقي الجوهري ، الذي لايمكن ادراجه تحت أي تصنيف ، والذي يقذف في مقابله بكل المذاهب ، وبكل النظريات الى الشيطان . اين اذن بحث هؤلاء الحكماء جميعا عن ارادة الانسان التي ينبغي ان تكون سوية فاضلة قبل كل شيء ؟ لماذا تخيلوا انه لابد للانسان من ارادة موجهة ـ في وقت واحد ـ الى العقل والى الربح ؟ لاحاجة للانسان الا الى ارادة مستقلة ، مهما كلفته من ثمن ، و أيا كانت النتيجة التي تسوقه اليها . « لاتوجدسوى حالة ، حالة وحيدة ، يستطيع فيها الانسان عن تدبير ، ووعي ، ان يتمنى لنفسه شيئا لامعقولا ، بل أشد الاشياء لا معقولية : هي ان يكون له حق الرغبة في اللامعقول . دون ان يرتبط بضرورة الا يرغب إلا فيما هو معقول . وهذا الشيء اللامعقول ، هذه النزوة ، يمكن أن تكون لجارنا ـ ايها السادة ـ انفع من أي شيء آخر في العالم ، أو على الأقل ، في مناسبات معينة . بل انه انفع حتى لو يجلب شرا واضحا ، او يناقض اكثر النتائج سلامة التي يصل اليها حكمنا فيما يتعلق بمصالحنا ، اذ يكون على كل حال قد صان أكثر الأشياء جوهرية لنا وأشدها اعزازا ، وأعني بها شخصيتنا وفرديتنا » . فالانسان ليس مصطلحا من مصطلحات الحساب ، ولكنه مُشْكل وغامض . وطبيعته متطرفة حتى اعماقه ، ومتناقضة . « فماذا يمكن ان ننتظر من الانسان ، ممن وُهب هذه الصفات الغريبة ؟ انه ينبغي أكثر الحماقات ضررا ، واقل العبث نفعا ، دون أي غرض الا أن يمزج العنصر الضار في خياله بكل هذا العقل الوضعي . والواقع انه يحرص على تأكيد خياله وسفاهته حتى يقنع نفسه بأن الناس ماهم الا أناس وليسوا أصابع مِعْزف . »

Twitter: @ketab_n

« واذا قلت ان كل شيء قابل للتحويل الى حسابات : العماء (الكابوس) ، والظلمات ، واللعنة ، وأن امكانية حساب مبدئي يمكن أن تحذّر من كل شيء ويظل العقل سيدا ، فأن الانسان يجعل من نفسه مجنونا بارادته ، حتى لا يكون له حكم ، ويتصرف على هواه . لأجبت بأنني مقتنع بهذا ، اذ يبدو لي ان مسألة الانسان كلها تتألف في أنه يريد ان يثبت لنفسه انه انسان وليس ترسا في آلة » ... « ما الذي تصير اليه الارادة الحرة اذا تحول كل شيء الى جداول حسابية ، اذا لم يوجد شيء سوى فكرة أن ٢ + ٢ تساوي أربعة ؟ ان ٢ + ٢ تساوي أربعة دون تدخل ارادتي ، فهل تتكون الارادة من هذا ؟ »

واذا كان الانسان يحب التدمير والفوضى ، أليس ذلك لأنه يخشى غريزيا ـ بلوغ غايته ، وتتويج الصرح الذي بدأه ؟ ومن يدري ، لعل الغاية التي تسعى اليها الانسانية على الأرض لاتتألف الا من هذه الاندفاعة المتصلة صوب غاية ، أو بمعنى آخر في الحياة نفسها ، بدلا من الغاية الحقيقية التي ـ من الواضح ـ انها يجب ان تكون صيغة ثابتة من طراز ٢ + ٢ تساوي أربعة ؟ لأن ٢ + ٢ = ٤ ، ليست هي الحياة ، بل انها بداية الموت . » ولماذا تقتنع كل هذا الاقتناع الملح الراسخ بأن السويّ وحده ، والوضعي وحده أو بعبارة واحدة ـ ان سعادة الانسان هي وحدها النافعة للانسان ؟ ألا يخطىء العقل في تحديد النفع ؟ ومن الممكن ـ على العكس ـ ألا يحب الانسان سعادته وحدها ، بل قد يعتز بعذابه الاعتزاز نفسه .. الى درجة الوله ... فأنا مقتنع بأن الانسان لايزهد ابدا في العذاب الحقيقي ، أعني في الدمار والعماء . العذاب ، ولكنه في الواقع المنبع الفريد للوعي . »

هذه التأملات العبقرية الأخّادة بما فيها من وضوح ـ نجدها عند أصل الكشوف جميعا التي توصل اليها دوستويفسكي عن الانسان ، خلال نشاطه المبدع . فليست مناهج الحساب هي ماينبغي تطبيقه على الأنسان ، وإنما مناهج الرياضيات العليا. ذلك ان المصير الانساني لا يقوم على هذه الحقيقة الاولية وهي ان ٢ + ٢ = ٤ . والطبيعة البشرية لاتقبل التحويل الى عمليات عقلية : اذ نجد دائما باقيا ، باقيا من اللا معقول ، هو منبع الحياة نفسها . كما ان المجتمع

Twitter: @ketab_n

الانساني لا يمكن « عقلنته » اذ يتبقى دائما مبدأ لا معقول لأن المجتمع البشري ليس مجتمعا للنمل ، واعتباره كذلك معناه عدم الاعتراف بالحرية الانسانية التي تدفع كلا منا الى أن يحيا « وفق ارادته اللامعقولة » وذلك السيد المهذب (الجنتلمان) ذو السحنة الهازئة المتخلفة يمثل في حقيقة الأمر تمرد الشخصية تمرد المبدأ الفردي ، تمرد الحرية التي لا تقبل الخضوع لغير العقل ، أو لسعادة اجبارية . والعداء العميق الذي كان يشعر به دوستويفسكي إزاء الاشتراكية ، وإزاء « قصر البللور » ويوتوبيا الفردوس الأرضي ، يتحدد هنا فعلا . وقد تطور فيما بعد الى أقصى مداه في « المسوسون » و « الاخوة كارامازوف » . فلا ينبغي على الانسان أن يقبل التحول الى اصبع في معزف أو الى ترس في آلة . ولقد كان دوستويفسكي يشعر شعورا شديد الحماسة للشخصية : وتقوم الشخصية عند اساس تصوره للعالم . وبفكرة الشخص يربط المشكلة الجوهرية في نظره ـ مشكلة الخلود . واذا كان دوستويفسكي هو الناقد العبقري لنزعة السعادة الاجتماعية Leudeinonisme social فذلك لانه اثبت التنافر القائم بين تلك النزعة وبين استقلال الشخصية وكرامتها .

وكان دوستويفسكي نفسه هو انسان تحت ـ الارض ؛ ألا يجعل من جدل الانسان تحت ـ الأرض جدله الخاص ؟ اذ أننا لانستطيع أن نضع هذا السؤال وأن نحله الا على نحو دينامي . وتصور العالم لدى الانسان تحت ـ الأرض ليس هو التصور الايجابي للعالم الذي تصوره دوستويفسكي . ففي هذا التصور الديني الايجابي يبين دوستويفسكي مضرة السبل العشوائية والتمرد الذي يرتبط به الانسان تحت ـ الأرض . ذلك لأن العشوائية والتمرد يفضيان الى تدمير الحرية الانسانية والى تفسخ الشخصية . بيد ان الانسان تحت الأرض بجدله المذهل عن الحرية اللامعقولة يمثل لحظة على الدرب الفاجع للانسان ، على الطريق الذي يحاول فيه ممارسة حريته واختبارها . ذلك أن الحرية هي الخير الأسمى ، ولايستطيع الانسان أن يتنازل عنها دون ان يتنازل عن نفسه ودون ان يكف عن ان يكون انسانا . فما يرفضه الانسان تحت الأرض في جدله ، يرفضه دوستويفسكي اذن في تصوره الخاص للعالم . وظل يرفض حتى النهاية عقلنة المجتمع الانساني ، وينكر كل محاولة لوضع السعادة والعقل والرفاهية في مرتبة

Twitter: @ketab_n

على من الحرية وكان ينكر « القصر البللوري » والانسجام المقبل القائم على تحطيم الشخصية الانسانية . ولكنه يقود الانسان عبر اكثر الدروب المتطرفة والعشوائية للتمرد حتى يكشف النقاب عن ان الحرية تتحطم بالعشوائية وان الانسان يعدم نفسه في التمرد . وسبيل الحرية هذا ينبغي ان يقود إما الى تأليه الأنسان ، او اكتشاف الله . وفي الحالة الأولى ، يصل الانسان الى نهايته والى ضياعه ؛ وفي الحالة الثانية يجد خلاصه ، والتوكيد الحاسم لصورته الارضية . ذلك ان الانسان لايوجد الا اذا كان صورة الاله وشبيه ، ولا يوجد الا اذا كان الرب موجودا . أما اذا لم يكن الرب موجودا ، وجعل الانسان من نفسه الها لا إنسانا ، فإن صورته الخاصة تبيد . وليس لمشكلة الانسان حل الا في المسيح . وهكذا فإن الجدل الوجودي للانسان تحت ـ الأرض ليس الا البداية ، نقطة الانطلاق لجدل دوستويفسكي نفسه : وهو جدل لا يجد نتيجته الا في « الاخوة كارامازوف » فحسب . بيد ان هناك نقطة قد تضمت فعلا : وهي ان الانسان لن يعود الى تصور عقل مفروض ، جبري ، هذا التصور الذي ثار عليه الانسان تحت ـ الأرض . وعلى الانسان ان يمر عبر محنة الحرية . ولقد رأينا كيف يبين أن الانسان عندما ندخله عنوة في أطر معقولة ، ونحصر حياته في حساباته « يتعمد ان يجعل نفسه مجنونا بهذه المناسبة حتى لا يكون له حكم ، ويتصرف على هواه » . فالعنصر « الخيالي » اذن في نظره ـ عنصر اساسي في الطبيعة الانسانية . وسيكون ستافروجين وفرسيلوف وايفان كارامازوف « مُلْغزين » ، لأن الطبيعة البشرية بعامة هي الملغزة ، ـ ملغزة في نقائضها ، وفي لامعقوليتها ، وفي انجذابها نحو العذاب .

* * *

يبرهن دوستويفسكي بواسطة علمه بالانسان (الانثروبولوجيا) على أن الطبيعة البشرية دينامية الى اقصى درجة ، وان ثمت حركة محتدمة تمور في اعماقها . أما السكون والثبات فلا وجود لهما الا على السطح ، فيما يؤلف الغلاف السطحي للانسان . ففي الانسان ، وتحت قناع العادات ، وانسجام النفس تختفي عواصف ، وتتفتح هُوَّات مظلمة . ولايهتم دوستويفسكي بالانسان الا في حركته العاصفة . وهو يهبط الى تلك الهوات المظلمة ليجعل النور ينبثق منها . ذلك

Twitter: @ketab_n

أن النور لا يصل لمعانه الى السطوح المنسجمة فحسب ولكنه يستطيع ان يسطع حتى يصل الى الأغوار ، وهذا النور هو اصدق الأنوار . وهذه الحركية العاصفة للانسان راجعة الى تناقض طبيعته بين قطبين ، الى صدمة الاضداد التي تحتدم فيه وهذه القطبية Pofitee وهذا التضاد هو ما يميز أساس الطبيعة البشرية . فلا وجود لوحدة أو راحة في تلك الاعماق ، ولا شيء سوى حركة متأججة . ودوستويفسكي لا يعتقد ان هدوء الأبدية يسكن أعماق الروح ، مختلفا في ذلك عن افلاطون ، وعن عدد كبير من المتصوفة . والتصادمات الصاخبة بين الاضداد لا توجد بالنسبة اليه على مستوى الجسد ومستوى النفس ، ولكنها موجودة ايضا على مستوى الحياة الروحية . فالموجود لا يمنح سطحه وحده للحركة ، وانما يمنح اعماقه ايضا . وهذه نقطة اساسية في علم الانسان (الانثروبولوجيا) ، وعلم الوجود (الانطولوجيا) عند دوستويفسكي . وهنا يبدو متعارضا مع التصور الجمالي (الاستيتيكي) للعبقرية الهللينية : فهو ينتمي الى العالم المسيحي الذي تكشفت فيه الدينامية المأساوية للوجود ، فضلا عن ذلك ، فأن العبقرية السلافية العبقرية الروسية تختلف ايضا في تصورها للأعماق الأخيرة للوجود عن العبقرية الألمانية ، كما عبرت عنها فلسفتها المثالية . فالألماني أميل الي الايرى صراع الاله والشيطان ، والنور والظلمات الا في المناطق السطحية المحيطة للروح : فما أن ينفذ الى اعماق الحياة الروحية حتى يبصر الله فيها ، ويشهد النور ؛ ويختفي كل تناقض . هذا هو فكر الغالبية العظمى من المتصوفة والفلاسفة الألمان . أما بالنسبة لدوستويفسكي الروسي ، فأن تناقض العنصرين الالهي والشيطاني ، والصدمة العاصفة بين النور والظلمات تستقر تماما في اعماق الانسان . وفي الأعماق الأخيرة للروح الانسانية ، ينشب الصراع بين الحرب والشيطان . ذلك ان الشر يملك هو ايضا طبيعة روحية وساحة المعركة بين الالوهية وبين الشيطان دفنت دائما في أعمق أعماق طبيعة الانسان . وهذا التضاد الفاجع بين هذين المبدأين قد اتضحا لدوستويفسكي لا في المجال النفسي حيث يظهر هذا التضاد لكل انسان وانما في ماهية الوجود نفسه . انه تمزق مأساوي ينفذ الى أعماق الحياة الالهية . وهكذا لاتشمل عبارة « الهي » وكلمة « شيطاني » ـ بالنسبة لدوستويفسكي ـ الفكرتين الخارجيتين تماما لكلمتي « خير » و « شر » . ولو ان

Twitter: @ketab_n

دوستويفسكي طور الى النهاية نظريته عن « الله » و « المطلق » لكان لزاما عليه ان يعترف بالتضاد في طبيعة الاله نفسها ، وان يكتشف في الاله هوة مظلمة مقتربا بذلك من نظرية يعقوب بيمه jacob Bqhme عن « اللاأساس » L'umgrund . فالقلب الانساني متناقض في ماهيته نفسها بيد ان القلب الانساني يستقر في الهوة التي لا أساس لها للوجود .

والى دوستويفسكي تنسب هذه الصيغة المذهلة القائلة بأن الجمال « سوف ينقذ العالم » فلا شيىء عنده يعلو على الجمال . والجمال الهي ، بيد أن هذا الجمال هذا التعبير الأسمي عن الكمال الأنطولوجي (الوجودي) يبدو لدوستويفسكي وكأنه متناقض ، مزدوج ، متضاد ، متأجج ، رهيب ، فهو لايتصور ماينعش الجمال من سكينة الهية وفقا للمثال الافلاطوني : ولكنه يرى فيه ـ على العكس ـ حركة محرقة ، وصدمات فاجعة . فالجمال يظهر له من خلال الانسان ، فلم يتصوره في النظام الكوني ، على المستوى الالهي . ومن هنا يجد فيه القلق الأبدي الذي يساور البشرية . الجمال اذن محمول في تيار هرقليطس . ونحن نتذكر كلمات ميتيا كارامازوف : « الجمال ... ولكنه شيء فظيع ومخيف . فظيع لأنه غير محدد ولايستطيع أحد تحديده ، اذ أن الله لم يخلق الا الغازا . وفيه تلتحم الضفاف المتعارضة وتتعايش الاضداد .. الجمال ! أنا لا أستطيع أن احتمل أن يبدأ رجل كبير القلب سامي الروح بالمثل الاعلى للمادونا لكي ينتهي بالمثل الأعلى لسدوم . Sodome وأخوف من هذا ايضا ذلك الذي يستقر في نفسه فعلا المثل الأعلى لسدوم ثم لاينكر المثل الأعلى للمادونا ، والذي يستمر في الاحتراق من أجله في فؤاده ، وبكل الحقيقة كما كان يفعل في عهد براءته الفتية . كلا ، ان الانسان رحب جدا ، وكنت أريد اختزاله . » او كما قال أيضا : « ليس الجمال شيئا مخيفا فحسب ولكنه شيء غامض والشيطان يصارع ضد الاله فيه ، وساحة المعركة هي القلب الانساني » وكذلك وجد نيقولاستافروجين « في القطبين المتعارضين هوية الجمال والمساواة في المتعة » ، وقد تعرف في مثال المادونا ، ومثال سدوم على قوة جذب ماثلة . وكان وجود الجمال في هذين المعبودين المتضادين في وقت واحد معا ، أمرا يعذب دوستويفسكي تعذيبا عميقا : فكان يشعر بأن في الجمال عنصرا معتما وشيطانيا . هذا العنصر من الشر والظلمات سنرى فيما بعد

Twitter: @ketab_n

انه سيجده حتى في الحب الانساني ، وعلى هذا النحو كان الشعور بالتناقص في الطبيعة الانسانية قد لغ أقصى مداه .

* * *

كان الوعي بهذه الازدواجية ، بهذا الاستقطاب في الطبيعة البشرية بهذه الحركة المأسوية التي تصل الى الاعماق الأخيرة ، الى الطبقات النهائية للوجود ، كانت مرتبطة عند دوستويفسكي بواقعة ظهورها في اللحظة التي كانت تختتم فيها الحقبة الحديثة ، وعلى عتبة مرحلة جديدة من مراحل التاريخ ، حتى يكتشف في الانسان الصراع بين الاله ـ الانسان وبين الانسان الأعلى[1] ، بين المسيح وضد ـ المسيح ، وهو صراع لم يكن معروفا في العصور السابقة التي لم يظهر فيها الشر الا في أشد صوره أولية وبساطة . أما اليوم ، فلم تعد النفس الانسانية تستقر على أرض ثابتة ، بل اخذ كل ماحولها في الاهتزاز ، وجعل كل شيء يزدوج بالنسبة للانسان الذي يعيش في الاوهام والأباطيل ، مُهدّدا تهديدا ابديا بخطر التغيير ، ويتبدى الشر تحت قناع الخير ، فيقود الى الغواية . وصورة المسيح وضد ـ المسيح ، والانسان المتأله ، والاله الذي صار انسانا ، كل هذه الصور قد أصابها الازدواج . وربما شاهدنا مثلا على ذلك في مؤلفات ميريجكوفسكي Merejkovski الذي لايستطيع ان يميز بدقة أين يقع المسيح واين يقع ضد ـ المسيح . وكتابه « ليون تولستوي ودوستويفسكي » الرائع في كثير من آرائه متشبع بهذه الثنائية ، وبهذا الالتباس المستمر .

وتدرج المرحلة المعاصرة عددا كبيرا من الاشخاص في عداد « أصحاب الأفكار المزدوجة » ! وهؤلاء ينتمون الى النوع الانساني الذي اخرجه دوستويفسكي إلى النور ، ولا جدوى من تطبيق القواعد الاخلاقية القديمة عليهم : فالوصول الى نفوسهم أشد تعقيدا من ذلك الى مالا نهاية . ومصير هذه النفوس التي تتخللها موجات الأثير الرؤياوي هو ماأراد دوستويفسكي دراسته ، وهو ما

---

(١) تستخدم كلمة الانسان ـ الاله (او الانسان الاعلى) في اللغة الروسية بالمعنى المضاد للمسيح ، بوصفه تجسيد للروح المضادة للمسيح Antehriat . انه الانسان الذي يؤله نفسه .

Twitter: @ketab_n

ألقى عليه ضوءا باهرا . فهو يتناول الانسان في اللحظة التي تنتابه فيها ازمة روحية ودينية عميقة : وفي هذه اللحظة من المصير الانساني نستطيع ان نقوم بكشوف جوهرية عن الطبيعة البشرية بوجه عام . ومن ثم فإن ظهور دوستويفسكي يشكل مرحلة جديدة تماما في المعرفة الانثروبولوجية . فهو ليس مسيحيا تقليديا بالمعنى الذي يقصده آباء الكنيسة ، كما انه ليس من أصحاب النزعة الانسانية .

ففيم يتألف اكتشافه ؟ انه لايقنع بالعثور على **الحقيقة القديمة الابدية المسيحية عن الانسان** ، تلك الحقيقة المنسية التي استهين بها في عصر النزعة الانسانية . بيد ان محاولة ايجاد مرحلة انسانية من التاريخ ، وتجربة الحرية الانسانية لم تكونا بلا جدوى ، ولا تشكلان في المصير الانساني اخفاقا تاما . فقد ولدت من هذه التجربة نفس جديدة ، بشكوك جديدة ومعرفة جديدة بالشر ، ولكن ، بآفاق جديدة ايضا ، وبوجهات نظر جديدة ، وبتعطش الى صلات جديدة مع الله . لقد بلغ الانسان مرحلة اكثر تقدما من النضج الروحي . وهكذا كان علم الانسان (الانثروبولوجيا) المسيحي ، والمسيحي بعمق عند دوستويفسكي - مختلفا عن علم الانسان عند آباء الكنيسة . ذلك ان علم الانسان الذي كان يعتنقه آباء الكنيسة ودكاترتها ، ومعرفة سبل الانسانية كما تستخلص من أعمال القديسين وحياتهم ، لم تعد تجيب على كل الاسئلة التي يمكن ان يضعها انسان بلغ درجته الحالية من النمو الروحي ، ولم تعد تعرف الشكوك جميعا ، والغوايات جميعا . لم يصبح الانسان خيرا مما كان ، ولم يقترب من الله ، بيد ان نفسه تعقدت الى مالا نهاية ، على حين أن روحه قد اصابتها الحموضة . وليس من شك ان النفس المسيحية السابقة على ذلك قد عرفت الخطيئة ، واستسلمت لسلطات الشيطان . ولكنها كانت تجهل هذه الازدواجية في الشخصية التي عرفتها النفوس موضع دراسة دوستويفسكي . كان الشر قبل ذلك اوضح وابسط ، فأصبح من العسير اليوم شفاء نفس معاصرة من عللها الروحية بأدوية الماضي فحسب . وقد ادرك دوستويفسكي هذا ، وعرف كل ماسيعرفه نيتشه ، وان زاد عليه شيئا . وفي

Twitter: @ketab_n

مضاد ذلك ، لم يعرف معاصره تيوفان الناسك Theopahane L'rcimite ، الزاهد والكاتب الارثوذكسي الذي يعد من الثقات في روسيا ـ لم يعرف ما عرفه دوستويفسكي ونيتشه ، ولهذا لم يستطع ان يجيب على العذاب الناشيء عن التجربة الانسانية الجديدة . وهذا الشيء الذي عرفه كل من دوستويفسكي ونيتشه هو ان الانسان حر بفظاعة ، وان حريته مأسوية ، وانها عبء عليه ، وعذاب له . ولقد شاهدا الطريق الذي يبدأ من الانسان وهو ينشق الى اثنين : طريق يتجه الى الاله ـ الانسان ، أي الى المسيح ، والآخر يتجه صوب تأليه الانسان لنفسه الى الانسان الأعلى . وقد ظهرت لهما النفس الانسانية في اللحظة التي انسحب منها الاله تماما ، وهو هجران يؤلف تجربة دينية من نوع خاص ، وبواسطة هذه التجربة وبعد اختفاء طويل في الظلمات ، ومض نور جديد . وهذا هو ما تختلف فيه مسيحية دوستويفسكي بعمق عن مسيحية تيوفان الناسك . وهذا هو السبب الذي جعل رهبان دير اوبتين Optyne لايعدونه واحدا منهم ، بعد قراءة « الاخوة كارامازوف » . ان الطريق الذي يؤدي الى المسيح ، قد اكتشفه دوستويفسكي من خلال الحرية اللامحدودة . وعلى هذا الطريق اللامحدود نفسه ، برهن على الغواية الكاذبة لضد المسيح ، ولكل محاولة تريد ان تجعل من الانسان الها . وأيا كان الأمر ، فقد أطلق على الانسان كلمة جديدة .

ولاتسجل مؤلفات دوستويفسكي هذه الازمة حسب ، وانما تبين الضلال الحقيقي للنزعة الانسانية . وفي هذا الصدد ينبغي ان يذكر اسمه مباشرة الى جانب اسم نيتشه . فبعد دوستويفسكي ، وبعد نيتشه ، أصبح من المحال الرجوع الى النزعة الانسانية العقلانية القديمة . واستمر توكيد الذات ، والرضا بالنفس في الحياة ، اذ ثبت انه عبر هذه الحياة يمتد الطريق الذي يؤدي اما الى المسيح او الى الانسان الأعلى ، ولكن الانسان لايمكن ان يظل هو هو نفسه . كان كيريلوف Kirilov يصبو الى ان يكون الها . وكان نيتشه يريد ان يهزم الانسان بوصفه عارا وشنارا ، وان يتجه صوب الانسان الأعلى . وهكذا كانت المحطة الاخيرة لعبادة الانسان التي خلقتها النزعة الانسانية ، هي تحطيم الانسان نفسه

Twitter: @ketab_n

وفناؤه في الانسان الأعلى . كلا ان الانسان لم يُنقذ في الانسان الأعلى ، وانما اندحر كعنصر من عناصر الخزي والعجز والعدم . هذا الانسان الأعلى هو تميمة ، صنم ، يلتهم ، والانسان وكل ما هو انساني يركع على ركبتيه امامه .

نستطيع ان نقول اذن ان النزعة الانسانية الاوروبية قد وجدت نهايتها في نيتشه الذي كان لحم جسدها ، ودم دمائها ، وضحية خطيئتها . وكان دوستويفسكي قد كشف ـ قبل نيتشه ـ بجدله العبقري النهاية المحتومة التي لا محيد عنها للنزعة الانسانية ، وضياع الانسان على طريق تأليهه لنفسه . وثمة اختلاف كبير بين نيتشه ودوستويفسكي : فدوستويفسكي تعرف على ما في تأليه الانسان من وهم ، كما انه ارتاد بعمق طريق الطغيان الانساني . وكان يمتلك علما آخر ، اذ كان يبصر نور المسيح . فهو بصير Voyant للروح . أما نيتشه ـ فعلى العكس ـ كانت تسيطر عليه فكرة الانسان الأعلى التي اغتالت فيه فكرة الانسان . ذلك ان المسيحية وحدها هي التي أنقذت الفكرة الانسانية ، وحافظت الى الأبد على الصورة الانسانية . فالماهية الانسانية تفترض الماهية الالهية . وقتل الاله ، هو في الوقت نفسه ، قتل للانسان . وفوق لُحْد هاتين الفكرتين العظميين ـ الاله والانسان ـ ترتفع صورة مسخ ، صورة الانسان الذي يريد ان يكون الها ، صورة الانسان الاعلى في مسيرته ، صورة ضد ـ المسيح . فلا وجود عند نيتشه للرب او للانسان ، وانما ذلك الانسان الأعلى المجهول . وعلى العكس من ذلك عند دوستويفسكي ، اذ يوجد الاله والانسان ، فلا الاله يبتلع الانسان ، ولا الانسان يفنى في الاله : وانما يظل نفسه حتى النهاية ، الى آخر الزمان . وهنا يظهر لنا دوستويفسكي مسيحيا بأعمق معنى لهذه الكلمة

ومن المثير للدهشة ان الوجد الديونيزوسي لم يسوقه الى اختفاء الصورة الانسانية ، والى تحطيم الفردية الانسانية . وكانت ديونيزوسية الاغريق الوثنية قد وصلت الى هذا الحد من التطرف ، فأفنت الفرد في التيار الهائل اللا شخصي للطبيعة . والهذيان ديونيزوسي ضار بوجه عام بالشخصية بيد ان دوستويفسكي لا

Twitter: @ketab_n

يمكن ان يسوقه أي هذيان او اي وجد الى انكار الانسان . فهذه سمة مميزة عنده ، وهي التي جعلت من علم الانسان لديه ظاهرة جديدة كل الجدة ، خاصة اشد الخصوصية . فلم يكن التمثل الانساني ، او ملامح الشخصية ، مرتبطة حتى الوقت الحاضر بعنصر شكلي ابوللوني ، على غير اساس ما . والنزعة الديونيزوسية تفترض ـ على العكس ـ الغاء مبدأ الفردية . أما عند دوستويفسكي ، فالأمر على خلاف ذلك ، فهو ديونيزوسيه تماماً، وكل مافيه نشوة ووجد : بيد ان الصورة والشخص الانساني يؤكدان نفسهما بأشد من ذلك قوة في حضن هذا التيار نفسه من النشوة . والانسان ، في ديناميته وتناقضاته ، يبقى نفسه حتى اعماقه ،الانسان الذي يستعصى على التحطيم . ولا يبتعد دوستويفسكي هنا عن الديونيزوسية الاغريقية حسب ، وانما يبتعد ايضا عن كثير من متصوفة العصر المسيحي الذين يرون ان الانسان يفنى ، والالهي وحده هو الذي يبقى . وكان دوستويفسكي حريصا على النفاذ الى اعماق الحياة الالهية في الوقت نفسه الذي يحرص فيه على ذلك بالنسبة للانسان . ذلك ان الانسان يشارك ـ بالنسبة اليه ـ في اعماق الأبدية . ومؤلفات دوستويفسكي جميعا ما هي الا دفاع في صالح الانسان : اذ لما كان يعارض جذريا النزعة الروحية القائلة بطبيعة واحدة للانسان monophysiste فأنه لايعترف بطبيعة واحدة حسب ـ سواء كانت انسانية او الهية ـ وانما يعترف بالطبيعتين معا ، الانسانية والالهية . وموقفه من هذه النقطة واضح كل الوضوح بحيث اننا لو عقدنا المقارنة بينه وبين التصور الارثوذكسي والتصور الكاثوليكي ، لبدا هذان التصوران جانحين الى الاعتقاد في طبيعة واحدة ، وافناء الطبيعة الانسانية في الطبيعة الالهية .

وهكذا كان دوستويفسكي مرتبطا بالانسان كما لم يرتبط به أي مفكر آخر قبله .وانه ليحتفظ بصورة الاله ومشابهته حتى في ادنى المخلوقات الانسانية ، وفي حثالة البشر . بيد ان حبه للانسان ، لم يكن هو حب أصحاب النزعة الانسانية . ذلك انه يوحدٌ في هذا الحب تعاطفا لامتناهيا مع شيء من القسوة . وهو يتنبأ للبشر

Twitter: @ketab_n

بطريق العذاب . وهذا راجع الى ان تصوره الانثروبـولوجي ينطوي عـلى فكرة الحرية . وبدون هذه الحرية لايوجد الانسان . ودوستويفسكي يُجري كل هذا الجدل عن الانسان ومصيره ، بوصفه الجدل الخاص بمصير الحرية . وطريق الحرية اذن هو طريق العذاب الذي ينبغي ان يقطعه الانسان حتى النهاية . ولكي نعرف ماكشفه دوستويفسكي عن الانسان معرفة كاملة ، فلا مندوحة عن تناول دراسته للحرية والشر .

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث

الحرية

Twitter: @ketab_n

موضوع الانسان ومصيره هو عند دوستويفسكي ـ قبل كل شيء ـ موضوع الحرية . ذلك ان مصير الانسان وجولاته الأليمة تتحدد بواسطة حريته . وتوضع الحرية ـ عند دوستويفسكي ـ في مركز تصور العالم نفسه : وشجنه المحتجب هو شجن الحرية نفسها . ومن الغريب ان احدا لم يفطن الى هذه السمة حتى الآن ، على نحو كاف . ونستطيع ان نذكر ـ بلا شك ـ كثيرا من فقرات « يوميات كاتب » يبدو فيها دوستويفسكي عدوا للحرية السياسية بعامة ، ويؤكد فيها انه محافظ ، بل رجعي ، وقد منعته هذه السمات الخارجية من تناول الحرية بوصفها نواة مؤلفاته والمفتاح الذي يسيطر على فهم فلسفته جميعا . وما اطلق عليه « قسوة » دوستويفسكي يرتبط ارتباطا مباشرا بهذه الفكرة عن الحرية . فقد كان « قاسيا » لأنه لم يشأ أن ينزع عن الانسان عبء حريته ، ولم يرد ان يخلصه من العذاب على حساب فقدان هذه الحرية ، ولأنه فرض عليه مسؤولية جسيمة تتعادل بالضبط مع كرامته لكونه حرا . وربما كان من الممكن تخفيف الآلام الانسانية بحرمان الانسان من حريته .. وهي امكانية استكشف دوستويفسكي كل طرقاتها حتى النهاية . ولديه حول هذا الموضوع افكار عبقرية . والحرية في نظره تتصل بالعدالة الانسانية والعدالة الالهية the'odice'e في وقت واحد معا ، ولابد من البحث فيها عن تبرير الانسان وتبرير الاله معا . وعملية العالم كلها لا وجود لها الا في علاقتها بالحرية ، وهي مأساة يأتي الخروج منها في مرتبة ثانوية بالنسبة لسياق هذا الموضوع . وهكذا يعكف دوستويفسكي ـ كما سبق ان رأينا ـ على دراسة مصير الانسان في ممارسته لحريته . هذا المصير هو وحده الذي يعنيه : مصير الانسان في الحرية ، ومصير الحرية في الانسان . ورواياته جميعا ، مآسيه ، تمثل تجربة الحرية الانسانية . والانسان يبدأ في التمرد بأسم هذه الحرية ، متهيئا لكل العذابات ، مستعدا للجنون ، شريطة ان يشعر بأنه حر . وهو يبحث في الوقت نفسه عن الحرية المتطرفة ، النهائية .

وفي الواقع ، يوجد نوعان من الحرية : الأولى هي الحرية المبدئية Initiale والثانية هي الحرية النهائية . وبين الاثنين يمتد طريق الانسان حافلا بالآلام وضروب المعاناة ، طريق الازدواجية . وكان القديس اغسطين في صراعه ضد

Twitter: @ketab_n

البيلاجيوسية[1] Pelagianisme يقول هو ايضا بوجود هـذين النوعـين من الحريـة ويسميهما : الحريـة الصغرى Libertas minor والحـرية الكبـرى Libertas major أما الحرية الصغرى فهي الحرية الأولى ، المبدئية ، حرية اختيار الخير والتي تفترض امكانية الخطيئة ، أما الحرية الأسمى ، فهي الحرية الاخيرة ، الحرية النهائية ، الحرية في الله ، في حضن الخير ذاته . وكان القديس اغسطين مدافعا عن الحرية الثانية ، الحرية الكبرى ، فكان ان وصل في نهايـة الأمر الى مـذهب الانتخاب الالهي[2] Predistination . ومع ان الكنيسة قد خففت من مذهبه فيما يتعلق بالحرية ، الا انه قد أثر على الكاثوليكية تأثيرا لم يكن في صف الحرية . ويبقى شيء مؤكد ، أن ما يوجد ليس حرية واحدة ، وانما حريتان : الاولى والاخيرة حرية اختيار الخير والشر ، وحرية في حضن الخير ؛ حرية لا معقولة ، وحرية في العقل . ولم يعرف سقراط غير الحرية الثانية ، الحـرية العـاقلة . وبالمثـل فإن العبـارة الانجيلية القائلة : « اعترفوا بالحقيقة ، وستجعلكم الحقيقة أحـرارا » تتصل بـالحريـة الثانية ، الحرية في حضن المسيح . وعندما نقول ان الانسان ينبغي ان يتحرر من التيارات الادنى ، من سيطرة الشهوات . وان يكف عن ان يكون عبـدا لنفسه وللعالم المحيط به ، نضع نصب اعيننا الحرية الثانية ، والتطلع الاسمى لحرية الروح يتصل بهذه الحرية الثانية . وقد كانت حرية آدم الأول ، وحرية آدم الثاني اعني حرية المسيح ـ حريتين مختلفتين . فالحقيقة تجعل من الانسان حرا ، ولكن ينبغي على الانسان ان يجنى بحرية هذه الحقيقة ، ولا ينبغي ان يكون مكرها ، وان يأتي اليها عنوة وقهرا . والمسيح يعطي للانسان الحرية النهائية ولكن ينبغي على الانسان اولا ان يكون قد آمن ـ عن حريةٍ ـ بالمسيح . « لقد اردت الحب الحر للانسان ، لكي يأتي اليك حرا ، بعد ان اغويته وأسرته . » (هذه كلمات المفتش

---

١ ـ نظرية الراهب بيلاجيوس (٣٦٠ ـ ٤٢٠ م) ، الذي انكر الخطيئة الأصلية ، وقال بحرية الارادة التامة . (المنهل)

٢ ـ وهو مذهب يقرر ان افعال كل انسان مكتوب عليها منذ الازل اما ان تكون خيرة واما ان تكون شريرة . (المترجم)

Twitter: @ketab_n

الأكبر) . وفي هذا الايمان الحر بالمسيح تستقر كل ما للمسيحي من كرامة ، وكل معنى لفعل الايمان الذي هو قبل كل شيء فعل من افعال الحرية . وكرامة الانسان ، وكرامة الايمان تفترضان الاعتراف بالحريتين ، حرية في الاختيار الحر للحقيقة ، وحرية في الحقيقة . والحرية لايمكن ان تتطابق مع الخير ، او مع الحقيقة او مع الكمال . فأن لها حقيقة مستقلة ، فهي الحرية ، وليست هي الخير . وكل خلط او تطابق مع الخير نفسه او مع الكمال ، يعد نفيا للحرية ، وتوطيدا لسبل القهر . والخير القسري لايكون خيرا ، بل انه يغوص في الشر ، بيد ان الخير الحر ، الذي هو الخير الحقيقي يفترض حرية الشر . وهنا تقوم مأساة الحرية التي درسها دوستويفسكي ونفذ الى اعماقها . وهنا ايضا ينحصر سر المسيحية . والجدل المأسوي يصدر عنه مثلما يتبعه : فالخير الحر يفترض حرية الشر . غير ان حرية الشر تفضي الى تحطيم الحرية نفسها ، والى انحلالها الى ضرورة سيئة . ومن ناحية اخرى ، فإن نفي حرية الشر واثبات الحرية الوحيدة للخير يؤديان ايضا الى نفي الحرية والى انحلالها الى ضرورة حسنة . وهذه الضرورة الحسنة لم تعد هي الخير ، لأنه لا جود لخير الا في الحرية . وهذه المشكلة الفاجعة قد طاردت الفكر المسيحي ابان تاريخه كله . ونحن نجدها مرتبطة بصراع القديس اغسطين ضد البيلاجيوسية ، وبعقيدة الصلات بين الحرية والفضل الالهي ، وبالمعارك التي اثارتها الجنسينية[٣] Jansenisme ، كما انها ترتبط برفض لوثر لحرية الانسان ، وبتعاليم كلفن القاتمة عن الاختيار الالهي . ولقد كان الفكر المسيحي هدفا دائما لاضطهاد شبحين : احدهما هو الحرية السيئة ، والآخر هو الجبرية الحسنة . وقد انهزمت الحرية سواء بواسطة الشر الذي اكتشفه الناس فيها ، او بواسطة الالتزام بالخير . وكانت محارق التفتيش Jnqvisition الشهود المخيفين على مأساة الحرية هذه ، وعلى الصعوبة التي لامندوحة عن حلها ، حتى بواسطة الضمير المسيحي الذي اضاءه نور المسيح . ونفي

---

٣ ـ مذهب جنسينوس المتعلق بالنعمة الالهية والجبرية ، ثم تحول الى حركة دينية وفكرية اثارها اتباع هذا المذهب وهو على كل حال مذهب اخلاقي مسيحي متشدد . (راجع المنهل)

Twitter: @ketab_n

الحرية الاولى اعني الايمان او عدم الايمان ، قبول او رفض الحقيقة ـ هذا النفي يؤدي حتما الى مذهب الاختيار الالهي . فالحقيقة تجتذب اليها دون مشاركة الحرية . وهذا وهم خطر . ولم تعترف الارثوذكسية اعترافا كافيا ـ وان تكن ملائمة جدا للحرية ـ بأن الحرية تنطوي في داخلها على حقيقة يحسن اكتشافها . فما يوجد ليس هو الحرية في الحقيقة حسب ، وانما الحقيقة عن الحرية ايضا . الا ينبغي ان نلتمس حل المشكلة الابدية للحرية في واقعة ان المسيح ليس هو الحقيقة حسب ولكنه الحقيقة عن الحرية ، الحقيقة الحرة ، وان المسيح هو نفسه الحرية ، الحب الحر ؟ وهنا نخلط بين اللحظات الصورية formels وبين اللحظات المادية في فهم الحرية . وهؤلاء الذين يملكون فعلا الحرية الثانية ، الكبرى ارادوا ـ في الواقع ـ انكار الحرية الاولى ، حرية اختيار الخير او الشر ، بوصفها حرية صورية خالصة . ولم تشأ حقيقتهم المتعنته ان تحتمل الى جانبها امكانية الخطأ . ومع ذلك ، فأن حرية الوعى هذه ، حرية الاختيار بين الخير والشر ، هي حرية مادية Materielle ، ويبرهن دوستويفسكي على انها جزء من المسيحية وان المسيحية تحمل الحرية وتشملها كلها : ورفضها معناه التنازل عن امتلاك هذه الحقيقة للحرية التي رأينا فيما سبق ـ انها حقيقة المسيح نفسه . المسيحية هي اذن دين الحرية . ولقد اعترفت بها في جميع اشكالها ، سواء بماهية المسيحية نفسها او بمضمونها . وفي المسيحية ، كما يفهمها دوستويفسكي ـ تنتهي مأساة الحرية بالانتصار على القهر . ونعمة المسيح نفسها هي الحرية ، الحرية الكاملة التي لاينبغي ان تتحطم لا بواسطة الشر (كالحرية الاولى) ، ولا بالزام الخير (كالحرية الثانية) وفي نعمة الحب الحر ، تتصالح الحرية الالهية ، والحرية الانسانية . بيد ان الحقيقة الالهية حقيقة المسيح ، قد ألقت شعاعا منحرفا على هذه الحرية الاولى ، حرية الاختيار بين الخير والشر بوصفها جزءا لايتجزأ منها . وحرية الروح الانسانية ، وحرية الضمير يؤلفان شطرا من الحقيقة المسيحية : بيد ان هذه الحقيقة ، لم تكشف عنها المسيحية نفسها حتى الآن كشفا كافيا . وقد تقدم دوستويفكسي خطوة هائلة في هذا السبيل .

Twitter: @ketab_n

ويعطي دوستويفسكي للانسان ملكة الالتزام في سبيل الحرية هذا الذي لا مناص من ان يحرره نهائيا .. وهو سبيل محفوف بالظلمات تكتنفه الهوة والازدواجية والمأساة من كل جانب . وهذا الطريق ليس مباشرا ، وليس متحدا . والانسان يجوس خلاله ، تغويه أطياف تخايله بين الحين والحين ، وتجتذبه انوار خادعة الى أشد الظلمات كثافة . وليس من شك ، ان هذا الطريق الطويل الذي يمر من خلال تجربة الخير والشر يمكن ان نجعله اقصر وأيسر بتحديد الحرية الانسانية أو الغائها . ولكن هل هم نافعون اعزاء على الرب ، اولئك الذين يصلون اليه عن طريق آخر غير طريق الحرية بعد ان يعانوا من اذى الشر ؟ الا يكمن كل معنى العملية الشاملة والتاريخية في هذا التعطش الالهي الى ان يجد حب الانسان الحر في المقابل ؟ بيد ان الانسان يتأخر في حركة الحب هذه صوب الله . اذ لا بد له من ان يكابد اولا تبددات مريرة لأوهامه وخيبات أمل من غرامه بموضوعات شائنة وشهوانية . والفضل الذي يرسله الرب في طريقة ليس فضلا مفروضا وانما هو فضل مُنجد يحمل الفرج : وفي كل مرة حاول فيه العالم المسيحي تحويل فضيلة هذه النعمة الى اداة للقوة والقهر ، فأنه يجنح الى مناهضة المسيحية ، والى سبل ضد ـ المسيح وهذه الحقيقة المسيحية عن حرية الروح الانسانية ، استخلصها دوستويفسكي بحدة لم يسبق لها نظير .

وتظهر الحرية في العالم المسيحي للانسان المتجدد . وهذه الحرية لم تعرفها اليونان او الشرق القديم . كان الانسان فيهما مشدودا الى الضرورة . الى نظام الطبيعة ، مقيدا الى المصير . فجاءت المسيحية واعطت للانسان هذه الحرية الحرية المبدئية والحرية النهائية . وهكذا لم تتكشف فيه حرية آدم الثاني فحسب بل تكشفت فيه ايضا حرية آدم الأول: ولم تظهر فيه حرية آدم الثاني فحسب وانما حرية الشر ايضا. ولم يكن الفكر اليوناني يقبل سوى الحرية العقلانية: اما المسيحية فأنها تكشف في الحرية عن مبدأ لا عقلي .. مبدأ لاعقلي يتحقق في مضمون الحياة نفسها ، وينطوي على سر الحرية . وكان الوعي الهلليني يخشى هذا المضمون اللاعقلي ، حامل اللامتناهي De layoeiron peros فكان يحاربه من وجهة نظر الشكل ،

Twitter: @ketab_n

والمتناهي . وكان اليوناني يتصور ان العالم محصور في الشكل (او الصورة) في الحدود ، دون ان يتصور وجود فضاءات بعيدة . اما في العالم المسيحي ، فأن الانسان لم يعد يخشى هذا اللامتناهي فعلا ، هذا المضمون اللامحدود للحياة . لقد خلع اللامتناهي قناعه امامه كما ان تلك الفضاءات البعيدة انفتحت قليلا له . ومن هنا تولد موقف آخر مختلف تمام الاختلاف من الحرية لدى المسيحيين عن موقف الانسان القديم . واصبحت الحرية تتعارض مع سيطرة العنصر الصوري وحده ، ومع وضع الحواجز ذلك ان الحرية تفترض اللامتناهي . أما بالنسبة لليوناني ، فكان هناك العماء (الكايوس) ولم يكن اللامتناهي في نظر المسيحي هو العماء حسب بل الحرية . وهكذا لم يكن من الممكن ان تظهر تطلعات انسانية لامتناهية الا في العالم المسيحي . فاوست ينتمي الى مرحلة مسيحية من التاريخ ، ولم يكن من الممكن تصوره في العالم القديم : وكانت تأرجحاته التي بلا حدود هي التي تميز اوروبا المسيحية . كما لم يكن من الممكن ان يظهر بيرون Byron الا في العالم المسيحي ، وان يرى النور كل من مانفريد Manfred وقابيل Cain ودون جوان . حرية متمردة ، تطلعات صاخبة مضطربة لا تعرف نهاية ، مضمون لامعقول للحياة .. هذه جميعا ظواهر نشأت في داخل العالم المسيحي . وهذه الثورة للشخصية الانسانية ضد نظام العالم وضد المسيح ، ماهي الا تحقق مسيحي في صميمه . وقد اوضحت المأساة اليونانية ، وكذلك قمم الفلسفة اليونانية ـ ضرورة التخلص من الحدود التي انحصر فيها العالم القديم ، وبهذا كانت تفضي الى العالم المسيحي الجديد . بيد انه لا في المأساة اليونانية ، ولا في الفلسفة الاغريقية ، تكشفت بعدُ روح فاوست هذه الحرية الجديدة المخيفة .

وقد بلغت الحرية الثائرة عند ابطال دوستويفسكي اقصى درجة من التوتر . وفي المصير الانساني ـ كما يتتابع داخل المسيحية ، يجسد هؤلاء الأبطال لحظة جديدة ، لحظة اكثر تقدما من اللحظة التي يمثلها فاوست كان فاوست في منتصف الطريق حسب . اما راسكولنيكوف وستافروجين وكيريلوف ، وايفان كارامازوف فقد وصلوا الى نهايته . ومن الممكن ان نستطيع بعد فادست ـ ان نتصور القرن

Twitter: @ketab_n

التاسع عشر متحمسا لتجفيف المستنقع . أما بعد ابطال دوستويفسكي ، فأن اكتشاف القرن العشرين غير المتوقع ، ذلك المجهول العظيم ، هو ما يعلن عنه بوصفه ازمة الحضارة ، وباعتباره نهاية حقبة بأكملها من التاريخ العالمي . وهنا دخل البحث عن الحرية الانسانية في مرحلة جديدة . ذلك ان الحرية عند دوستويفسكي ليست مجرد ظاهرة مسيحية ولكنها تجلٍّ لروح جديدة . بل انها تنتسب الى مرحلة جديدة في المسيحية نفسها التي تنتقل من مرحلة متعالية اساسا الى مرحلة اكثر نفاذا الى الباطن . واصبح الانسان يتحاشى الاشكال الخارجية ، ويسعى من خلال اشد السبل ايلاما الى العثور على نور باطني في اعماق نفسه . وبهذا انتقل كل شيء الى الاعماق القصوى للروح الانسانية فهناك ينبغي ان يتكشف عالم جديد . والتصور المتعالي في كشفه لحقيقة المسيحية من الخارج ، بوصفها حقيقة موضوعية لم يستطع أن يميط اللثام عن الحرية المسيحية الى النهاية . فالمسيح ينبغي ان يظهر للانسان الحر ، وان يظهر له بوصفه حرية اخيرة نهائية ، يعثر عليها في اعماق نفسه ، بعد أن استخدم حريته المبدئية واساء استخدامها ، حتى جعلها تنحل الى نقيضها هذا هو المصير الفاجع للحرية الذي اوضحه دوستويفسكي عند ابطاله : الحرية تتحول الى تصرفات عشوائية ، الى توكيد متمرد للذات وعندئذ تتحول الى شيء عقيم ، بلا موضوع ، وتجعل من الفرد شيئا اجوف .. جوفاء وبلا موضوع هذا هو ما تبدو عليه حرية ستافروجين وفرسيلوف ، وعند سفيدريجائيلوف Svidrigailov وفيودور بافلوفتس كارامازوف تقوم الحرية بتفكيك الشخصية . اما حرية راسكولنيكوف وبيير فرهوفنسكي فأنها تقود الى الجريمة . والحرية الشيطانية عند كيريلوف وايفان كارامازوف تقتل الانسان . وهكذا تحطم الحرية نفسها بوصفها فعلا جزافيا . ومثل هذه الحرية تؤدي ـ بضرورة باطنة فيها ـ الى العبودية ، بل انها تؤدي الى تغيير الصورة الانسانية . انها ليست عقوبة خارجية هذه التي تنتظر الانسان وليست قانونا يضع يده الثقيلة عليه من الخارج وانما هو مبدأ الهي ـ باطني فيه ـ ويكشف عن نفسه على نحو مباطن ايضا Immanente هو الذي يصدم ضميره ، والانسان وسط

Twitter: @ketab_n

الظلمات والصحراء التي اختارها بنفسه ، يحترق بهذه النيران . هذا هو مصير الانسان والحرية الانسانية كما اوضحهما دوستويفسكي توضيحا عبقريا . ينبغي على الانسان ان يسلك سبيل الحرية : والحرية تَنْحَلُّ الى عبودية وتقتل الانسان ، لانه في النشوة العنيفة لهذه الحرية لايريد ان ينظر الى شيء اعلى منه فاذا لم يوجد شيء أعلى من الانسان لم يعد للانسان نفسه وجود . واذا لم يكن في الحرية مضمون ، او موضوع ، لم تعد ثمت رابطة بين الحرية الانسانية والحرية الالهية . وبهذا لايعود للحرية وجود . ولو ان كل شيء مباح للانسان . فأن الحرية تصير في نهاية الأمر اسيرة نفسها : والانسان اذا كان عبدا لنفسه فمآله الضياع .. ذلك ان الصورة الانسانية بحاجة الى ان تستند الى طبيعة اعلى ، والحرية الانسانية تبلغ تعبيرها النهائي في حرية اسمى ، الحرية في الحقيقة . هذا جدل لا سبيل الى دحضه . انه يقتفي أثر الاله الذي جعل من نفسه الها ، والذي به وحده تتحد الحرية الانسانية بالحرية الالهية والشكل الانساني بالشكل الالهي . وبتجربة باطنة تعاش من الباطن ، ينبثق نور هذه الحقيقة وتصبح اية عودة الى السيطرة المطلقة لقانون خارجي مستحيلة ، او الى حياة الضُرورة والقسر . ولا يعود لشيء وجود سوى الاستقرار في حضن الحقيقة اعني في حضن المسيح ، في حضن الحرية المحطمة لأن المسيح ليس هو القانون الخارجي ، اوتيار الحياة الخارجية . وبين ملكوته وملكوت هذا العالم لا وجود لمقياس مشترك . ويرفض دوستويفسكي حانقا جميع اتجاهات المسيحية لكي تصبح دينا للالزام والقهر . ونور الحقيقة ، ونعمة الحرية النهائية لايمكن ان نتلقاهما من الخارج . والمسيح هو الحرية الاخيرة ، وليس الحرية بلا موضوع الحرية المتمردة المحصورة بارادتها ، التي تقتل الانسان ، وتحطم صورته ، وانما هو الحرية الغنية بمضمونها ، والتي تؤكد على العكس تماما ـ صورة الانسان الى الابد . وتشهد مصائر راسكولنيكوف وستافروجين ، وكيريلوف وايفان كارامازوف على هذا الحقيقة . وجرياتهم التي وُجهت توجيها خاطئا هي التي اضاعتهم . بيد ان هذا لايعني ان البقاء في القهر كان ضروريا ، او الخضوع للسطوة المطلقة لقانون

Twitter: @ketab_n

خارجي منتظم ، ذلك أن ضياعهم بالنسبة الينا عبرة منيرة ، ومأساتهم ، نشيد للحرية .

* * *

سيطرت على دوستويفسكي فكرة أن الأنسجام الشامل لاسبيل الى تصوره دون حرية الشر والخطيئة ، دون اختبار الحرية . فهو يعارض كل انسجام أساسه القهر ، سواء كان ثيوقراطيا (الاهيا) ، أو اجتماعيا . فليس من الممكن تصور حرية الانسان على أنها هدية إجبارية من نظام مُعْطى للأشياء ، إذ يجب أن تسبق الحرية نظام الأشياء هذا . والسبيل الذي يؤدي اليه ، والذي يفضي الى الاتحاد الكلي للكائنات ، ينبغي أن يمر بالحرية ، وكان نفور دوستويفسكي من الاشتراكية والكاثوليكية مرتبطا ـ كما سنرى فيما بعد ـ باستحالة التوافق أولا مع نظام للعالم قائم على الضرورة . وهو يعارض الكاثوليكية والاشتراكية معا بأن يضع حرية الروح الانسانية في مقابلهما . وبهذا المعنى ينبغي أن يُفْهم تمرد « الجنتلمان صاحب السحنة المستهزئة المتخلفة » . ودوستويفسكي لايقبل لا هذا الفردوس الذي لم تعد حرية الروح ممكنة فيه بعد ، ولا ذلك الفردوس الذي اختفت منه فعلا . وينبغي على الانسان الساقط من النظام القديم للعالم القائم على القهر ، ان يتوصل بواسطة : حرية الروح الى النظام الجديد . وكان الايمان الذي يريد دوستويفسكي اقامة هذا النظام عليه ، ايمانا حرا ، مستندا الى حرية الضمير « ومن اتون شكوكي ارتفعت صيحتي بتمجيد الله » ، هذا ماكتبه دوستويفسكي عن نفسه . وقد أراد أن يحتذى كل إيمان المثل الذي اتخذه ايمانه ، فيكون منصهرا في بوتقة الشكوك . وهكذا لم يعرف العالم المسيحي مدافعا أشد حماسة من دوستويفسكي عن حرية الضمير . يقول المفتش الأكبر للمسيح : « كانت حرية ايمانهم أعز لديك من كل شيء . » وكان يستطيع ان يقول هذا القول نفسه لدوستويفسكي ، وأن يقول له أيضا : « لقد أردت حب الانسان الحر » « وبدلا من القانون القديم الجامد ، كان على الانسان أن يختار داخل نفسه ،بقلب حر ، ماهو الخير وماهو الشر ، لا يتخذ هاديا نصب عينيه الا صورتك وحدها . » هذه الكلمات التي وجهها المفتش الأكبر للمسيح تفصح عن إيمان دوستويفسكي

Twitter: @ketab_n

نفسه . وهو ايمان يرفض « المعجزة والسر والسلطة » بوصفها وسائل للضغط على الضمير الانساني ، وحرمان الانسان من حرية روحه : وضد حرية الروح الانسانية هذه ، وحرية الضمير الانساني كانت الاختبارات الثلاثة التي أراد بها الشيطان إغواء المسيح في البرية . وعلى العكس من ذلك ، لاشيء في ظهور المسيح يُجْبر الضمير الانساني : ودين الجلجثة هو دين الحرية . ان ابن الرب الذي ظهر في العالم متخذا « مظهر العبد » والذي وُضع على الصليب وقام الناس بتعذيبه ، يتوجه بالخطاب الى حرية الروح الانسانية . ولاشيء من الاكراه في صورة المسيح ، أو من القسر الذي يدفع الى الاعتقاد فيه على انه الرب . ولم يكن القوة أو السلطان في ملكوت هذا العالم ، وكان الملكوت الذي أعلنه لاينتمي الى هذه الدنيا . وهنا يكمن السر الأساس للمسيح ، سر الحرية . وقد كان لابد في الواقع من حرية خارقة للروح ، وايمان حر فذ ، واعتراف تلقائي بالأشياء الغيبية ، لكي يدرك المرء إلهه ظاهرا بملامح العبد التي ظهر عليها المسيح . وعندما قال بطرس للمسيح : « أنت المسيح ، ابن الرب الحي » كان يحقق فعلاً من أفعال الحرية . هذه الكلمات ترددت أصداؤها في أعماق الضمير الانساني الحر ، وحددت مسيرة التاريخ العالمي . وعلى كل انسان في العالم المسيحي ان يرددها في اعماق ضميره الحر وروحه الحرة . وفي هذا ، تستقر كرامة المسيحية . وكان دوستويفسكي يعتقد ان الأرثوذكسية الشرقية قد حافظت على هذه الحرية المسيحية أكثر مما حافظت عليها الكاثوليكية الغربية . وكان جائرا في كثير من الأحيان تجاه الكاثوليكية . التي لايمكن اتهامها بأنها كانت مشبعة بروح ضد المسيح . ولكنه لم يكن يريد ان يرى من ـ ناحية أخرى ـ عورات وانحرافات في العالم الأرثوذكسي . فالحرية المسيحية لم توجد في البيزنطية ، في الثيوقراطية (الحكم الديني) الامبراطورية بأكثر مما وجدت في الثيوقراطية البابوية . ومع ذلك ، يلاحظ دوستويفسكي بحق ان الأرثوذكسية بعامة كانت أكثر احتراما للحرية : وقد ساعدها على ذلك ماكان فيها من قصور ، ومن عناصر لم تكتمل بعد . وفي دينه الخاص بحرية الروح ، يتجاوز دوستويفسكي الى ما لانهاية حدود الارثوذكسية التاريخية ، تجاوزه لحدود

Twitter: @ketab_n

الكاثوليكية ، ذلك انه يتجه صوب المستقبل ، ولكشوفه نبرة تنبؤية . ولكنه يظل مع ذلك جسد الجسد ، ودم الدم للأرثوذكسية الروسية . لقد اكتشف ان مبدأ ضد ـ المسيح لم يكن شيئا سوى النفي لحرية الروح ، والقهر الذي يُمارس على الضمير الانساني . وكان المسيح في نظره هو الحرية ، وضد ـ المسيح هو الالزام ، والقهر ، واستعباد الروح . وفي تحليله لهذا المبدأ المضاد للمسيحية الى أقصى مداه ، يفضح الوجوه العديدة التي اتخذها على مر التاريخ ، منذ الثيوقراطية الغربية والشرقية ؛ ومنذ الامبريالية حتى الفوضى والاشتراكية الملحدة .

وكان لا مفر من أن يمر راسكولنيكوف وستافروجين وكيريلوف ، وفرسيلوف ، وايفان كارامازوف بـ « بوتقة الشكوك » ففي أعماق الروح وأعماق الضمير الحر ، ينبغي أن تتردد كلمات بطرس : « أنت المسيح ، ابن الرب الحي . » وكان دوستويفسكي يشعر أن في هذا يقوم خلاص البشر والهلاك مُقَدَّر عليهم إذا لم يجدوا في أنفسهم قوة الروح وحريتها اللازمين للتعرف في المسيح على ابن الرب . ولكنهم اذا تعرفوا عليه ، فإن حرية الانسان تحت ـ الأرضي تصبح حرية ابن الرب . ويبدأ بحث دوستويفسكي عن الحرية بحرية « الانسان تحت ـ الأرض » ؛ وهي حرية تبدو له لا محدودة ، ذلك أن الانسان تحت ـ الأرض ـ يريد أن ينتهك حدود الطبيعة البشرية ، ولذلك فهو يدرس هذه الحدود ويجري التجارب عليها . واذا كان الانسان حرا على هذا النحو ، أليس من المباح له أن يفعل كل شيء ؛ أية جريمة تناسبه ، حتى لو كانت قتل الأب ، ألن يكون من المباح له أن يقترفها ، وفقا لمبدأ أسمى ؟ ألن يكون مثال « المادونا » ومثال « سودوم » على نفس المستوى ، ألن يطمح الانسان ان يكون هو نفسه إلها ؟ ألن يحرص الانسان أخيرا على التمادي في طغيانه ؟ لقد أحس دوستويفسكي أن في هذه الحرية التي يتمتع بها الانسان تحت الأرضي ـ توجد بذور الموت . وحرية شخص مثل راسكولنيكوف التي انتهكت حدود الطبيعة البشرية ـ أفضت به الى الاعتراف بأعدامه لنفسه ، وبضعفه وعبوديته . وانحلت حرية ستافروجين الى عجز تام ، الى استحالة التمييز ، والى تحطيم الشخصية والقضاء عليها . أما حرية كيريلوف

Twitter: @ketab_n

الذي كان يطمح الى أن يصير إلها ، فقد انتهت بتدمير رهيب عقيم . وربما كان المثل الذي يضربه كيريلوف هنا هو أهم الأمثلة جميعا : فقد كان ينادي بالطغيان على أنه واجب ، وبوصفه التزاما مقدسا ؟ وكان عليه أن يحقق هذا الطغيان حتى يبلغ الانسان حالة أسمى . وقد كان هو نفسه انسانا نقيا ، متجردا من الميول والشهوات ، نوعا من القديس الذي لم يشمله الفضل الالهي . بيد أن أنقى أنسان ، لو رفض الاله ، وأراد أن يحل محله ، لكان مآله الدمار . ذلك أنه يعزل حريته الخاصة ، ويستحيل الى شخص ممسوس Possede واقعا تحت سلطان أرواح يجهل طبيعتها . وهذه هي صورة الانجذاب الصامت ، والافتتان التي يظهرها لنا كيريلوف في نفسه . وتكون حرية الروح قد هاجمتها فعلا اعراض انحلال لاجدال فيها . فهو أقل من أي شخص آخر في امتلاكه للوصايا . والسبيل الذي سلكه ، السبيل الذي يجعل فيه الانسان نفسه إلها ، هذا السبيل قاتل للحرية ، ومدمِّر للانسان نفسه . هذه هي الدعوى التي يطرحها دوستويفسكي . وجميع أبطاله الذين أوضح ازدواحيتهم ، والذين صورهم تائهين في دروب الطغيان ، يفقدون بالمثل حريتهم الخاصة . ونحن نلتقى عند كل من سفيدريجائيلوف وفيدور بافلوفتس كارامازوف بحطام شخصية لا نستطيع ان نتفوه امامه حتى بلفظ الحرية . فالحرية المنطلقة بلا لجام ، أو حد ، المستسلمة للشهوانية ، تجعل من الانسان عبدا . انحلال الشخصية وافسادها بسيطرة شهوة من الشهوات أو فكرة خبيثة ـ موضوع عالجه دوستويفسكي بأقتدار عجيب . فقد درس النتائج الانطولوجية (الوجودية) لهذه السيطرة : وحين تنحل الحرية الجامحة الى هوس يكون في ذلك هلاكها ، وتتوقف فعلا عن الوجود . والانسان الممسوس لايعود حرا بالفعل . هل يمكن ان نعتبر فرسيلوف ـ وهو احدى شخصيات دوستويفسكي الهامة ـ هل يمكن اعتباره حرا ؟ ان عاطفته العنيفة نحو كاترين نيقولا ييفنا Catherine Nicolaievna هي الهوس عينه . لقد نفذت خلاله . فحطمته . فلم يعد يتمتع بملكة الاختيار بين الأفكار ؟ بل انه ممزق أيضا بين متناقضاتها . لقد أصابته الازدواجية . والشخص المزدوج لايستطيع أن

Twitter: @ketab_n

يكون حرا . وكل موجود لايستطيع أن يحقق فعل الحرية هـذا الذي يتألف من اختيار موضوع حبه ، مآله الى الازدواجية .

ويبلغ بحث دوستـويفسكي في مشكلة الحريـة هذه ذروتـه في « الاخـوة كارامازوف » . وطغيان ايفان كارامازوف وتمرده يمثلان ذرى هذا الطريق غير المطروق للحرية الانسانية . فهنا يبـدو على نحـو عبقري أن الحـرية بـوصفها عشوائية ، وبوصفها توكيدا للذات لا بـد أن تقود إلى النفي ، لا الى نفى الاله فحسب ، أو الانسان أو العالم فحسب ، ولكنها نفي للحرية ذاتها أيضا . فالحرية تحطم نفسها بتطورها الخاص : هذه هي خاتمة جدلها . ويبرهن دوستويفسكي على انه في أقصى الطريق المعتم ، الذي لم تعد الحرية تضيئه ، يكمن تدمير الحرية نفسه ، اعنى القهر السيء ، والضرورة السيئة . وقد تولّد مذهب المفتش الأكبر ، وكذلك مذهب شيجالييف Chigaliev عن الطغيان وعن الصراع ضد الاله . فالحرية تنحل الى عشوائية ، والعشوائية تستحيل الى قهر . هذه هي العمليـة القاتلة . وهؤلاء الذين يسلكون سبيل العشوائية هم الذين ينكرون حرية الضمير الديني ، حرية الروح الانسانية .

* * *

وعلى دروب العشوائية وتوكيد الذات ، ما من أحد يستطيع انقاذ حريته . ذلك أن الانسان عندما يصل الى هذا الحد ، ينكر حتما أولوية روحه ، وحريته الأصلية ، ويضحي بهما من أجل سلطان الضرورة ، فيصبح بذلك لعبة بين يدىْ القهـر السيء . وهذه هي احـدى التنبؤات العبقـريـة لدوستـويفسكي . يقـول شيجـاليف : « عندمـا خرجت من الحـرية اللامحـدودة ، انتهيت بـالطغيـان اللامحدود .[٤] » وعلى هذا النحو ، كان دائما تطور الحرية الثورية . وهكذا كان الانتقال ابان الثورة الفرنسية ، من « الحريـة اللامحدودة » الى « الاستبـداد اللامحدود » . فالحرية بوصفها نزوة وجزافية ، الحرية الملحدة ، لا تستطيع الا ان تتمخض عن « الطغيان اللا محدود » . اذ تنطوي في داخلها على عنف لا يعلوه شيء . عنف لا يظهر معه من ضمانات الحرية شيء . وثورة هذه الجزافية ، وتلك النزوة يسوقان الانسان الى انكار المعنى الجوهري للحياة ، الى انكار الحرية .

Twitter: @ketab_n

فالمعنى الحي ، والحقيقة الحية يتحولان اذن الى تنظيم عشوائي للحياة ، والى خلق سعادة انسانية في حضن مجتمع للنمل . وهذه العملية ، عملية انحلال الحرية الى « طغيان لا محدود » تحتل مكانا هاما جدا في تصور دوستويفسكي للعالم . وفي الأيديولوجية الثورية للجناح اليساري من الانتلجنسيا الروسية ، التي تبدو في الظاهر مفتونة بالحرية ، يكتشف دوستويفسكي امكانية هذا « الاستبداد اللامحدود » . ذلك لأنه كان أول من يلاحظ أشياء لايستطيع أن يراها غيره ، وكان يبصر في كل شيء أبعد مما يبصر الأخرون . وكان يعرف أن الثورة التي يحس بها في التيارات تحت الأرضية ، الكامنة في روسيا ـ لن تفضي الى الحرية ، ويعرف أن الحركة التي تتخلق ستؤدي الى استعباد الروح الانسانية . وتحمل التأملات المدهشة المنبثة في « الروح تحت ـ الأرض » البذرة التي سوف ينميها فيما بعد فرهوفنسكي ، وشيجالييف والمفتش الأكبر . فالمسألة هنا تتعلق بنظام واحد بعينه . وكانت فكرة أن الانسانية باستبدالها حقيقة المسيح ، سوف تصل بعشوائيتها وتمردها الى هذا النظام من « الاستبداد اللامحدود » الذي تصوره فرهوفنسكي وشيجالييف والمفتش العام ـ كانت هذه الفكرة تطادر دوستويفسكي وتؤرقه كالكابوس . ففي مذهبهم ، وبأسم سعادة البشر ، يسحبون الحرية من الروح الانسانية . وعلى هذا ، فأن مذهب السعادة Eudemonisme الاجتماعية يتعارض مع الحرية . فاذا لم يكن ثمة وجود للحقيقة ، فلن يبقى في الواقع غير هذا التنظيم الاجباري للسعادة الاجتماعية ، ولاتتحقق الثورة بأسم الحرية وانما بأسم نفس المبادىء التي اشعلت محارق التفتيش ، بأسم « آلاف الملايين من الأطفال » الذين ينبغي أن يكونوا سعداء . وكان الانسان يخشى من ذاك العبء الاليم الذي هو حرية الروح ، ومن ثمّ فقد استبدله ، وأفلت منه ، لكي يناصر نظاما اجباريا للوجود . ولكن ، في أساس هذا الانكار للحرية ، ثمة توكيد متطرف لنفسها ، هو الطغيان . وهنا أيضا يتتابع الجدل على نحو محتوم . وكما ان الحرية ، مفهومة بهذا الفهم الخاطىء ـ تتحول الى « طغيان لا محدود » وتنتهي الى تحطيم نفسها ، فكذلك لا بد ان تؤدي

Twitter: @ketab_n

المساواة الكاذبة ، الى لا مساواة لا نظير لها ، الى السيادة الاستبدادية لأقلية متميزة على الاغلبية . وكان دوستويفسكي يعتقد دائما أن الديمقراطية والاشتراكية الثورية باستنادهما الى أفكار المساواة المطلقة ، وبمضيهما الى اشد نتائجهما تطرفا ـ سوف تتولد عنهما سيادة حفنة قليلة على بقية البشرية . وعلى هذا المنوال ، كان مذهب شيجاليف ومذهب المفتش الأكبر . وقد عاد دوستويفسكي الى هذه الفكرة أكثر من مرة في « يوميات كاتب » اذ استبدت به ، ولم تدع له مجالا للراحة . وكانت النتيجة التي انتهى اليها هي أن الحرية الحقيقية والمساواة الحقيقية ليستا ممكنتين الا في المسيح ، الا في اعقاب الرب الذي استحال انسانا . أما على دروب العشوائية وضد ـ المسيح ، فلن نجد سوى الطغيان . وكل فكرة عن السعادة الشاملة وكل اتحاد عام بين الكائنات ، يُستبعد منه الاله ، ينطوي بالنسبة للانسان على التهديد بضياعه ، وضياع حرية روحه . بل ان الطغيان والتمرد ضد « الفكر » المحرك للعالم يخفيان عن الضمير الانساني طريق الوصول نفسه الى فكرة الحرية : فالحرية تبدو عندئذ على انها شيء بعيد المنال عن الروح التي انبثقت عن هذا « الفكر » . والواقع ان الفكر « الاقليدي » البحت (وهو تعبير أثير عند دوستويفسكي) عاجز عن ادراكها ، فهي تفلت منه بوصفها سرا لا معقولا . ويرتبط تمرد « الروح الاقليدية » ضد الاله بهذا الانكار ، بهذا العجز عن فهم الحرية : لأنه اذا كانت الحرية لاوجود لها بوصفها سرا اخيرا للخلق ، فأن هذا العالم بعذاباته وآلامه ، ودموع المخلوقات البريئة المعذَّبة ، لايمكن قبوله . وكذلك لايمكن قبول الاله نفسه ، الذي خلق هذا العالم الشائه البشع . والانسان في تمرده وطغيانه ، وفي ازدهار « روحه الاقليدية » ، يعتقد انه يستطيع خلق عالم أفضل ، يختفي فيه الشر والعذاب ، ولاتنسكب فيه دموع الأطفال الأبرياء هذا هو منطق الصراع ضد الاله بأسم حب الخير . ونحن لانستطيع أن نتصور الاله لأن العالم سيء ، ولأن الظلم وعدم المساواة يسودان فيه . وهكذا تؤدي الحرية على هذا النحو الى محاربة الاله والعالم . ومن هنا أيضا يتطور من جديد جدل الحرية ، ومأساتها الباطنة . والحرية المتمردة هي التي

Twitter: @ketab_n

تفضي الى نفي فكرة الحرية نفسها ، والى استحالة الوصول الى سر العالم وسر الاله في ضوء الحرية الحقيقية . ذلك أن حضور هذه الحرية اللامعقولة في اعماق كل إنسان ، هذه الحرية التي يتكشف بواسطتها المنبع الأول للشر ، هذا الحضور ضروري لفهم هذا العالم ، وللحفاظ على الايمان بمعناه العميق ، وللتوفيق بين وجود الاله ووجود الشر . فلا وجود لكل هذا الشر وهذا العذاب في العالم الا لأن الحرية تقوم في اساسه . بيد أنه في الحرية أيضا تستقر كل كرامة العالم ، وكل كرامة الانسان وليس من شك ، أننا بإنكارها ، نستطيع أن نتجنب الشر والعذاب . وحينئذ يصبح العالم خيرًا وسعيدا على نحو اجباري . ولكنه يفقد في هذه الحالة شبهه بالاله . اذ أن هذا التشابه يكمن قبل كل شيء في الحرية . والعالم الذي ارادت « الروح الاقليدية » المتمردة ، روح ايفان كارامازوف ، أن يأتي على نقيض عالم الاله المليء بالشر والعذاب ـ سيكون عالما سعيدا وخيّرا .ولكن لن نجد فيه أثرا للحرية ، بل سيتخذ كل مافيه الطابع العقلي ، بصورة اجبارية . فاذا حدث هذا ، وجدنا منذ اليوم الأول مجتمع النمل السعيد ، هذا الانسجام الاجباري الذي يرفضه ذلك (الجنتلمان ذو السحنة المتخلفة المستهزئة) . وكلما زادت مأساة العملية الشاملة Universal، كلما زاد المعنى الأسمى المرتبط بالحرية . ان « الروح الاقليدية » تستطيع أن تشيِّد على الضرورة عالَماً عقلانيا في أساسه ، يُستبعد منه اللامعقول ، فلا وجود لأي مقياس مشترك بين المعنى الذي يحرك العالم الالهي ، وبين « الروح الاقليدية » . فهذا عالم لاتستطيع النفاذ فيه ، لأنها محصورة في مكان ذي أبعاد ثلاثة . فلا بد من النفاذ في بعد رابع لادراك المعنى الالهي للعالم ؟ والحرية هي بالضبط حقيقة البعد الرابع ، الذي لاسبيل الى بلوغه في حدود البعد الثالث . ومن ثم فأن « الروح الاقليدية » عاجزة عن حل مشكلة الحرية . وجميع اولئك الذين يُظْهرون ، عند دوستويفسكي ـ تمردهم وطغيانهم بتوصلهم الى نفي الحرية ، لأن ضميرهم ينكمش ، هؤلاء يعودون الى حدود المكان ذي الأبعاد الثلاثة ، لأن العوالم الأخر موصدة بالنسبة لهم . التمرد يصدر عن الحرية ، وينتهي الى محاولة خلق عالم مؤسس على الضرورة وحدها . وقد درس

Twitter: @ketab_n

دوستويفسكي بقوة جدلية تبعث على الدهشة ـ نتائج العقلانية المتردة ، وهي نتائج قاتلة للوعي الانساني ، كما درس نتائج الثورية المادية المتمردة ، وهي الأخرى مهلكة للحياة الانسانية . والتمرد الناجم عن الحرية اللامحدودة يفضي حتما الى القوة اللامحدودة للضرورة ، في مجال الفكر ، والى الاستبداد اللامحدود ، في مجال الحياة . وعلى هذا النحو كتب دوستويفسكي فلسفة للعدالة الالهية THeodicee هي في الوقت نفسه فلسفة للعدالة الانسانية . Anthropo dicee ولاتوجد غير حجة واحدة مستخدمة منذ الأزل ضد الاله ، ألا وهي وجود الشر في العالم . وهذا موضوع يبدو في نظر دوستويفسكي موضوعا أساسيا . ومؤلفاته كلها إجابة على هذه الحجة . وهي اجابة أستطيع أن أصوغها فيما يلي على نحوله طابع المفارقة Paradoxal الله موجود بالضبط لأن الشر والعذاب موجودان في العالم ، فوجود الشر هو برهان على وجود الله . ولو أن العالم كان مؤلفا من الخير وفي الخير حسب ، لما كان للاله أية فائدة ، لأن العالم نفسه سيكون هو الاله . الاله موجود ، لأن الشر موجود . وهذا معناه أن الاله موجود ، لأن الحرية موجودة .

وهكذا يبرهن دوستويفسكي على وجود الاله من خلال حرية الروح الانسانية . وبعض شخصياته التي تنكر حرية الروح ، تنكر الاله بالتالي ، والعكس صحيح . والعالم الذي يسود فيه الخير عن طريق القسر ، العالم الذي تفرض مافيه من انسجام ضرورة لا محيص عنها ، يصبح عالما بلا اله ، وآلية عقلانية mecanisme ratonnnel وبرفض الاله وحرية الروح الانسانية ، نعيد العالم الى تلك الحالة الآلية العقلانية ، والى هذا الانسجام الاجباري . ودوستويفسكي يعالج مشكلة الحرية على نحو دينامي (حركي) ، لا استاتيكي (سكوني) ؛ والحرية كما يتصورها توجد باستمرار محمولة داخل حركة جدلية ، وتتكشف فيها متناقضات باطنية ، وتعبر مراحل متتابعة . ولهذا كان من العسير فهم الكشف العظيم الذي توصل اليه دوستويفسكي عن الحرية ـ على اولئك الذين يتخذ جهازهم المخي طابعا سكونيا ؛ فهم يطالبون بـ « نعم » او « لا » . حيث يستحيل اعطاء مثل هذه الاجوبة . الحرية هي المصير الفاجع للانسان وللعالم ،

Twitter: @ketab_n

بل هي مصير الاله نفسه : وهي مستقرة في مركز الوجود ذاته بوصفها سرا أصليا . وسنرى ان جدل الحرية هذا سوف يبلغ ذروته عند دوستويفسكي في « اسطورة المفتش الاكبر » حيث تتركز جميع المشكلات ، وحيث تتجمع كل الخيوط .

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع

الشـــر

Twitter: @ketab_n

مشكلة الشر ومشكلة الجريمة ترتبطان عند دوستويفسكي بمشكلة الحرية . فلا سبيل الى تفسير الشر بدون الحرية . فهو يظهر على دروب الحرية . وبدون هذه الرابطة ، لا توجد المسئولية عن الشر : فبدون الحرية ، يكون الاله هو المسئول وحده عن الشر . وقد فهم دوستويفسكي هذا على نحو اعمق من اي انسان آخر . وفهم ايضا انه بدون الحرية ، لن يوجد الخير ايضا ، وان الخير هو بالمثل ابن الحرية . وسر الحياة جميعا ، وسر المصير الانساني يتوقف على هذه الفكرة . والحرية لامعقولة ، ولهذا فهي تستطيع ان تخلق الخير والشر في آن واحد . أما رفض الحرية بحجة انها تستطيع توليد الشر ، فمعناه خلق شر مضاعف . لأنه اذا كان الخير الحر هو وحده الخير ، فأن القهر والعبودية اللذين يتوهمان انهما الفضيلة ، ليسا الا الوجه ضد ـ المسيحي للشر . وهنا يكمن التناقض ، والشر ، واللغز ، ولايقنع دوستويفسكي بأن يضع هذا اللغز امامنا ، ولكنع يسهم اسهاما قويا في حله . وقد بلغ تصوره للشر مبلغا من الأصالة ضلل معه الكثيرين : فمن الضروري ان نفهم فهما تاما الطريقة التي وضع بها المشكلة وكيف حلها . ان سبيل الحرية ينحل في نظره الى تعسف ، والتعسف يؤدي الى الشر ، والشر والى الجريمة . وتحتل مشكلة الجريمة مكانا مركزيا في مؤلفات دوستويفسكي . فهو ليس عالما بالانسان (انثروبولوجيا) حسب ، ولكنه عالم بالجريمة criminaliste ايضا على طريقته الخاصة وبحثه عن حدود الطبيعة البشرية وآمادها القصوى افضت به الى البحث عن طبيعة الجريمة نفسها . فما هو المصير الذي يلقاه انسان انتهك حدود المباح، واي بعث جديد لوجوده يمكن ان يتحقق ؟ هذه هي النتائج الانطولوجية (الوجودية) للجريمة التي يكشف عنها دوستويفسكي . لقد اثبت دوستويفسكي ـ كما سبق ان رأينا ـ ان الحرية تنحل الى تعسف ، وتقود الى الشر ، والشر الى الجريمة ، وتؤدي الجريمة ـ اخيرا ـ بحتمية باطنية ـ الى العقاب . وهذا العقاب يترصد للانسان في الاعماق القصوى من طبيعته الخاصة: وهذا هو السبب الذي دفع دوستويفسكي الى ان يثور طيلة حياته ضد اي تناول للشر من وجهة نظر خارجية . وروياته

Twitter: @ketab_n

ومقالاته في « يوميات كاتب » حافلة بالمحاكمات الجنائية . وهذا الاهتمام الغريب يرجع الى ان دوستويفسكي يناهض ـ بكل طبيعته الروحية ـ كل تفسير من هذا النوع ، اي يجعل الدافع الى الشر والجريمة صادرا عن الوسط الاجتماعي وبالتالي ينكر كل فرصة للعقاب ولايشير دوستويفسكي الى هذه النظرية الانسانية ـ الوضعية الا بكل بغض . اذ يرى فيها نفيا لما تتسم به الطبيعة البشرية من عمق ، ونفيا لحرية الروح الانسانية والمسئولية المرتبطة بها . فاذا لم يكن الانسان سوى الانعكاس السلبي لوسطه الاجتماعي ، فهو اذن ليس مخلوقا مسئولا ، ومن ثم لا وجود للانسان ولا وجود للاله ولا وجود للحرية ، او للشر او الخير . مثل هذا الحط من قدر الانسان ومثل هذا الانكار لأولويته في الوجود ـ كانا يثيران غضب دوستويفسكي . فلم يكن يستطيع ان يعبر عن نفسه تعبيرا هادئا اذا عرض لهذا المذهب ، الذي كان شائعا شيوعا واسعا . وعلى العكس من ذلك ، كان مستعدا للدفاع عن اقسى العقوبات ، لأنها هي التي تناسب الكائنات الحرة المسئولة . فالشر كامن في اعماق الطبيعة البشرية ، وفي حريتها اللامعقولة . وفي افتقارها الى مبدأ الهي . وكذلك ان انصار العقوبات شديدة القسوة ينظرون نظرة اصح الى طبيعة الجريمة والطبيعة البشرية بعامة ، من اولئك الذين ينكرون الشر من وجهة نظر انسانية humanitaire ذلك ان دوستويفسكي يؤكد ـ باسم كرامة الانسان ، وباسم حريته ـ ضرورة مواجهة كل جريمة بعقوبة لا تتطلب قانونا خارجيا بقدر ماتتطلب الضمير الحر الساكن في اعماق الانسان . فهذا الضمير لايستطيع ان يوافق هو نفسه على انه غير مسئول عن الشر وعن الجريمة ، او على انه ليس مخلوقا حرا روحا ، وانما مجرد انعكاس لوسطه الاجتماعي . بل ان غضب دوستويفسكي ، وقسوته نفسها ، يعلنان كرامة الانسان وتفوقه . فمن الشائن ان يتخلص مخلوق حر ومسئول من عبء المسئولية لكي يضعه على الظروف الخارجية التي يصبح لعبتها في هذه الحالة . ومؤلفات دوستويفسكي كلها ماهي الا دحض لهذا التشهير بالطبيعة الانسانية . فالشر علامة على وجود عمق باطني للانسان . وهو مرتبط بالشخصية لان الشخصية هي وحدها التي

Twitter: @ketab_n

تستطيع ان تأتي بالشر وان تكون مسئولة عنه . والقوة اللاشخصية لايمكن ان تكون مسئولة عن الشر ، بل لايمكن ان تكون محركا اول . وهكذا نرى ان تصور الشر عند دوستويفسكي مرتبط ارتباطا وثيقا بتصوره للشخصية ، وبمذهبه الشخصاني personalisme اما النزعة الانسانية اللامسئولة فأنها الشر ، لانها تنكر المسئولية ، وقد كافح دوستويفسكي هذه النزعة باسم الانسان . فاذا كان الانسان موجودا ، وكانت الشخصية الانسانية موجودة بأعماقها ، فأن للشر منبع داخلي ، ولايمكن ان يكون نتيجة لظروف عرضية ينشؤها الوسط الاجتماعي . وقد يكون من المناسب لكرامة الانسان ولبنوته الالهية ان يعتقد ان طريق العذاب يكفر عن الجريمة ، ويطهر الشر . والفكرة القائلة بأن العذاب وحده هو الذي يسمو بالانسان الى ذروته هذه الفكرة جوهرية في علم الانسان عند دوستويفسكي . فالعذاب عند الانسان هو سمة العمق .

وقد عالج دوستويفسكي الشر على نحو يتسم بالمقارنة ، وكان موقفه من التعقيد بحيث ادى بالبعض الى الشك في مسيحيته . وهذا لان دوستويفسكي رفض ان يتناول الشر من وجهة نظر القانون ؛ واراد ان يتعرف على الشر ؛ فكان بهذا عارفا (غنوصيا) على طريقته الخاصة . فالشر هو الشر ، وطبيعته جوانية وميتافيزيقية ، وليست برانية واجتماعية . والانسان بوصفه مخلوقا حرا ، مسئول عنه ، بيد ان ماينطوي عليه الشر من عدم ينبغي اعلانه ، واحراقه في النيران . ودوستويفسكي ـ في حماسته ـ يتصدى للشر ويحرقه . بيد ان هذا ليس الا جانبا من موقفه ازاء هذه المشكلة : لان الشر هو ايضا الطريق الذي ينبغي ان يسلكه الانسان ، طريقه الفاجع ، مصير حريته ، والتجربة القادرة على اثرائه ، والصعود به الى مستوى اسمى . وهذا تصور للشر مباطنا للانسان . فهؤلاء الذين يعيشون على هذا النحو مخلوقات حرة ، وليسوا عبيدا . وتبرهن التجربة التي يتابعها الانسان داخل نفسه ـ تبرهن له على العدم الكامن في الشر ؛ وفي اثناء التجربة نفسها يستنفد الشر ويستهلكه . فاذا تخلص الانسان من الشر تطلع الى النور . بيد ان حقيقة هذه التجربة حقيقة خطرة ولاتوجد الا بالنسبة للمتحررين

Twitter: @ketab_n

الاصلاء ، واصحاب البصيرة الروحية . وينبغي ان تظل محتجبة عن الاشخاص الاقل شأنا . وهذا هو مايجعل دوستويفسكي يبدو كاتبا خطرا ، لأنه لامحيد عن قراءته في جو من التحرر الروحي . ومع ذلك ، ينبغي ان نعترف بأن احدا لم يناضل مبدأ الشر ، ولم يحارب الظلمات ، بمثل القوة التي حارب بها دوستويفسكي . بيد ان اخلاقيات القانون لايمكن ان تصلح كأجابة على ابطاله الذين سلكوا سبيل الشر . ذلك لان الشر لايتم التكفير عنه بعقوبة خارجية ، وانما بالنتائج المحتومة التي ينطوي عليها . والقانون الذي يعاقب المجرم ليس الا رمزا لمصيره الباطني . لأن كل ماهو خارجي يصلح لأن يكون رمزا على ماهو باطني . ومايعانيه الانسان من عذابات الضمير اخوف من كل ضروب القسوة التي تتضمنها قوانين الدولة جميعا ؛ وعندما يعذبه الندم ، ينتظر العقوبة بوصفها تخفيفا عن آلامه الاخلاقية . فلا مقياس مشترك بين قانون الدولة ، هذا « الوحش الثلجي » وبين روح الانسان ، وهذا القانون هو الذي بين دوستويفسكي مافيه من جور في المناقشات التي دارت في محاكمة ميتيا كارامازوف . ففي نظره ان النفس الانسانية اكثر دلالة من كل امبراطوريات العالم : وهو من هذه الجهة مسيحي متعمق في مسيحيته . بيد ان الروح نفسها هي التي تبحث عن السيف الذي تمسك به الدولة ، وهي التي تعرض نفسها لضرباته . ذلك لان العقوبة ماهي الا خطوة على الطريق (الجواني) الذي تسلكه .

دوستويفسكي أن من الضروري سلوك طريق الشر حتى يثرى نفسه ، ويجني ثمار تجربة جديدة . ونحن لانستطيع أن نعزو اليه نظرية تطورية للشر لايكون الشر فيها سوى لحظة في تطور الخير : مثل هذا التفاؤل التطوري الذي يؤيده كثير من الثيوصوفيين[1] يتعارض تماما مع الروح المأساوية عند دوستويفسكي . فهو من أقل الناس قبولا للمذهب التطوري الذي يرى أن الشر لايعدو أن يكون عيبا في الخير ، وخطوة في تطوره . أما بالنسبة لدوستويفسكي فقد كان الشر هو الشر . ولا

---

(١) نسبة الى الثيوصوفية theosphie وهي نظرية اشراقية دينية غايتها الاتحاد بالرب . (المترجم)

Twitter: @ketab_n

بد أن يحترق في نار جنهم . وكان هو نفسه يقود الشر عبر تلك النيران الجهنمية . وكان يعلّم الناس ألا يتحـايلوا على الشر ! فمن الحمق الاعتقـاد بأن الانسـان يستطيع واعيا سلوك هذا الطريق حتى يبلغ كل ما وسعه من إشباع ، وأن يهرع بعد ذلك مباشرة فيلقي بنفسه في أحضـان الخير . فهـذه حالة للروح تخلو من الكرامة ، ومحاجّة تفتقر تماما الى الجدية . فلاشك أن التجربة الفاجعة للشر تثري الانسان ، وتشحذ معرفته . ولاشك ايضا أنها لا تدع له مجالا للرجوع الممكن الى حالة أولية ، كالحالة التي سبقت هذه التجربة . ولكن ، عندما يسلك المرء سبيل الشر ويحيا تجربته ـ ويبدأ في الاعتقاد بأن الشر يثريه ، وأنه ليس سوى لحظة من لحظات الخير ، وخطوة في صعوده ، فأن سقوطه يكون أتم ، ويأخـذ وجوده في التفكك ، والانحلال ، وبهذا يُغْلق الى الأبد كل منفذ لاثراء ذاته وبعثها من جديد . مثل هذا الانسان لايتعلم شيئا من تجربة الشر ، ولايستطيع أن يسمو فوق ذاته . ذلك أن الرضـا الذي تشعر بـه الذات في حضن الشر هـو عـلامـة الضيـاع . وللارتفاع ـ على العكس ـ الى مستوى روحي أسمى فلا بد من رفض الشر في حد ذاته ، ولامناص من المعاناة الرهيبة . وقد صوَّر دوستويفسكي هذه الآلام ، وبيَّن أن الشر هو السبيل المأسوي للانسان ، وهو مصيره ، وامتحان حريته . والشر متناقض قبل كل شيء والتفاؤل التطوري الذي يتصوره شيئا لاغنى عنه في تطور الخير ، والذي يحاول تجريده من تنـاقضه ، لايكشف الا عن جـانب واجد من جوانبه فليس من شك أننا يمكن أن نثري بتجربة الشر ، وأن نبلغ درجة عالية من حدة المعرفة ، ولكن شريطة أن نصل الى ذلك من خلال الألم ، وعبر القلق الذي يساورنا خشية ضياع الذات . فاذا رفضا الشر ، وقذفنا به في نيران الجحيم ، نكون قد كفَّرنا بذلك عن خطيئتنا . فالشر لاينفصل عن العذاب ، وينبغي أن يؤدي الى التكفير . ويؤمن دوستويفسكي بالقوة الكامنة في العذاب التي تفضي الى التكفير والولادة الجديدة . والحياة بالنسبة اليه ـ هي قبل كل شيء التكفير عن خطيئة بواسطة العذاب . الحرية ساقت الانسان الى طريق الشر ، وكان الشر اختبـارا للحرية ، ولا بد أن يفضي الى التكفير . وبواسطة التكفير ، فأن الحرية التي حطَّمت

Twitter: @ketab_n

نفسها ، وانحلت الى نقيضها ، ينبغي ان تُبعث وأن تُرد الى الانسان . ولهذا كان المسيح الفادى Redempteur Christ هو الحرية نفسها . وفي روايات دوستويفسكي جميعا يمر الانسان بهذه العملية الروحية . عبر الحرية ، والشر والتكفير . وهو يصور الأب زوسيما وآليوشا بوصفهما مخلوقين عرفا الشر ، فاستطاعا بلوغ حالة أسمى . ذلك أن آليوشا لم يسلم من داء الأسرة الكارامازوفية ، وقد لاحظ ذلك شقيقه ايفان ، كما لاحظته جروشنكا Grouchenka بل لقد شعر هو نفسه بأن الداء يسري فيه . بيد أن آليوشا كان لابد ـ في فكر دوستويفسكي ـ أن يكون الانسان الذي خرج منتصرا من محنة الحرية . وعلى هذا النحو ينبغي أن يكتمل المصير الانساني .

ويرجع وضع مشكلة الجريمة الى تحديد المباح . فهل كل شيء مباح ؟ هذا هو السؤال الذي ارّق دوستويفسكي دائما ، والذي تمثل له بلا انقطاع في اشكال متجددة دائما وابدا . وهذا هو الموضوع الذي اوحى اليه برواية « الجريمة والعقاب » ، والى حد كبير برواية « الممسوسون » و « الاخوة كارامازوف » . وفيها جميعا يعرض محنة الحرية الانسانية فعندما يسلك الانسان سبيل الحرية ، يجد نفسه وجها لوجه امام هذه الورطة : هل توجد حدود اخلاقية لطبيعيته ، ام انه يستطيع المجازفة بفعل كل شيء ؟ فالحرية ، حينما تنحل الى تعسف ، لاتعرف لشيء قداسة ، ولاتقبل اي حد . واذا كان الاله غير موجود ، وكان الانسان هو نفسه اله ، اصبح كل شيء مباحا . وهنا يشرع الانسان في اختبار قواه ، وسلطانه ، ورسالته في ان يصبح الها . وفي الوقت نفسه يدع نفسه لسيطرة فكرة ثابتة عليه ،وتحت سطوة هذه الفكرة ، تبدأ حريته في الاختفاء ، ويجعل من نفسه عبدا لقوى خارجية . وهذه عملية صورها دوستويفسكي بعبقريته الفذة . ذلك ان الانسان الذي ينكر في طغيانه حدود الحرية يشاهد هذه الحرية وهي تتبدد وتسقط تحت سلطان الافكار التي تستعبدها . كانت هذه هي حالة راسكولنيكوف . فهو لا يعطي الانطباع بأنه انسان حر ؛ اذ لم يعد سوى مجنون تسيطر عليه افكار كاذبة . فلا اثر عنده لذلك الاستقلال الاخلاقي الذي يصاحب التطهير الذاتي والتحرر الذاتي . فما هي الفكرة الثابتة عند راسكولنيوكوف ؟ انه يجري التجارب

Twitter: @ketab_n

على حدود طبيعته الخاصة ، وعلى حدود الطبيعة البشرية بوجه عام . اما هو فيعتبر نفسه منتميا الى صفوة البشرية ، الى ذلك الصنف من عظماء الناس المكلفين بإغداق النعم عليها . وهو يعتقد ان كل شيء ممكن ، ويريد ان يضع قوته على المحك . واللغز الانساني الموضوع ازاء الانسان يقوم دوستويفسكي بتبسيطه واحالته الى نظرية اولية . فهذا انسان خارق ، موكل بخدمة البشرية هل من حقه ان يقتل آضأل المخلوقات شأنا وابشعها ، مرابية عجوز مقززة، ليست بالنسبة للمخلوقات الاخرى سوى مصدر للشر ، هل من حقه ذلك حتى يشق بهذه الجريمة طريقا في المستقبل لاصلاح الانسانية ؟ ونتبين من « الجريمة والعقاب » ـ في قوة مدهشة ـ ان مثل هذا الامر غير مباح ، وان صانع هذه الجريمة يسلم نفسه للضياع روحيا . ليس كل شيء مباحا ، لان الطبيعة البشرية ـ كما تثبت ذلك تجربة اجريت على نحو جواني ـ خلقت على صورة الاله ، ولان لكل انسان في ذاته قيمة مطلقة . والجريمة العشوائية حتى ولو كانت لأدنى المخلوقات واشدها ضررا لا تسمح بها الطبيعة الروحية للانسان ؛ اذ يفقد في هذه الحالة مظهره الانساني ؛ وتبدأ شخصيته في التحلل . ومامن « فكرة » ، ومامن هدف « اسمى » يمكن ان يبرر هذه المعالجة الاجرامية حتى لو كانت لأدنى النظراء . والواقع ان « القريب » اغلى من « البعيد » ، وكل حياة انسانية ، وكل نفس انسانية اهم من اصلاح البشرية في حالة صيرورتها ، واهم من فكرة مجردة . هذا هو التصور المسيحي . وهذا هو ماكشف عنه دوستويفسكي . فالانسان الذي اعتقد نفسه نابوليونا ، انسانا عظيما الها ، فانتهك حدود ماهو مباح للطبيعة البشرية المخلوقة على صورة الاله ـ هذا الانسان يتردى في الحضيض ، ويقتنع بأنه ليس انسانا اعلى (سوبومان) ، وانما مخلوق ضعيف وضيع ، مهزوز . وقد اعترف راسكولنيوف بضعفه التام ، وبأنه عدم . وافضى به اختبار حدود حريته وقوته الى نتيجة فاجعة . وبدلا من ان يقتل تلك المرأة العجوز الغبية المؤذية ، قتل راسكولنيكوف نفسه . وبعد الجريمة ، التي كانت تجربة خالصة ، فقد حريته ، وسحقه ضعفه . فلم يعد لديه ذلك الشعور بالزهو . وفهم في الواقع انه من اليسير قتل انسان وان

Twitter: @ketab_n

هذه التجربة ليست عويصة بيد ان الانسان لا يستنفد في هذه الفعلة اية قـوة عملية ، وانما يفقد فيها قواه الروحية . ان شيئا « عيظما » او « خارقا » او له اصداء عالمية ، لم يحدث نتيجة لان راسكولنيكوف قتل المرابية : وانما رزح تحت العدم الذي سيترتب حتما على فعلته . فالقانون الابدى عاد الى نصابه ، ومن ثم وقع راسكولنيكوف تحت سلطانه . ولقد جاء المسيح لتنفيذ هذا القنون ، ولم يأت لانتهاكه . والحرية التي يحملها « العهد الجديد » ليست ثورة ضد القانون القديم الذي وضعه « العهد القديم » : كل ما في الامر انه يكشف فيما وراء هذا العالم عن عالم اخر اسمى. وعلى راسكولنيكـوف ان يخضع لسلطان قـانون الكتـاب المقدس الذي لم يتبدل . والعبقريات العظيمة والاصيلة التي افادت البشرية ، لم تصنع مثل صنيعه : فلم يعتبروا انفسهم في عداد الانسان الاعلى (السوبرمان) بحيث يصبح كل شيء مباحا لهم ، وانما حين ضحوا بأنفسهم في سبيل ما وضعوه فوق البشرية ، استطاعوا ان ينجزوا اشياء عظيمة من اجل الانسانية . وقد كان راسكولنيكوف ـ قبل كل شيء ـ كائنا مزدوجا ، منحرفا ، انعزلت عنه حريته فعلا بسبب مرضه الباطني . اما الاشخاص العظماء حقا ، فقد احتفظوا قبل كل شيء بتكامل انفسهم ، بوحدتهم . ويفضح دوستويفسكي الاكذوبة التي ينطوي عليها كل ادعاء بأن الشخص انسان اعلى (سوبرمان) فهـذه الفكرة الزائفـة تقتل الانسان ، مثلما يخفي ادعاؤه بأنه يتمتع بقوة لامحدودة ـ ضعفه وعجزه . لانه في اشد انواع الضعف اثارة للشفقة ، في ضعف لم يعد انسانيا ، سوف تغوص كل هذه التطلعات المصاحبة للانسان ـ اعني التطلعات الى قوة فائقة على الانسانية . وفي مواجهة هذه التطلعات ، تظهر لنا طبيعة الضمير الاخلاقي والديني على انها ابدية وعن طريق ضروب العذاب والقلق التي يعانيها هذا الضمير تتكشف لنـا جريمة الانسان وعجزه في ادعائه الكـاذب بأنـه قادر قـدرة شاملة Toutepuissanc وصنوف العذاب التي عاناها ضمير راسكولنيكوف لاتشهـد بأنـه انتهك حدود المباح حسب ، ولكنها تشهد ايضا على ضعفه وعدمه .

* * *

Twitter: @ketab_n

وكانت قضية راسكولنيكوف شاهدا على أزمة النزعة الانسانية فعلا ، ونهاية الأخلاق الانسانية ، وضياع الانسان نتيجة لتوكيده الذاتي[٢] autooffirmatin . ويشير ظهور حلم الانسان الأعلى والانسانية العليا ، والاخلاق الانسانية العليا الى أن النزعة الانسانية قد استنفدت نفسها وبلغت نهايتها . أما بالنسبة لراسكولنيكوف ، فلم يعد للنزعة الانسانية الخيِّرة وجود فعلا ، فهو شخص قاس ، قد خلت نفسه من الرحمة في علاقاته بإخوانه البشر . والانسان ، ذلك المخلوق الحي ، العيني المعذَّب ، ينبغي التضحية به من أجل فكرة « الانسان الأعلى » فهل نستطيع بأسم « البعداء » ، الفائقين على الانسان ، أن نتصرف كما يحلو لنا مع « القريب » من الانسان ؟ ودوستويفسكي نفسه يدعو الى دين حب « القريب » ويفضح أكذوبة الحب لغايات بعيدة ، تقع خارج الانسانية أو فوقها . فهناك مبدأ « بعيد » يوصينا بحب القريب (الجار) : وهذا المبدأ هو الله . بيد أن فكرة الله هي الفكرة الوحيدة الفائقة على الانسان التي لاتحطم الانسان ، ولاتُحيله الى مجرد وسيلة ، الى أداة . والله يتجلى من خلال ابنه . وهذا الابن ، هو الرب الكامل ، والانسان الكامل ، الاله ـ الانسان في كماله الذي يتحد فيه الالهي بالانساني . وكل تصور آخر للانسان الأعلى (السوبرمان) يقتل الانسان ، وينحط به الى مرتبة الأداة . ولهذا كانت فكرة الانسان الذي يجعل من نفسه إلها تحمل في طياتها موت الانسان . وهذا واضح بالمثل الذي يضربه نيتشه . وكذلك الفكرة اللاإنسانية للنزعة الجماعية عند ماركس ، وفي دين الاشتراكية ، هذه الفكرة قاتلة ايضا للانسانية[٣] . ويدرس دوستويفسكي النتائج المهلكة التي تترتب على سيطرة فكرة تأليه الانسان لنفسه على الانسان في شتى الصور التي يمكن أن تتخذها ، سواء كانت فردية أو جماعية . وعند هذه النقطة ،

---

(٢) ينبغي أن نذكر أن ماركس في شبابه كان يؤمن ببعض الأفكار الانسانية الخيرة الخالصة . (١٩٤٤) .

(٣) أكرر أنه ينبغي أن نفهم النزعة الانسانية هنا بوصفها المذهب القائل بأن الانسان يستطيع الاكتفاء بنفسه . (١٩٤٤) .

Twitter: @ketab_n

تنتهي امبراطورية الشفقة ، ولاتعود ثمة رحمة بالانسان . فقد كانت الشفقة انعكاسا للحقيقة التي انارت بها المسيحية الانسان . وبرفض هذه الحقيقة رفضا قاطعا ، نغيِّر تماما طريقة تناول الصلات مع الانسان . فباسم عظمة السوبرمان ، وباسم سعادة البشرية في المستقبل البعيد ، وباسم الثورة العالمية المادية الملحدة ، وباسم الحرية اللامحدودة لشخص واحد ، أو المساواة اللامحدودة بين الجميع ، يصير مباحا تعذيب الانسان أو قتله ، أو قتل مجموعة من الناس ، وتحويل كل موجود الى مجرد أداة في سبيل خدمة « فكرة » عظيمة ، وغاية سامية . كل شيء مباح باسم الحرية اللامحدودة التي يتمتع بها السوبرمان (وهذه هي النزعة الفردية المتطرفة) ، باسم المساواة اللامحدودة للبشرية (وهذه هي النزعة الجماعية المتطرفة) . وهنا يعطي الطغيان الانساني لنفسه حق تقدير قيمة الحياة الانسانية ، وحق التصرف فيها . فليس الاله هو الذي تنتمي اليه الحياة الانسانية والحكم الأعلى على المخلوقات . بل يأخذ الانسان ذلك على عاتقه ، معتبرا نفسه صاحب « فكرة » السوبرمان . أما حكمه ، فلارحمة فيه ولاشفقة ، فهو شائن لا انساني في وقت معاً . وقد درس دوستوفيسكي دراسة متعمقة ، المسارب التي يسلكها هذا التعسف الانساني سواء في صورته الفردية ، أو في صورته الجماعية . واستخلص مافيه من وهم خَطير . وكان راسكولنيكوف أحد هؤلاء المخلوقات الذين سيطرت عليهم هذه الفكرة الباطلة . والسؤال عن معرفة ما اذا كان له الحق في أن يقتل أحقر المخلوقات شأنا بأسم « فكرته » أجاب عليه وفق تعسفه ونزوته . ذلك أن حل مثل هذه المسألة لايرجع الى الانسان ، وانما الى الله . الله هو « الفكرة » الوحيدة الأعلى . والشخص الذي لا ينحني هنا أمام ارادته العليا ، يحطم الآخر (القريب) ، ويحطِّم نفسه . هذا هو مغزى « الجريمة والعقاب » .

أما في « الممسوسون »[٤] فقد درس دوستويفسكي هذه الطرق التي يسلكها

---

(٤) « الممسوسون » رواية من اروع الروايات العبقرية التي كتبها دوستويفسكي ، ولكنها جائرة في كثير من الأحيان تجاه الثوريين الروس ، وتكاد تكون احيانا منشورا . (١٩٤٤)

Twitter: @ketab_n

الطغيان الانساني والتي تؤدي الى الجريمة ، دراسة أشد تفصيلا وعمقا . ففيها تظهر النتائج المحتومة لافتتان الوعي بالأفكار الجماعية والأفكار الفردية التي تخلو من الاله . فهذا بييرفرهوفنسكي يفقد مظهره نفسه كأنسان نتيجة لسيطرة فكرة خاطئة عليه . وقد بلغ عنده الانحطاط الانساني الى درجة متقدمة كثيرا عما بلغه عند راسكولنيكوف . فهو قادر على كل شيء وكل شيء مباح باسم فكرته . ولا وجود للانسان في نظره ، كما انه هو نفسه لم يعد انسانا . فنحن نخرج من الملكوت الانساني ، لندخل في جو خانق ، لا انساني . ذلك أن الاشتراكية الثورية الملحدة تنتهي حتما الى اللاإنسانية . وهنا يفقد الانسان كل معيار للخير والشر ، ويحيا في جو ثقيل مشبع بالدم والقتل . واغتيال شاتوف Chatov مثلا ـ يترك انطباعا مخيفا . ويفوح من كل فقرة في « المسوسون » شيء يحمل طابعا تنبؤيا أبديا . وكان دوستويفسكي أول من أدرك النتائج المحتومة لفئة معينة من الأفكار . وكان أبعد نظرا من فلاديمير سولوفييف Vladimir Solviev الذي كان يمزح مع العدميين الروس بأن ينسب اليهم هذه الصيغة : الانسان قد خرج من القرد ، ولهذا ينبغي ان يحب بعضنا البعض الآخر . كلا ، اذا كان البشر على صورة غير صورة الاله ، وانما على صورة القرد ، فإنهم بدلا من أن يتبادلوا الحب ، سوف يحطم بعظهم بعضا ، وسوف يبيحون كل جرائم القتل ، وكل ضروب القسوة . وسيكون كل شيء مباحا لهم حينئذ . و « الفكرة » نفسها الغاية النهائية التي بدت في أول الأمر على ذلك النحو من السمو والجاذبية ، أوضح دوستويفسكي ما فيها من انحلال وهوان . فهي فكرة شائهة ، مأفونة لا إنسانية ، تنحط بها الحرية لتصير طغيانا لا محدودا ، وتسقط المساواة لتصبح لا مساواة مخيفة ، ويتدنى تأليه الانسان أخيرا ، فيتحول الى تدمير للطبيعة البشرية . وعند بيير فرهوفنسكي ، وهو واحد من ابشع الانماط التي ابتدعها دوستويفسكي ، ينطمس الضمير الانساني تماما ، وقد كان له وجود عند راسكولنيكوف . فقد اصبح غير صالح للندم ، وسيطرت الفكرة الثابتة سيطرة تامة على عمله . فهو يندرج في عداد الأشخاص الذين لن يكون لهم في المستقبل ـ وفقا لدوستويفسكي ـ مصير انساني ، وانما

Twitter: @ketab_n

سوف يُنْتزعون من مملكة البشر لكي يَهْوون في العدم . فلم يعودوا البذرة الصالحة ، بل هم الشيلم[٥] . وعلى هذا النحو كان سفيدريجائيلوف ، وفيدور بافلوفتس كارامازوف ، وسمردياكوف ، والزوج الأبدي . على حين أن راسكولنيكوف ، وستافروجين . وكيريلوف ، وفرسيلوف ، وايفان كارامازوف ، وان كانوا ضائعين من الوجهة التجريبية ، إلا أنهم يحتفظون ـ بالامكان En Puissance ـ بحياة مقبلة بشطر من المصير .

* * *

ما من أحد سبق دوستويفسكي في دراسة صنوف العذاب والندم التي تنتاب الضمير وصوّرها كما ينبغي أن تكون الدراسة والتصوير مثلما فعل دوستويفسكي : فهو يكشف في الأعماق القصوى للانسان ، في أشد أفكاره استسرارا ، عن ارادة الجريمة . إن ألوان القلق التي تصيب الضمير ، تستنفد النفس الانسانية ، وان لم يكن الانسان قد ارتكب بعد أية جريمة مرئية . والانسان يكفّر ، ويفشي عن سره ، وان لم تنتقل ارادته الاجرامية بعدُ الى الفعل . ولايستطيع قانون الدولة ، ولا الرأي العام ، أن يدرك في أعماق الانسان عن الجريمة الكامنة . بيد أن الانسان يعرف الاغوار المخيفة التي تنطوي عليها نفسه ، ويعد نفسه خليقا بأشد العقوبات قسوة . وهنا يكون الضمير الانساني أقسى من القانون المدني في صرامته ، إذ يتطلّب من الانسان أكثر مما يتطلبه ذلك القانون . فنحن نقتل أشباهنا ، لا حين ننهي حياتهم الجسدية بسلاح ناري او بسكين حسب ، بل أن الفكرة المستسرة التي لاتكاد تبلغ الضمير ، والتي ينوي بها الانسان القضاء على وجود جاره ـ هذه الفكرة هي جريمة قتل تقترفها الروح فعلا ، وتكون مسؤولة عنها . وعلى هذا النحو نكون جميعا قَتَلةً ومجرمين ، وإن نظر الينا القانون المدني والرأي العام على أننا غير جديرين باللوم . وكم من نوايا اجرامية تولد في أعماق نفوسنا ، وفي مجال لاشعورنا ، وكم من مرات اتجهت ارادتنا الى التقليل من شأن أشباهنا أو القضاء على حياتهم ! ان كثيرا منا يتمنون

---

(٥) كناية عن الطيبين والأشرار ، فالبذرة الصالحة هي الطيبون ، والشيلم هم الأشرار (المترجم) .

Twitter: @ketab_n

في موضع السر من نفوسهم موت أقرب الناس اليهم . وتبدأ الجريمة بهذه الرغبات الخفية . وعند دوستويفسكي ، يبلغ عمل الضمير الى درجة من التعمق والحدة لا نظير لها ؛ وهذا الضمير هو الذي يشى بالجريمة التي تفلت من كل محكمة . ان ايفان كارامازوف لم يقتل أباه فيدور كارامازوف ، وانما الذي قتله هو سمردياكوف . غير ان ايفان كارامازوف عاقب نفسه على جريمة قتل الأب ، وساقه تعذيب الضمير الى الجنون . وكان قد وصل الى الدرجة القصوى من ازدواجية الشخصية . فبدا له الشر الباطني في صورة « انا » أخرى وشرع في تعذيبه . وفي قرارة هذه الأفكار المستسرة ، وفي مجال لاشعوره اراد ايفان موت ابيه ، بوصفه مخلوقا وضيعا منحرفا . وفي حديثه كان يعود باستمرار الى واقعة « أن كل شيء مباح » وقد اغرى سمردياكوف ، وثَبَّت فؤاده ، وعَزَّز عزمه الاجرامي . فهو اذن الفاعل الروحي لجريمة قتل الأب ، ولم يكن سمردياكوف سوى « انا » ه الثانية ، « أنا » ه الأدنى . بيد أن محاكم الدولة ، والرأى العام لم يشتبها في ايفان او يوجها اليه الاتهام : كان وحده فريسةً لعذابات ضميره ، التي احرقت روحه في نيران الجحيم ، وغشيت على عقله . وكانت الأفكار الكاذبة المضللة هي التي ساقته الى تلك التأملات الغامضة التي أوصلته الى تبرير جريمة قتل الأب . ولكنه اذا كان خليقا بمتابعة مصيره ، فلا بد له من أن يجتاز دورات الندم والجنون . وكذلك ، لم يقتل ميتياكارامازوف أباه ، ولكنه وقع ضحية حُكْم جائر أصدره الناس . غير انه قال : « لماذا يوجد مثل هذا الشخص ؟ » وبهذه الجملة استوعب جريمة قتل الأب كلها في قرارة روحه . فكان أن تَقَبَّل العقوبة الظالمة التي لايستحقها ، والتي وقَّعها عليه قانون لايعرف التأثر ـ بوصفها تكفير عن خطيئته . والواقع ان سيكلوجية جريمة قتل الأب في « الاخوة كارامازوف » تتميز كلها بأن لها معنى خافيا ، عميق الرمز . ذلك أن طريق الطغيان والالحاد يقود الانسان حتما الى جريمة قتل الأب ، وانكار كل بنوة . وعلى هذا النحو تصبح الثورة جريمة قتل الأب . وتعد لوحة العلاقات بين ايفان كارامازوف و « أنا »ه الادنى ، اعني سمردياكوف . تعد من أروع الصفحات التي كتبها

Twitter: @ketab_n

دوستويفسكي . ان طريق التعسف ، والتوقير الذميم ازاء فكرة السوبرمان لامناص من ان يسوقا الانسان الى النقطة التي تظهر له فيها صورة سمردياكوف . اذ ان سمردياكوف هو العقوبة الرهيبة التي تترصد الانسان ؛ فالى هذا الكاريكاتور الشائه المثير للرثاء تنتهي جميع التطلعات صوب تأليه الانسان . وفي هذه اللحظة ، ينتصر سمردياكوف ؛ اذ ينبغي أن يصير ايفان مجنونا . وهناك برهان عميق ايضا على حضور الجريمة في أشد أفكار الانسان استسرارا ، حيث لا يمكن ترجمته الا بتواطئه الضمني - وذلك في الدور الذي لعبه ستافروجين في مقتل زوجته شرونوموجكا chronomojka . إذ يعتبر فيدكا كاتورجنيك fedka katorjnik مدبر هذا الموت - يعتبر ان ستافروجين هو الذي حرضه ، وانه لم يكن سوى أداة طيعة بين يديه . بل ان ستافروجين نفسه يعترف بأنه مذنب .

لقد وضع دوستويفسكي مشكلة الشر والجريمة بكل مافيها من عمق . « وبدون « فكرة عليا » ، لايستطيع انسان ، ولاتستطيع أمة أن توجد . بيد انه لا وجود على الأرض لغير فكرة عليا واحدة ، هي فكرة النفس الانسانية الخالدة ؛ أما جميع « الافكار العليا » الأخرى الذي يستطيع الانسان أن يحيا عليها ، فتنبع من تلك الفكرة . « ان الانتحار عقب فقدان فكرة الخلود ، يبدو بوصفه ضرورة تامة لا محيد عنها لكل انسان يرتفع قليلا عن مستوى الأنعام . »

« وفكرة الخلود هي الحياة نفسها ، هي الصيغة النهائية ، والمنبع الأصلي للحقيقة ولاستقامة الضمير . » على هذا المنوال ، عّبر دوستويفسكي عن موضوع الخلود في « يوميات كاتب » . والفكرة القائلة بأنه اذا لم يكن للخلود وجود ، فكل شيء مباح ، فكرة اساسية عنده . وبالتالي فانه يربط الخلود بمشكلة الشر والجريمة . فيكف نفهم هذه الرابطة ؟ ينبغي الا نفكر بحال من الأحوال ان دوستويفسكي قد تناول المسألة من وجهة نظر تبسيطية ونفعية ، مشيرا الى أن الشر سيتلقى عقابه في حياة أبدية ، وأن الخير سيلقى جزاءه . فمثل هذه النفعية السماوية البدائية الى هذه الدرجة كانت أبعد ماتكون عن فكره . ولكنه كان يعنى أن الانسان بقدر ما هو مخلوق خالد تكون له قيمة مطلقة ، ولايمكن أن يرضى بأن يتحول الى وسيلة ، الى أداة لتحقيق مصلحة أيا كانت . ونفي الخلود عن الانسان

Twitter: @ketab_n

يعادل نفي الانسان نفسه . فإما أن يكون الانسان روحا خالدة ، تحمل مصيرا أبديا ، أو لايعدو أن يكون ظاهرة تجريبية عابرة ، والنتاج السلبي لوسطه الطبيعي والاجتماعي . وفي هذه الحالة الثانية لايكون للانسان قيمة مطلقة . ولن يكون للشر والجريمة وجود . النفس الخالدة للانسان هي اذن مايدافع عنه دوستويفسكي ، والنفس الخالدة ، معناها أيضا النفس الحرة التي تمتلك غايةً أبدية مطلقة ، والتي هي أيضا نفس مسؤولة . وفكرة الوجود الباطني للشر ومسئولية الانسان عن الجريمة ، تعادل الاعتراف بالماهية الحقيقية للشخصية الانسانية . فالشر مرتبط بوجود الشخصية الى « الأنا ـ مركزية »egocntrisme الانسانية . غير أن الشخصية الانسانية خالدة . وتحطيم المبدأ الشخصي الأبدي هو الشر بعينه . وتوكيد المبدأ الشخصي الأبدي هو الخير . فانكاره يعني في الوقت نفسه انكار وجود الخير والشر معاً . وكل شيء مباح للانسان لو لم يكن كائنا شخصيا ، خالدا وحرا : اذ لن يتمتع عندئذ بقيمة مطلقة ، ولن يكون مسؤولا عن الشر . وفي مركز النظرية الاخلاقية لدوستويفسكي عن العالم ؛ تقوم فكرة القيمة المطلقة لكل مخلوق بشري . وحياة ومصير أحقر البشر لهما معنى مطلق في نظر الأبدية . لأن حياة هؤلاء هي الحياة الأبدية ، والمصير الأبدي . ولهذا لاينبغي أن نمحو بلا عقاب كائنا انسانيا واحدا . بل ينبغي أن نحترم فيه الصورة والشبه الالهيين اللذين نجدهما ايضا في أحط مخلوق . هذا هو المذهب الاخلاقي لدوستويفسكي . فليس ماهو « بعيد » حسب ، « الفكرة العليا » ، والاشخاص « الافذاذ » من أمثال راسكولنيكوف وستافروجين ، وايفان كارامازوف ، هم وحدهم الذين يتمتعون بقيمة باطنة ، وانما « القريب » البسيط ايضا ، ممن هو على شاكلة مارميلادوف Marmeladov او ليبيادكين Lebiadkine او سنيجيرف Snigwirev ، أو المرابية العجوز المقزِّزة . والانسان الذي يقتل انسانا آخر يقتل نفسه ، فهو ينكر الخلود والأبدية لغيره ولنفسه . وهذا الجدل الذي لا سبيل الى تفنيده جدل مسيحي خالص . ينبغي اذن ان يبتعد الانسان عن الجريمة ، لا بسبب الخوف النفعي من العقاب ، وانما بسبب طبيعته الأبدية التي تنتفي في الجريمة ... تلك

Twitter: @ketab_n

الطبيعة الأبدية التي تتخذ الضمير الانساني تعبيرا عنها .

* * *

تناول دوستويفسكي العذاب على نحو مزدوج ، وهذه الثنائية التي يصعب ادراكها لأول وهلة ـ هي التي تفسِّر الأحكام المتناقضة التي جعلت منه طورا بعد آخر ، أكثر الكُتَّاب شفقة ، وأشدهم قسوة . والحق أن مؤلفات دوستويفسكي مشحونة بعطف لا متناه على الانسان . فهو يدعو الى الرحمة والى الاحسان . وما من أحد جُرح مثله بعذاب الانسان : وقلبه يسيل دما الى الأبد . وهو ، الانسان الذي قدر عليه أن يعرف السجن ، وأن يعيش بين المساجين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة ، قضى حياته كلها يلتمس الرحمة للانسان أمام الله . وكانت آلام الأطفال الأبرياء تحزنه اكثر من أي شيء آخر ، وتجرح ضميره . وكان يرى أن الشرط الذي ينبغي أن يقوم عليه أي علم بالعدالة الالهية theodicee هو تبرير هذه الدموع التي يسكبها الاطفال . وكان يفهم لماذا يتمرد الناس على نظام كوني قائم على اساس الآلام الرهيبة ، ودموع الأبرياء المعذَّبين . وهو الذي أجاب على لسان آليوشا على سؤال ايفان الذي طلب من اخيه ان كان يوافق على « تشييد صرح المصير الانساني على أساس غاية نهائية هي اسعاد الناس ومنحهم السلام والسكينة في نهاية المطاف » ، واذا « كان من أجل هذا ، لامناص ـ بالضرورة وعلى نحو محتوم ـ تعذيب مخلوق صغير واحد يضرب صدره بقبضتيه الصغيرتين ـ وتأسيس هذا الصرح بهذه الطريقة على تلك الدموع التي لا حول لها ولا قوة ؟ » فأجاب آليوشا : « كلا ، لن أوافق . » وظل دوستويفسكي يتساءل طيلة حياته ، كما حدث في حلم ميتيا : « لماذا يوجد آباء التهمت النيران كل ما يملكون ، لماذا يوجد أناس مساكين ، طفل بائس ، لماذا هذه السهوب المقفرة ، لماذا لايتعانق الناس جميعا ، لماذا لايحضنون بعضهم بعضا ، لماذا لاينشدون اغان مرحة ، لماذا اسودت افئدتهم بالشقاء على هذا النحو ، لماذا لا يطعمون الطفل ؟ » ومع ذلك فأن دوستويفسكي أقل من أي شخص آخر ، اذا أردنا وصمه بالطرطشة العاطفية Sententimentaliose أو بالانسانية الرخوة الماسخة . فهو لايدعو

Twitter: @ketab_n

الى الشفقة حسب ، وإنما يدعو الى العذاب أيضا . وهو يحض على العذاب ، ويؤمن بمافيه من قدرة على التكفير . الانسان مخلوق مسؤول ، وليس عذابه عذابا بريئا وانما يرتبط بالشر ، والشر يرتبط بالحرية . ولهذا تفضي الحرية الى العذاب . وعن هذه الحرية كان دوستويفسكي معتذرا Apalojiote (أو مدافعا) ، وانه لوهم في نظره ، أن نُخَلِّص الانسان من العذاب بحرمانه من حريته . فهو ينصح الانسان بقبول العذاب ، بوصفه نتيجته الحتمية . وماقسوة دوستويفسكي إلا وجه من وجوه هذا القبول الكامل للحرية ، ونستطيع ان نوجه اليه كلمات المفتش الأكبر : « لقد أخذتَ كل ما هو ملغز ، خارق ، غير محدد ، كل مايتجاوز قوى الموجودات ؛ وبهذا تصرفت وكأنك لاتحبهم » . وهذا الذي هو خارق ملغز ، غير محدد ، يرتبط بالحرية اللامعقولة للانسان . ودوستويفسكي يرى في العذاب علامة على كرامة أعظم ، وسمة للمخلوق الحر . والعذاب نتيجة للشر . بيد ان الشر لا يُسْتنفد الا بالعذاب . ولهذا يمر أبطال دوستويفسكي بالمطهر والجحيم : ليقودهم من بعد الى اعتاب الفردوس وهو أقل قابلية للرؤية من الجحيم .

سبيل الحرية قد افضى بالانسان إذن الى الشر . وفي الشر يصاب الانسان بالازدواجية . وهي ازدواجية صورها دوستويفسكي بعبقرية : وهنا تقوم كشوفه الحقيقية التي أذهلت علماء النفس وأطباءه . ويبدو أن الأشياء تتكشف للفنان العظيم بأسرع مما تتكشف للعالم ، وفي وقت مبكر . الحرية اللامحدودة ، العابثة ، التي انحلت الى تعسف الحرية بلا اله ، الخالية من الفضل الالهي ، لا تعود قادرة على الاختيار ، بل انها تتمزق في اتجاهات مضادة . وفي هذه اللحظة يصاب الانسان بالازدواج ؛ وتظهر فيه ثنائية « الأنا » ، وتنشق شخصيته . وجميع أبطال دوستويفسكي ، راسكولنيكوف ، وستافروجين ، فرسيلوف وايفان كارامازوف ، شخصيات مزدوجة منقسمة على نفسها . فقد فقدوا جميعا وحدة شخصياتهم ، والحياة التي يحيونها مزدوجة على نحوما . وفي الطرف الآخر من الازدواجية تنفصل عن الانسان « الأنا » الأخرى ، وتتشخص ، بحيث ترمز الى الشر الباطني ـ الى الشيطان . وقد صور دوستويفسكي هذه المرحلة بقوة لم يسبق

Twitter: @ketab_n

لها نظير في الكابوس الذي أصاب ايفان كارامازوف ، في حديثه مع الشيطان . قال ايفان للشيطان : « أنت تجسيد لذاتي ، لجانب واحد ، وكذلك لأفكاري ، ومشاعري ... الأكثر وضاعة والأشد غباء . » « أنت ذاتي نفسها ، ذاتي نفسها ، ولكن برأس اخرى . » « أنت لست شيئا بنفسك ، انت أنا ، ولاشيء أكثر من ذلك . أنت لاشيء انما أنت من صنع خيالي . » وليس الشيطان عند دوستويفسكي هو ذلك الجني الجميل المغرِّر الذي يظهر « في شعاع أحمر ، مرعدا يتطاير منه الشرر ، وله أجنحة من نار » . كلا انه « جنتلمان أشيب على شيء من السوقية ، وله نفس خادم ، ويحلم بالتجسد على هيئة بائعة بدينة تزن سبعة أطنان ! » انه روح العدم التي تتربص بالانسان . الشر عند ايفان كارامازوف هو المبدأ السمردياكوفي . والحس المشترك هو الذي منع الشيطان من الايمان بالمسيح والهتاف بتمجيد الله . و « الروح الاقيلدية » عند ايفان كارامازوف قريبة الشبه بذلك الحس المشترك ، وحججه اقرب ماتكون الى الحجج التي يسوقها الشيطان . وهذا الشيطان موجود بالنسبة لكل الشخصيات المزدوجة عند دوستويفسكي ، وان تكن مرئية لهم بصورة أقل مما هي عند ايفان . و « الأنا » الاخرى للانسان المزدوج هي روح اللاوجود وهي تمثل فقدان الماهية نفسها للشخصية . وفي هذه « الأنا » الثانية تتبدى الحرية الخاوية ، بلا مضمون ، حرية العدم . المثل الأعلى لـ « سودوم » لايعدو أن يكون « شبح الحياة » أو وهم العدم . وقد تحول شخص مثل سفيدريجائيلوف Svidri gailov الذي استسلم نهائيا لهذا المثل الأعلى - الى شبح حقيقي ، ولم يعد فيه بعد ذلك أي أثر للشخصية . وهنا يتبدى العدم المباطن للشر . ولا خلاص للازدواجية الا في الحرية الثانية ، حرية الفضل الالهي ، الحرية في الحقيقة ، في حضن المسيح . ولكي تصل الازدواجية الى نهايتها ، ولكي يتلاشى كابوس الشيطان ينبغي أن يتحقق الاختيار الحاسم ، إختيار الوجود الحقيقي . وسنرى أن الحب يُلْقي بالانسان في الازدواجية نفسها ، كما ستتبدى فيه العناصر ذاتها .

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس

الحب

Twitter: @ketab_n

تتتابع مؤلفات دوستويفسكي كلها في جو من العاطفة العاصفة المحرقة . فمن ذلك التيار المعقَّد للطبيعة الروسية ، استخلص العنصر العاطفي الشهواني وجلاَّه . وهذا عمل لانجد له نظيرا عند أي كاتب آخر في بلاده . والاتجاه العنصري الغامض الذي تكشف في الجماهير بواسطة الطائفة الصوفية التي عرفت بأسم Chlisty هذا الاتجاه تعقب دوستويفسكي آثاره حتى في الطبقات المثقفة . وهو تيار ديوينزوسي . والحب عند دوستويفسكي ديوينزوسي صرف . وهو يمزِّق الفرد ، وبطل دوستويفسكي قُدِّر عليه العذاب حتما . والحب بالنسبة اليه انفجار بركاني ، وانطلاق لكل القوى الوجدانية الكامنة في طبيعة الانسان . مثل هذا الحب لايعرف القوانين ، ولايعترف بالشكليات . وبتأثير اندفاعته التي لاتقاوم ، تصأَعد أعماق الطبيعة الانسانية نفسها الى السطح . وتلك النزعة الدينامية التي تعد السمة المميزة في مؤلفات دوستويفسكي لانجدها في أي مكان ، ابرز منها هنا ؛ لهيب وحركة ؛ نار متأججة وملتهمة ؛ ولكنها نار لاتلبث أن تتحول الى برودة الجليد . ويبين لنا دوستويفسكي احيانا الرجل العاشق وقد سقط في انعدام ثلجي للحساسية ، وأصبح بركانا خامدا ، بعد ان استنفد كل حرارته وحماساته .

ويجهل الأدب الروسي النماذج السامية من الحب التي تصورتها أوروبا الغربية . وليس عنده ما يشبه الحب الذي تغنى به التروبادور Troubadours او الحب الذي كان بين تريستان وايزولده ، او بين دانتي وبياتريس ، او بين روميو وجولييت . وتلك الرابطة المتبادلة بين موجودين والعبادة الغرامية للمرأة ، هذا كله زهرة رائعة تولدت عن الحضارة المسيحية لأوروبا . أما روسيا فلم تعش هذه الفروسية chevalerie ، ولم يكن عندها فرسان كالتروفير Trouvieres ومن هنا نشأت فجوة روحية لاسبيل الى اصلاحها فجوة تضفي على كل مظهر روسي للحب طابعا فيه الكثير من المشقة والعناء والكثير من الكآبة ، بل ومن القبح في كثير من الأحيان . لم يكن في روسيا اذن تلك الرومانسية الحقيقية للحب ـ فالرومانسية هي في واقع الأمر ظاهرة من ظواهر أوروبا الغربية .

Twitter: @ketab_n

ويحتل الحب مكانا هائلا في مؤلفات دوستويفسكي ، ولكنه ليس مكانا مستقلا . وليس للحب ثمن في حد ذاته ، كما انه لايتمتع بنمط خاص به : فهو موجود هنا لكي يكشف للانسان عن طريقه المأساوي ، ولكي يقوم كرد فعل للحرية الانسانية . وبالتالي ، فإن الدور الذي يلعبه الحب في مؤلفات دوستويفسكي مختلف تمام الاختلاف ، على سبيل المثال ـ عن الدور الذي يلعبه عند بوشكين حب تاتيانا Tatiana وعند تولستوي حب آنا كارينينا . والعنصر النسائي نفسه مُتَصَّور فيها على مستوى آخر . فالمرأة لاتظهر أبدا بوصفها شخصية مستقلة . وسنرى أن دوستويفسكي يهتم بها ، حسب بوصفها لحظة في مصير الرجل ، وخطوة على طريقه . فعلم الانسان عند دوستويفسكي علم ذكوري . Masculine والنفس الانسانية هي قبل كل شيء ـ في نظرة ـ المبدأ الذكوري . أما المبدأ الانثوي ، فهو الموضوع (الجواني) لمأساة الانسان ، وغوايته (الجوانية) . فما هي اذن صور الحب التي تركها لنا دوستويفسكي ؟ حب ميشكين Muichkine وروجوجين Rogojine لناستاسيا فيليبوفنا Nastia Philippovna وحب ميتيا كارامازوف لجروشنكا grouchenka ، وحب فرسيلوف Versilov لكاترين نيقولايفنا Catherine Nicolaivna وحب ستافروجين لكثير من النساء . ولكننا لا نجد في أي موضع شخصية جليلة ، نمطا أنثويا له قيمة خاصة في حد ذاته . الرجل هو وحده الذي يكابد دائما المصير الفاجع . وما المرأة سوى التعبير (الجواني) عن هذا المصير .

ويميط دوستويفسكي اللثام عن العنصر المأساوي الذي لامخرج منه للحب ، والاستحالة التي تصادف الموجودات في تحقيقه ، وتحقيقه في الدروب التي خَطَّها التنظيم المعتاد للحياة . الحب عنده قاتل ، كما هو قاتل عند الشاعر تيوتشف . Tioutchev

« أواه ! يالها من طريقة قاتلة تلك التي بها نحب ! وكأننا في العمى الذي تصيبنا به العواطف الجامحة ندمِّر ـ بأشد الطرق توكيدا ـ أعز الأشياء الى قلوبنا . »

ولايصور دوستويفسكي مافي العواطف من سحر أو ماتنطوي عليه الحياة

Twitter: @ketab_n

العائلية من جمال وهو لا يعرض علينا الحب الأسمى الذي يفضي الى الاتحاد التام الى الاندماج . وسر الزفاف لاينفد . ودوستويفسكي يتناول الفرد في لحظة معينة من مصيره تكون فيها دعائم وجوده قد انهارت جميعا . ويظل الحب عنده العلامة المأسوية على الازدواجية الانسانية . ولما كان هذا العنصر في أعلى درجة من الدينامية ، فأنه ينشيء حوله جوا من النيران ، ويثير طائفة من العواصف : ولكنه لايكون أبدا غاية في ذاته . فلاشيء يُكْتسب بالحب ! اذ هو اعصار يؤدي الى الدمار . ولماذا ؟ لأنه مظهر من مظاهر الطغيان الانساني ؛ ومن حيث هو كذلك فأنه يمزق الشخصية الانسانية ويشقها إثنتين . وهنا نلمس الموضوع الأساسي في مؤلفات دوستويفسكي ، نلمس المصير الفاجع للانسان ، ومصير الحرية الانسانية . وما الحب الا لحظة من هذا المصير . قلنا المصير الانساني ، ولكنه في واقع الأمر مصير راسكولنيكوف ، وستافروجين ، وكيريلوف ، وميشكين ، وفرسيلوف ، وديمتري وايفان وآليوشا كارامازوف ، ولكنه ليس مصير ناستاسيا فيليبوفنا ، او آجلاييه Aglae أو ليز lise أو اليزابيث نيقولاييفنا Elesabeth Nicolaievna أو جروشنكا أو كاترين نيقولاييفنا . ونقول مرة اخرى ، ان المرأة صعوبة عبر المصير الرجولي فلا ينبغي ان نبحث عند دوستويفسكي عن عقيدة « الأنوثة الابدية » . والتوقير الخاص الذي يبديه تجاه الأرض التي نستمد منها غذاءنا وإزاء العذراء لا يرتبط عنده على اي نحو من الانحاء بالصور الأنثوية التي يبدعها خياله ، وبتمثلاته للحب . وربما حاول في شخصية وحيدة هي شخصية مارى تيموفييفنا Marie Timofeievna العرجاء التعبير عن شيء خاص ، وان كان النقاد يغالون عادة في هذا الموضوع ويقولون ان شخصية العرجاء كانت أقل أهمية عند دوستويفسكي من شخصية ستافروجين . ومهما يكن من أمر فأن دوستويفسكي لم ينقب في أعماق شخصية نسائية كما فعل تولستوي بالنسبة لأنا كارينينا أو بالنسبة لناتاشا Natacha فلم تكن أنا كارينينا شخصية وهبت حياة خاصة حسب ، بل كانت هي الشخصية الرئيسية في الكتاب . أما ناستاسيا فيليبوفنا وجروشنكا فلم تكونا (عند دوستويفسكي) سوى قوتين ، تيارين يجذبان من يواجههما من

Twitter: @ketab_n

الرجال . ولم يكن دوستويفسكي قادرا على أن يعيش في صحبة بطلاته ، كما كان تولستوي يعيش معهن . وكان اهتمام دوستويفسكي ينصب عليهن من حيث علاقتهن بالرجل ، على الطريق الذي يوضعن فيه بوصفهن غواية ، او عاطفة . ولم تكن الطبيعة الشيطانية للمرأة تهم دوستويفسكي الا من حيث انها تثير الشهوة الذكورية ، ومن حيث أنها تدفع الرجل الى ازدواج الشخصية . فالرجل يظل منحصرا في ذاته ، ولايهرب صوب وجود آخر ، صوب الوجود الأنثوي . وفي داخله تدور دراما العاطفة وليست المرأة الا الموضوع الذي يمكن ان نسميه هذا التنظيم للحسابات الجوانية .

ولما كان المصير الانساني عند دوستويفسكي هو مصير الشخصية ، مصير العنصر الشخصي في المخلوق البشري ، ولما كان هذا العنصر الشخصي يتطور ـ وفقا له ـ في الرجل بخاصة ، فاننا لا نستطيع أن نتعقب مصير الشخصية الانسانية بواسطة سيرة نفس أنثوية . والرجل يتقيد بالمرأة عن طريق العاطفة : غير ان هذه العاطفة تظل ـ ان صح هذا التعبير ـ مسألة بينه وبين شخصه ، بينه وبين مزاجه العاطفي الخاص . ولا تجمعه عاطفته أبدا بالمرأة المختارة . واذا كان دوستويفسكي قد صوّر الطبيعة الانثوية عليلة دائما ، ممزقة دائما ، فربما كان ذلك راجعا ـ عنده ـ الى انها تحمل عبء هذا الفراق الأبدي عن الرجل . ودوستويفسكي يؤكد هذا العنصر المأسوي الذي لامنفذ منه للحب . ويأبى الاعتقاد كما يعتقد المتصوف الكبير يعقوب بيمه gacob Boehme ، ومثل غيره ايضا ـ أن التعبير النهائي عن الطبيعة البشرية هو الانسان الذي تجتمع فيه الطبيعتان الذكرية والانثوية Landrogyne . والموضوع الذي أراد بيانه هو أن المرأة تمثل مصير الرجل . أما هو نفسه ، فقد ظل غريبا على الطبيعة الانثوية ، ويعترف حتى قرارة نفسه بهذه الثنائية . والموجود الانساني في نظره ـ ليس هو الخنثى Landrogyne وانما الانسان[1]

* * *

(١) يعني « الانسان » بجنسيه الذكر والانثى . (المترجم)

Twitter: @ketab_n

وفي مأساة روح الانسان ، تجسِّد المرأة حالة الازدواجية . ذلك ان الحب الجنسي .. الشهوة تعني بالنسبة للطبيعة الانسانية فقدان وحدتها وهذا هو السبب الذي يجعل الشهوة مُدَنِّسة . فالطهارة لا تتحقق الا في الوحدة . والفسق هو ايضا الانحلال . ودوستويفسكي يقود الفرد عبر تعرجات الازدواجية التي تصيب شخصيته . والحب عنده يتحلل الى عنصرين ؛ ولكي يجعل هذين العنصرين محسوسين بصورة أوضح ، يقول ان العاشق يكاد يحب دائما موضوعين في آن واحد . انه حب مزدوج ، ثنائية في الحب . وقد عبَّر دوستويفسكي عن هذا بقوة لانظير لها ؛ فهو يكشف في الحب عن مبدأين ، تيارين ، هاويتين سوف يتردى فيهما الفرد : هاوية اللذة الحسية ، وهاوية الشفقة . ولأن الحب يصدر في وقت معا عن الشهوانية المشبوبة ، وعن الشفقة الحادة ، فأنه يبلغ دائما ـ عند دوستويفسكي ـ الأطراف القصوى . وهنا يصبح موضع اهتمام دوستويفسكي ، لان الحب المعتدل لاقيمة له عنده وما أراده هو متابعة التجارب على الطبيعة البشرية ، واختبار عمقها بوضع الفرد في ظروف استثنائية . والحب يزدوج عند دوستويفسكي كما يزدوج الموضوع المحبوب ايضا . فلا وجود لأية وحدة في الحب ولا وجود لأي كمال فيه . ولايمكن أن يكون الأمر على خلاف ذلك على طريق التعسف هذا لأن الطبيعة البشرية عندما تتمزق بين اتجاهين متعارضين تجازف بفقدان شخصيتها نفسها في هذه الازدواجية . والحب ـ الشهوة ، والحب ـ الشفقة ، وهما طرفا الازدواجية لايعرفان الاعتدال ، ولايخضعان لأي مبدأ أعلى ، فهما يستنزفان الفرد ويحيلانه الى رماد . اذ يميز دوستويفسكي في أعماق الشفقة نفسها آثارا من اللذة الحسية . وليس الانسان المتمتع بوحدته هو الذي تفضي به الشهوة الى الهذيان ، وانما الانسان المزدوج ، وهذه الازدواجية ، هذا التمزق ، لاتمده الشهوة بوسائل التغلب عليها . ويحمل الانسان في ثنايا حبه ازدواجيته الخاصة . بيد ان الحب يسحبه بدوره الى ضياعه بأن يمزقه على القطبين المتعارضين . ولن يجد الانسان ابدا بواسطة الحب وحدته وتكامله الضائعين ، لن يجدهما ابدا سواء بواسطة

Twitter: @ketab_n

شهوانيته اللامتناهية ، او بواسطة شفقته اللامتناهية ، ولن يصل بهما ابدا الى التواصل مع الموضوع المحبوب ، حيث يتمكن وجوده بهذا التواصل وحده من ان يعثر على نفسه متكاملا . كلا ، سيبقى وحيدا ألعوبة بين أصابع شهواته المتناقضة ، وهناك يستنزف قواه .

ونستطيع ان نتصور أن الحب الذي يجعل الانسان يمر بمثل هذه الدورة يكاد يكون عند دوستويفسكي شيطانيا دائما ؛ وعنه تتولد سيطرة الفكرة الثابتة (أو مايسميه دوستويفسكي Obcession) التي ترفع حرارة الجو المحيط الى درجة حرارة الصلب المتوهج . وليس المحبون وحدهم هم الذين يتحولون الى مجانين ، بل ان الوسط المحيط بهم يتعرض لعدوى جنونهم . فالحب العنيف الذي يشعر به فرسيلوف نحو كاترين نيقولاييفنا يخلق جوا من الخبل ، ويترك جميع الشخصيات التي تحيط به في حالة من التوتر المفرط . والموجات العاشقة التي تنبع من ميشكين وروجوجين الى ناستاسيا فيليبوفنا وآجلاييه تكهرب الجو . وغرام ستافروجين وليزا تهب منه اعاصير جهنمية . أما حب ميتيا كارامازوف وايفان ، لجروشنكا وكاترين ايفانوفنا فأنه يؤدي الى الجريمة ، ويفضي الى الجنون . وهذا الحب لايجد عنده ابدا وفي أي موضع ـ الراحة والسكينة ، ولا ينتهي ابدا الى فرحة الاتحاد الشامل . لا اشراق ابدا في الحب ، وانما على العكس ـ نستشف منه دائما رؤية التعاسة ، والعنصر المظلم المدمِّر ، والمعاناة والحب ـ كما سبق ان رأينا ـ لا يساعد الانسان أبدا على التغلب على ازدواجيته بل على العكس ـ إنه يعمل على تعميقها . وهناك دائما امرأتان ، وكأنهما يرمزان الى تيارين شهوانيين ينطلقان من حبهما لتخوضا صراعا لارحمة فيه وتحطم كل منهما الاخرى ، في الوقت الذي تحطم فيه الآخرين . وهكذا تتصدى ناستاسيا فيليبوفنا وآجلاييه كل منهما للاخرى في « العبيط » وجروشنكا وكاترين ايفانوفنا في « الاخوة كارامازوف » وثمة شيء لارحمة فيه في تنافس هاتيك النسوة وصراعهن . صراع وتنافس نجدهما ايضا في « الممسوسون » و « المراهق » وان يكن ذلك بصورة أقل اثارة للاتهام . واذا كانت الطبيعة الذكورية مصابة بالازدواجية ، فإن طبيعة المرأة أشد

Twitter: @ketab_n

من ذلك غموضا ، وكأنها تحتوي على هوة يمكن ان يسقط فيها الرجل : ولكن لا يوجد فيها أي أثر للأم المباركة أو للعذراء المبرورة . والخطأ هنا يقع كله على عاتق الرجل وحده . فهو الذي انتزع نفسه من المبدأ الانثوي ، واعرض عن الأرض الأم ، عن براءته الخاصة ، أعني عن طهارته ووحدته ، وسلك سبيل الخطأ والازدواجية . وهاهو الآن يتبين أنه بلاحول ولا قوة أمام هذا المبدأ الانثوي . ستافروجين لا حول له ولا قوة امام ليزوشرومونوجكا Chromonojka فرسيلوف لاحول له ولا قوة أمام كاترين نيقولاييفنا ؛ ميشكين لاحول له ولا قوة ازاء ناستاسيا فيليبوفنا وأجلاييه ، ميتيا كارامازوف لاحول له ولا قوة حيال جروشنكا وكاترين ايفانوفنا ... رجال ونساء ظلوا منفصلين بعضهم عن البعض الآخر انفصالا مأسويا ، وأخذ بعضهم يعذّب البعض الآخر . والرجل عاجز عن السيطرة على المرأة ، وهو لايفهم الطبيعة الانثوية ، ولا ينفذ الى سرها . ولايبصرها الا عابرة حياته بوصفها تجسيداً لازدواجيته الخاصة .

ويحتل موضوع الحب المزدوج حيزا كبيرا في مؤلفات دوستويفسكي ودراسته مهمة بوجه خاص في « العبيط » ففيها يحب ميشكين ناستاسيا فيليبوفنا واجلاييه في وقت معا . وميشكين موجود طاهر ، ذو طبيعة ملائكية ، لم يدركه تيار الشهوانية المزعج . ومع ذلك ، فأن حبه حب مريض ، اصابته الازدواجية ، وقدر عليه على نحو فاجع ان يظل بلا مخرج . بل ان موضوع حبّه يزدوج هو الاخر . والحق ، ان هذه الازدواجية الكامنة في قرارة نفسه تصدمه بالمبدأين المتناقضين . فهو عاجز عن الاتحاد مع ناستاسيا فيليبوفنا او اجلاييه ، وغير مهيء بماهيته للزواج ، للحب الزواجي . وجمال اجلاييه يأسره ، وهو على استعداد لخدمته كالفارس الشهم . ولكن اذا كان ابطال دوستويفسكي الاخرون يعانون من افراط في الشهوانية ، فأن ميشكين يعاني من حرمان تام منها . فهو لا يملك حواس الرجل السليم ، وعاطفته تفتقر الى اللحم والدم .

وبقدر اكبر من القوة ينمو عند القطب المضاد للحب وهو الشفقة فيحب ناستاسيا فيليبوفنا في حنان وعطف لامتناهين . بيد ان ذلك العطف يتضمن في ذاته مبدأ

Twitter: @ketab_n

مدمرا ، اذ يحقق به ميشكين طغيانه ، وينتهك حدود ماهو مباح للانسان . وهوة شفقته تبتلعه ، وتضيعه . هذه العاطفة الناقصة المتولدة عن ظروف نسبة تماما على هذه الارض ، اراد ان تنقله الى مستوى الحياة الابدية . لقد اراد ان يفرض على الاله شفقته التي يشعر بها ازاء ناستاسيا فيليبوفنا . وباسم هذه الشفقة ينسى واجباته نحو شخصيته ذاتها . ذلك لان هذه الشفقة لاتحقق الامتلاء بالنسبة اليه ولأنه لايعطى نفسه كلها لهذا الشعور ، كلا ، فالازدواجية تضعفه . وفي هذه اللحظة عينها يستمر في حب أجلاييه ، حبا مختلفا تماما . وهنا يبين دوستويفسكي كيف ان عاطفة منحرفة ، عاطفة تحمل في طياتها الدمار ، لا الخلاص ، يمكن ان تستحوذ على كائن طاهر كائن ملائكي . ونحن لا نجد في حب ميشكين اية اندفاعة صوب موضوع فريد كامل نحو اتحاد شامل : وهذه الشفقة اللامتناهية المدمرة للموجود ، لايمكن تصورها الا ازاء مخلوق لن يوحدنا معه المصير ابدا . ولما كانت طبيعة ميشكين ممزقة على هذا النحو ، فهي طبيعة ديونيزوسية ايضا .. ولكنها ديونيزوسية من نوع خاص ، صامت مسيحي . ونحن نراه مستغرقا باستمرار في نشوة صامته وكأنه في غبطة ملائكية . وربما نبعت شقاواته جميعا من انه اكثر مايكون شبها بالملائكة ، ومن انه غير مهيء للوضع الانساني ومن انه لم يكن رجلا سويا تام الرجولة . ولهذا ينبغي الا يدرج ميشكين في عداد النماذج التي اراد بها دوستويفسكي التعبير عن وضع الانسان . وفي آليوشا عرض دوستويفسكي الموجود المتكامل الذي وان لم يجهل شيئا عما هو ارضي ـ والذي يحمل في طوايا نفسه الشهوات الجامحة التي تصطخب في صدر الانسان ، الا انه وصل الى التغلب على ازدواجيته ، والفرار نحو النور : وهذه شخصية ، ربما لم تكن من اكثر الشخصيات نجاحا عند دوستويفسكي . وعلى العكس ، لا يمكن ان تعد شخصية ميشكين العالية على ماهو ارضي ـ والتي نجهل الكثير من ملامحها الانسانية الصرف ـ وكأنها قد حلت جانبا من جوانب المأساة الانسانية . ذلك ان مأساة الحب انتقلت عنده الى المستوى الابدى ، واخذت هذه المأساة طابع الابدية بما في شخصيته من سمات فائقة على الطبيعة . ودوستويفسكي يخلع على ميشكين موهبة مدهشة على التنبؤ . فهو يتنبأ بمصير

Twitter: @ketab_n

هؤلاء الذين يحيطون به ، وينفذ الى اعماق نفوس النساء اللواتي يحبهن قادرا على التوفيق في وجوده التنبؤي بين افكار العالم الحي وافكار عالم ماوراء الطبيعة . بيد ان موهبة التنبؤ هذه كانت القدرة الوحيدة التي يسيطر بها على الطبيعة الانثوية ؛ فهو لم يكن قادرا ايضا على امتلاكها والاتحاد معها . وقد رأينا ان النساء ـ عند دوستويفسكي ـ اما ان يثرن الشهوة ، او الشفقة ، وقد يحدث ان امرأة واحدة بعينها تثير عند رجال مختلفين هذه الحركات المتباينة : وهكذا تثير ناستاسيا فيليبوفنا شفقة لا متناهية عند ميشكين وتثير في راجوجين شهوانية عارمة . وسونيا ام المراهق تستدر الرحمة . اما جروشنكا ، فتقيم رابطة حسية . وكذلك كانت العلاقات بين فيرسيلوف وكاترينا نيقولاييفنا علاقات حسية ، وان يكن في الوقت نفسه يحب زوجته بدافع من الشفقة وهذه الشهوانية نفسها تشيع في العلاقات بين ستافروجين وليز ، ولكن بصورة متدهورة ، او كأنها مكتومة الانفاس ولكن لا الشهوانية ، ولا الشفقة ، تستطيع بقوتها الذاتية وحدها ان تجمع المحب وموضوع حبه . وسر التواصل العاشق لايكمن في الشفقة وحدها ، او في الشهوانية وحدها ، وان كان لكل من هذين العنصرين نصيبه في الحب . بيد ان هذا التواصل العاشق ، هذه الهبة التي تفضي الى الزواج ، لايعرفها دوستويفسكي : فهو لايعرف اندماج روحين في روح واحدة ، وجسدين في جسد واحد . ولهذا ، كان الحب عنده ـ منذ البداية مآله الاخفاق .

* * *

التفسير الذي يقدمه دوستويفسكي للحب في رواية « المراهق » متجسدا في حب فرسيلوف لكاترينا نيقولاييفنا ، تفسير مهم بوجه خاص . ذلك ان حب فرسيلوف مرتبط بازدواجية شخصيته . كما أن فيه أيضا ازدواجية في الحب : فمن ناحية نجد حبه الشهواني الذي يشعر به نحو كاترينا نيقولاييفنا ، ومن ناحية اخرى نجد حب ـ الشفقة حيال أم المراهق . ولن يكون هذا الحب بالنسبة إليه وسيلة للهرب خارج حدود « أناه » والالتفات صوب « أنا » اخرى والاتحاد بها ؛ كلا انه يبدو كمسألة داخلية بين فرسيلوف ونفسه او كحساب عليه ان يسويه مع

Twitter: @ketab_n

مصيره الخاص . وشخصية فرسيلوف ملغزة في نظر الجميع ؛ ثمة سر في حياته . وفي « المراهق » وكذلك في « الممسوسون » وفي كثير من مؤلفات دوستويفسكي الاخرى ، تتكون العملية الادبية عند دوستويفسكي في البدء بالحركة بعد ان تكون قد جرت في حياة ابطاله واقعة ذات اهمية خاصة ، ويكون لها تأثير على سلسلة طويلة من الاحداث . وكان الحدث الهام في رواية فرسيلوف قد وقع في الماضي في الخارج ومايتتابع تحت اعيننا هو النتائج فحسب . وتلعب المرأة دورا كبيرا في حياة فرسيلوف . والناس يعاملونه على انه « نبي من اجل النساء » بيد انه مابرح أقل استعدادا للحب الذي يؤدي الى الزواج من ستافروجين نفسه ؛ والحق انه أحد اقرباء ستافروجين القريبين ، وهو نفسه ستافروجين وديع تام النضج . ومن الخارج ، يبدو هادئا ؛ وكأنه بركان خامد . ولكن تحت هذا القناع من الهدوء الذي يبلغ حد اللامبالاة بالاشياء جميعا ، تختفي في الواقع عواطف جياشة . وحب فرسيلوف الخفي العاجز عن ايجاد مخرج ، يُلْهب الجو حواليه ويثير العواصف وهذه العاطفة المستسرة تغمر جميع الشخصيات الاخرى في الهذيان . وهكذا يُفْسد الاستعداد الداخلي لشخصية ما ، حتى وان لم يكن قد عُبِّر عنه ـ الوسط المحيط كله ، وهذا مايحدث دائما عند دوستويفسكي . فالشخصيات المحيطة بفرسيلوف تعاني في لاشعورها تأثير هذه الحياة الباطنية الفذة . ولاتنفجر عاطفة فرسيلوف الا عند الاقتراب من انفراج الازمة ؛ فهو يرتكب سلسلة من الأعمال الطائشة التي تكشف عما تعانيه حياته الباطنة من اضطراب . ويُعَد اللقاء بين فرسيلوف وكاترين نيقولاييفنا وما اعقبه من تفسير في نهاية الكتاب ، يُعَدُّ ، من أروع عروض العاطفة العاشقة . كلا ان البركان لم يكن قد خمد تماما . وحمم النيران الكامنة تحت الأرض ، والتي اشاعت في الكتاب كله جوا خانقا ، اخذت تندفع اخيرا بسرعة فائقة . قال فرسيلوف لكاترين نيقولاييفنا : « سوف أضَيعِّك » كاشفا على هذا النحو عن العنصر الشيطاني في حبه . وهذا الحب الذي يشعر به فرسيلوف حب بلا أمل وبلا منفذ . ولن يعرف أبدا خفايا الاتحاد وسره . وسيبقى فيه الرجل منفصلا الى الأبد عن المرأة . وليس معنى هذا ان شعوره لن

Twitter: @ketab_n

يكون متبادلا ؛ ذلك ان كاترين نيقولاييفنا تبادل فرسيلوف الحب . فاذا كان هذا الحب بلا أمل ، وبلا منفذ ممكن فينبغي الآ نلتمس السبب الا في عدم قابلية الطبيعة الذكورية للنقاذ Impeinetrabrilite ، وفي عجزها عن الخروج الى « نفس » اخرى اثناء ازدواجيتها . وشخصية ستافروجين الخارقة تغوص هي ايضا ، وتضيع نهائيا بسبب هذه العزلة ، وتلك الازدواجية .

وقد درس دوستويفسكي مشكلة الشهوانية الى اقصى مداها . فالشهوانية تؤدي الى الفجور،الذي يعد ظاهرة تنتمي الى المجال الميتافيزيقي لا الى المجال الفيزيائي . وتعسف الارادة يتمخض عن الازدواجية ، التي تلد هذا الفجور حيث تفقد الشخصية الانسانية وحدتها . والفجور هو في الوقت نفسه التجزئة Morcellement . والانسان المزدوج ، المتجزىء ، الفاسد ، ينغلق في « أناه » ويفقد كل قدرة على الاتحاد مع موضوع آخر . بل ان الأنا نفسها تبدأ في التحلل ؛ ولا يعود الشخص الذي يبحث عنه في الحب شخصا مختلفا عن نفسه ، ولكنه يبحث عن الحب وحده . بيد ان الحب الحقيقي هو الحب الذي نشعر به تجاه شخص آخر ؛ والفجور هو حب الذات . وهذا التوكيد للذات يفضي الى تدمير الذات . لأن الاندفاع نحو شخص آخر ، وفي التواصل مع شخص آخر ، تتدعم الشخصية الانسانية . اما الفجور فعلى العكس من ذلك ـ انه اعمق انعزال يمكن أن يغوص فيه المخلوق الانساني ، انعزال تصاحبه برودة قاتلة . انه جاذبية العدم ، الهاوية التي تقود الى العدم . والشهوانية نهر من النيران . ولكن ، عندما تصبح الشهوانية فسقا يخمد التيار الملتهب ، وتتحول الشهوة الى برودة الجليد . وقد عرض دوستويفسكي هذه العملية في قوة مذهلة . وفي شخصية سفيدريجائيلوف نشهد الانحلال الانطولوجي (الوجودي) لشخصية انسانية ، وتحطيم هذه الشخصية بشهوانية جامحة تنتهي الى فجور خالع العذار . وكان سفيدريجائيلوف ينتمي فعلا الى عالم اللاوجود الوهمي ، وشخصيته تنطوي على شيء لا انساني . بيد أن الفساد يتولد دائما عن الطغيان ، عن التوكيد الكاذب للذات ، ونتيجة لأن الانسان ينغلق على ذاته ، ولا يسعى الى فهم موجود آخر .

Twitter: @ketab_n

وكانت شهوانية ميتيا تحمل شيئا من الحرارة ، ففي صدره مـازال ينبض قلب انساني حار : فهنا لم يكن فسق آل كارامازوف قد بلغ بعد هذه المنطقة من البرودة الثلجية التي ليست الا حلقة من حلقات الجحيم الدانتي . أما عند ستافروجين ، فقد فقدت الشهوانية كل حرارتها ، وخمدت النار ، وحلت مكانها برودة قاتلة . ومأساة ستافروجين هي مأساة شخصية عظيمة ، موهوبة بصورة استثنائية ، تُسْتَنْزف في تطلعات حمقاء ، دون رادع ، ودون اختيار ، ودون قاعدة . وحين استسلم لطغيان الارادة ، فقد كل ملكة للتمييز . وهذه الكلمات التي يوجهها الى داشا Dacha ، في رسالة عُثر عليها بعد وفاته تشيع فيها رنة قلق . كتب قائلا :

« جرَّبت قوتي في كل مكان .. وعندما وضعتها موضع الاختبار سواء من أجل نفسي ، او لأنني أريد أن أتباهى بها ، وجدتها في كـل مناسبـة ، اليوم أو بالأمس ، وجدتها دائما لامحدودة .. ولكن ، فيم يمكن استخدام هذه القوة ، هذا مالم أبصره أبدا ، ولم أبصره حتى الآن .. ومازالت قادرا ، كما شعرت بذلك من قبل ، على ان أريد تحقيق عمل طيب ، وأن أشعر بالرضا .. وقد مارست الفسق على نطاق واسع ، واستهلكت فيه قوتي ؛ ولكنني لا أحب الفسق ، ولم ارده .. وأنا لاأستطيع أبدا التنازل عن حُكْمي والاعتقاد في فكرة الى الحد الذي يمكن ان يعتقد فيه كيريلوف . كما لاأستطيع حتى أن أنشغل الى هذه الدرجة بالافكار . »

وللمثل الأعلى للخير والشر ؛ لصورة المـادونا ، وهـاوية سـودوم .. نفس الجاذبية بالنسبة إليه : وهذا العجز عن القيام باختيار ، هو بالضبط علامة على هذا التغرب عن الحرية ، عن هذا التدمير للشخصية ، اللذين تولدا عن الطغيان ، وعن الازدواجية الانسانية . وقد علَّمنا مصير ستافروجين أن اشتهاء الأشيـاء جميعـا دون تمييز ، ودون الاكتـراث بـالحـدود التي تحـدد معـالم الشخص الانساني ـ هذا الاشتهاء يعادل عدم الاشتهاء على الاطلاق ، والقوة اللامحدودة التي لا تنزع الى أية غاية ، تعادل الضعف التام . وينتهي ستافروجين بشبقيته العارمة التي لا موضوع لها ، الى عجز جنسي حقيقي ، الى عدم القدرة المطلقة على حب أية امرأة . ذلك أن الازدواجية تنخر في الشخصية . غير أن هذه الازدواجية لاسبيل الى التغلب عليها الا بواسطة الاختيار ، الا بواسطة حب يعرف الانتقاء ،

Twitter: @ketab_n

حب يتطلع الى غاية محددة ، سواء كانت هذه الغاية هي الله ، باستبعاد الشيطان ، أو كانت هي « المادونا » ، باستبعاد « سودوم » أو كانت في نهاية الأمر إمرأة معينة ، فريدة ، باستبعاد القطيع الذي لاحصر له من الأخريات . والفسق هو الاستحالة المطلقة للقيام بالاختيار بين الغوايات التي تجتذبك ، انه نتيجة غربة الحرية ، واتزان الارادة ؛ وهو السقوط في العدم نتيجة للافتقار الى الشجاعة اللازمة للحفاظ على حقيقة وجوده . الفسوق بالنسبة للكائن الانساني يمثل الخط الذي يلتقي به بأقل مقاومة . ومن المستحسن تناول هذا الفسق ، لا من وجهة نظر أخلاقية ، ولكن من وجهة نظر أنطولوجية (وجودية) . وهذا هو ما فعله دوستويفسكي .

ومملكة آل كارامازوف هي مملكة الشهوانية . وليس معنى هذا أن هذه الشهوانية كانت مركّزة على موضوع فريد هو ما يؤلف جزءا في كل حب حقيقي . كلا : انها شهوانية مزدوجة ، هي الفسق ، حيث يتجسد المثل الأعلى للشر . والشخصية الانسانية منعدمة ، عند آل كارامازوف ؛ وآليوشا ، هو وحده الذي يستطيع أن يجدها ، بواسطة المسيح . فلو تُرك الانسان لقواه الخاصة ، لما استطاع إنقاذ نفسه من هاوية العدم .

أما فيدور بافلوفتس كارامازوف العجوز فقد فَقَد نهائيا امكانية الاختيار بحرية . ذلك ان المبدأ الأنثوي بتجسداته التي لاحصر لها ـ قد استحوذ عليه جميعا ، وأخضعه لسيطرته . فلم تعد هناك ـ بالنسبة له ـ « نساء شائهات» أو « دميمات » : حتى اليزابث سمرديانتشايا Elisabeth Smerdiatchaia كانت امرأة في نظره ... عند هذه الدرجة المتطرفة يختفي تماما مبدأ الفردية ، وتنمحي الشخصية . بيد ان الفجور الذي يقتل الشخصية ليس مبدأ أوّليا ؛ اذ يفترض أن يوجد قبله تغيير عميق في صرح هذه الشخصية ، فهو بالفعل تعبير عن التحلل ، وثمرة الطغيان وتوكيد الذات . وللحفاظ على كلٍّ من هذين المبدأين (الفردية والشخصية) ينبغي على الانسان أن يتواضع أمام مبدأ أعلى من « أناه » . والشخصية ترتبط بالحب ، ولكنه الحب الذي ينزع الى التواصل مع شخص

Twitter: @ketab_n

آخر . وعلى العكس يكون الحب الذي لا يتجاوز حدود « الأنا » الخاص هو الحب الذي يولّد الفجور : وعبثا تنفتح هاوية الشفقة ـ وهي القطب الآخر للحب ـ لأن هذه الشفقة لا تنقذ الشخص الانساني ، ولا تخلّصه من شيطان شهوانيته ، لأنها هي نفسها شهوانية . ولما كانت شعورا ناقصا ، شطرا مبتورا من الحب المزدوج ، فإنها ليست تلك السَّوْرة الشاملة Elan Total صوب انسان آخر تستطيع أن تجد فيه الشخصية وحدتها . وليس من شك أن الشهوانية وكذلك الشفقة ، هما التياران الأبديان اللذان لا يمكن أن يقوم الحب بدونهما : شريطة أن تُنْفق الشهوة والعطف بحساب ، وأن يبررهما الموضوع المحبوب . وينبغي بخاصة أن ينير هذين التيارين إدراك وجه المحبوب في الله ، أعني بواسطة التواصل في الله مع الشخص المحبوب . هذا هو الحب الحقيق . بيد ان دوستوفسكي لم يعرض علينا أبدا تحققا سعيدا للحب : وحتى آليوشا واليز ـ الزوج الوحيد الذي تصوره بروح متفائلة ـ لا يرضينا أبدا . كلا ، على المرء ألا يلتمس لديه المثل الأعلى للمادونا ، المثل الأعلى للخير . ولكنه أضاف رافدا هائلا الى دراسة الطبيعة الفاجعة للحب : وفي هذا كان رائدا بحق .

* * *

المسيحية هي دين الحب . وعلى هذا النحو الجوهري فهمها دوستويفسكي وفي تعاليم الستارتس Starets (الراهب) زوسيما ، وكذلك في الخواطر الدينية الأخرى المتناثرة في مؤلفاته ، نتنفس نفحة من مسيحية القديس يوحنا . اذ يرى دوستويفسكي أن المسيح الروسي هو أولا وقبل كل شيء رسول الحب اللامتناهي . بيد ان التناقض المأسوي الذي كشف عنه دوستويفسكي في صميم الحب الجنسي ، يبين انه موجود أيضا في الحب ذي النزعة الانسانية Humanitaire في الحب الاجتماعي . ذلك أن حب الانسان لأخيه الانسان ، وللانسانية ، يمكن أن يكون حبا كافرا ، غريبا تماما عن المسيحية . وفي صورة المستقبل المذهلة التي وضعها دوستويفسكي على لسان فرسيلوف ، يتعانق البشر ويحبون بعضهم بعضا ، لأن فكرة الاله العظيمة ، وفكرة الحياة الأبدية اللتين كانتا تساندانهم ، قد غشيتهما الظلمة . يقول فرسيلوف للمراهق : « أنا أتصور ـ ياصديقي العزيز ـ أن

Twitter: @ketab_n

الصراع قد انتهى . وبعد اللعنات والصفير والوحل ، عادت السكينة ، وبقى الناس وحدهم ، كما كانوا يرغبون : وتلك الفكرة العظيمة التي راودتهم في الماضي قد هجرتهم ؛ ومصدر القوة العظيمة الذي استمدوا منه طويلا الغذاء والدفء قد اختفى كما تتوارى شمس هائلة في خلفية لوحات كلود لوران Claude Lorrain . فكأنه اليوم الأخر للبشرية . وبغتة أدرك الناس أنهم سيبقون وحدهم ، وأحسوا فجأة أنهم يتامى تماما . أي طفلي العزيز ، إنني لم أستطع أن أتصور الناس أبدا على أنهم كائنات جامدة مخبولة . فهاهم الناس المهجورون يتضامون على الفور بعضهم الى البعض الأخر في مزيد من الالتحام والحنان ؛ وها هي أيديهم تتشابك ، مدركين أنهم من الآن فصاعدا يمثلون بعضهم للبعض الآخر الكون كله . ذلك أن فكرة الخلود العظيمة سوف تختفي ، ولاحلال شيء مكانها ، سيحمل البشر للعالم ، وللطبيعة ولأشباههم ، ولكل ورقة من العشب ، سيحملون ذلك الحب الزاخر الذي كانوا يكرسونه من قبل لرؤية الحياة الخالدة . سيحملون الاعزاز للأرض ، للحياة ، في حماسة ، بحيث يتعودون تدريجيا على أن يروا فيهما بدايتهم ونهايتهم ؛ سيعتزون بهما بحب خاص ، حب يختلف عن الحب السابق ؛ وسوف يلاحظون في الطبيعة ويكتشفون فيها ظواهر وأسراراً لم تخطر لهم على بال من قبل ، ذلك انهم يبصرون العالم بعيون جديدة ، كما يبصر العاشق معشوقته . وهم يستيقظون ويهرعون الى معانقة بعضهم البعض الأخر ، عارفين أن أيامهم معدودة ، وأن هذا هو كل مايملكونه . فإذا عملوا ، فإنهم يعملون من أجل الآخرين ، وكل منهم يعطي مرتبه للجميع ، ولايشعر بالسعادة الا اذا منح هذه الهبة . ويعرف كل طفل أنه يستطيع أن يجد في كلّ مخلوق أرضيّ أبا أو أما . ذلك أن كلا منهم يفكر ، وهو يتأمل الشمس الغاربة : ربما كان الغد هو يومي الأخير ، ولكن ما أهمية ذلك ؟ سيبقى الآخرون عندما اختفي من الوجود ، ومن بعدهم أبناؤهم . وهكذا لن يساندهم الأمل في لقاء بعد الموت ، وانما فكرة أن مخلوقات أخرى سوف تحل مكانهم على هذه الأرض ، مخلوقات متحابة دائما ، متعاطفة دائما بعضها مع البعض الآخر . أجل ! سوف يسارعون الى الحب لكي يقضوا في

Twitter: @ketab_n

قرارة افئدتهم على حزنهم العميق . وسيكونون مع انفسهم فخورين جسورين ، بيد أن الخجل هو الذي سيتحكم في علاقة بعضهم بالبعض الآخر . وسوف يرتجف كل منهم اذا فكّر في حياة أخيه وسعادته . وسوف يشعرون بحنان متبادل دون حرج ، ويتعانقون كالأطفال . فإذا التقوا ، ألقى كل منهم على الآخر نظرة عميقة مشحونة بالمعنى ، نظرة زاخرة بالحب والألم في آن واحد . »

لقد أراد فرسيلوف في هذه الفقرة الباهرة ، أن يتعقب لوحة الحب الذي يخلو من الاله ، الحب الذي يقف على طرفي نقيض من الحب المسيحي ، الحب الذي لايصدر عن ماهية « الوجود » وإنما عن استهزاء به ، ولا ينبع من توكيد للحياة الأبدية ، وانما عن انتهاب للّحظة العابرة من الوجود . وهذا كله لايعدو أن يكون خيالا . لأن الانسانية بغير اله لن تعرف مثل ذاك الحب ، وانما سيكون مصيرها بالاحرى هو المصير الذي وصفه دوستويفسكي في « الممسوسون » . بيد ان يوتوبيا فرسيلوف تبدو شائقة ـ على ماهي عليه ، من حيث أنها تفصيل لأفكار دوستويفسكي عن الحب . اذ لابد أن تنتهي البشرية الملحدة الى الضراوة والى الافتراس المتبادل ، ولا مناص من أن تعود بالانسان الى حالة الوسيلة البحتة . أما ان يحب المرء أخاه في الله : فإن مثل هذا الحب يؤكد في كل موجود فكرة الأبدية ؛ وهذا هو وحده الحب الحقيقي ، الحب المسيحي ، المرتبط بخلود النفس ، وبتوكيد هذا الخلود . هذه هي الفكرة الجوهرية عند دوستويفسكي : الحب الحقيقي مرتبط بالشخصية ، والشخصية مرتبطة بخلود النفس . وهذا يصدق على الحب الجنسي كما يصدق على سائر أشكال الحب الانساني . وهناك حب آخر يخاطب الانسان خارج الاله ، حب ينكر في الانسان جانبه الأبدي الذي لايمكن ادراكه الا في الله ، وهو أخيرا الحب الذي لايتجه صوب الحياة الأبدية . انه حب لا شخصي ، جماعي ، يدفع المخلوقات الى التجمع معاً حتى تصبح الحياة أقل هولا ، بعد أن فقدوا الايمان بالاله وبالخلود ، أي بمعنى الحياة . وهذا النوع من الحب هو آخر مرحلة للطغيان البشري ولتوكيد الذات . وبمثل هذا الحب ، الذي لايشارك فيه الاله ، ينكر الانسان طبيعته الروحية ، وأولوية أصله ، ويخون

Twitter: @ketab_n

الحرية والخلود . ومايشعر به نحو شبيهه من عطف ، انما يشعر به شعوره نحو مخلوق ضعيف جدير بالرثاء ، نحو العوبة بين يدي الضرورة العمياء .. هذا الشعور ما هو الا الملاذ الأخير لمثاليته التي تنمحي بعدها كل فكرة ، بل ان « العقل » نفسه يكون عرضة للضياع . بيد أن هذه الشفقة لم تعد فعْلاً شفقة مسيحية . ففي المحبة المسيحية ، يكون الناس جميعا أخوة في المسيح . والمحبة في المسيح ، هي ادراك البنوة الالهية لكل فرد ، خُلق على صورة الرب ومثاله . فعلى الانسان أن يحب الرب قبل كل شيء . هذه هي الوصية الأولى . والوصية الثانية هي أن يحب جاره . وما كان من الممكن أن يتحاب مخلوقان الا لأن الرب موجود ، أباهما المشترك . فإن ما يعزّه المرء في أخيه هو صورة الرب ومثاله الالهي . أما محبة الانسان ان لم يكن الرب موجودا ، فمعناه تأليه الانسان وتبجيله كما نبجل الرب . هذا التصور الخطر للانسان ـ الاله يتربص ليلتهم الفرد ويستعبده . محبة الانسان خارج الرب مستحيلة اذن : وهذا هو مادفع ايفان كارامازوف الى أن يعلن أن الانسان لايستطيع أن يحب جاره . ففكرة الانسان الأعلى (السوبرمان) الانسان المؤلَّه قاتلة للانسانية : أما الفكرة المضادة ، فكرة الرب الذي ينزل بين الناس ، ويصبح انسانا هذه الفكرة وحدها هي التي يمكن أن تنجده ، وأن تؤكده من حيث تطلعه الى الحياة الأبدية .

والموضوع الرئيسي في « أسطورة المفتش الأكبر » هو الحب الملحد ، الحب المضاد للمسيحية . وسوف نعود اليه مرة اخرى . وقد تناول دوستويفسكي هذا الموضوع مرارا ، وأعني به انكار الاله بأسم نزعة السعادة الجماعية Eudemonisme Sociol بأسم النزعة الانسانية الخيرة Humanitarisme باسم سعادة البشر في هذه الحياة الأرضية الخاطفة وفي كل مرة كان ينادي بضرورة اتحاد الحب والحرية . فهو يرى أن هذا الاتحاد لم يتحقق الا في شخصية المسيح . أما حب الرجل والمرأة ، ومحبة كل انسان لجاره ، فتصبح محبة فاسدة حالما يتجرد من حريته الروحية ، وحالما تنعتم فيه رؤية الخلود والأبدية . فالمحبة الحقيقة هي توكيد الأبدية .

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس

الثورة ـ الاشتراكية

Twitter: @ketab_n

يعد دوستويفسكي مصورا وفيلسوفا للمرحلة التي بدأت فيها الثورة تحت ـ الأرضية تعتمل في الأعماق الدفينة من روح الناس ، روح الشعب . فعلى السطح ، لم يكن يبدو ان شيئا قد تغيرَّ . اذ حاولت الطريقة القديمة للحياة ـ تحت الاسكندر الثالث ـ أن تتماسك للمرة الأخيرة بأن تعطي للناس رفاهية ظاهرة . بيد أن كل شيء في الطبقات السفلى كان يموج فعلا بحركة عاصفة . ولم يكن أصحاب الأيديولوجيات ، ورجال الفعل الذين يقودون هذه الحركة يفهمون هم أنفسهم أعماق العملية التي تتحقق . فليسوا هم الذين خلقوها ، وانما هي التي خلقتْهم . وليس من شك ، أنهم كانوا بحركاتهم الخارجية ، في حالة نشاط ايجابي ؛ أما فيما يتعلق بالروح ، فقد كانوا سلبيين ، ومنساقين في التيارات القائدة لهم . وكان دوستويفسكي على فهم أفضل للحركة التي تتطور ، وللغاية التي تسعى اليها . وبقدرة فذة على التنبؤ ، كان يرى القواعد الايديولوجية للثورة الروسية ـ وربما الثورة العالمية ـ في مرحلة الاعداد ، ويدرك شخصيتها . كان دوستويفسكي بنى الثورة الروسية ، بالمعنى الذي لايحتمل الجدل لهذه الكلمة ، كما ان الثورة تحققت وفقا لرؤية دوستويفسكي ؛ فقد كشف عن جدلها الباطني ، وأضفى عليها شكلا . وأدرك طبيعة الثورة ـ لا في الظروف الخارجية التي تخلق حوله واقعا تجريبيا ـ وانما في أعماق الروح ، وفي تطورها الباطني . فلم يكتب رواية « المسوسون » ، عن الحاضر بل عن المستقبل . ولم يكن في الواقع الروسي في الستينيات والسبعينيات أشخاص على شاكلة ستافروجين وكيريلوف ، وشاتوف ، وبيير فرهوفنسكي ، وشيجالييف . هذه أنماط ظهرت فيما بعد ، في القرن العشرين فحسب ، عندما أصبحت النفس الانسانية أشد تعقيدا ، وحين هبَّت على روسيا نفحات دينية . وقضية نتشاييف Netchalev التي أفادت كذريعة في الحبكة الروائية « للمسوسين » لم تكن تشبه ـ في واقعها الوجداني ـ شيئا مما صنعته الرواية . ولم يكن بيير فرهوفنسكي يشبه في شيء نيتشاييف المتعصب الرهيب ـ البطولي في الوقت نفسه . ذلك أن دوستويفسكي لم يكن يهتم بالأمور السطحية ، وكانت الأعماق هي مايريد أن يكشف عنه ، والمبادىء الاخيرة هي

Twitter: @ketab_n

مايريد أن يلقي عليه الاضواء . ومن ثم لن نستطيع أن ندركها الا في حالة الصيرورة Devenir . والواقع ان دوستويفسكي كان منصرفا بكلّيته صوب مايأتي ، صوب ماينبغي ان يتولد عن الحركة الصاخبة الباطنة التي يشعر بها مسبّقا . ونستطيع ان نعد طابع الموهبة الفنية كتلك التي يتمتع بها على انه تنبؤي . وكما كان الحال في موقفه من الشر ، ثمة تناقض عميق في وجهة نظر دوستويفسكي الى الثورة . ولم يفضح أحد كما فضح دوستويفسكي الأكاذيب والمظالم للروح التي تصنع الثورات ، اذ ميز فيها الروح الكامنة المضادة للمسيح . والادعاء بتنصيب الانسان إلها . بيد اننا لانستطيع أن نعامله بوصفه محافظا او رجعيا بالمعنى الشائع لهذين الوصفين . فقد كان ثوريا بالروح بمعنى عميق مختلف . ولم يكن هناك ـ بالنسبة اليه ـ رجوع ممكن الى التصور القديم للحياة ، كما كان موجودا قبل ظهور الروح الثورية ، أو عودة الى شكل الحياة السكونية ، الثابتة . وقد كانت لدوستويفسكي عقلية رؤياوية الى درجة لا يستطيع ان يتخيل معها مثل هذا التقهقر ، هذه العودة للشكل القديم الهادىء للحياة . وكان أول من شعر بالسرعة التي تتقدم بها كل حركة في العالم ، وكيف يتجه كل شيء الى نهاية وقد كتب في مذكراته قائلا : « ان نهاية العالم » آنية . وهذه الخيالات ليست خيالات شخص محافظ[1] . ولم تكن عداوة دوستويفسكي للثورة عداوة شخص مستقر يرتبط بمصلحة أيا كانت في التنظيم القديم للحياة ، وانما كانت عداوة شخص رؤياوي يقف في صف المسيح في صراعه الاسمى مع ضد المسيح . وهذا الذي يتجه الى المسيح في مسيرته ، صوب الصراع الأخير في نهاية الزمان ، رجل من رجال المستقبل وليس من رجال الماضي ، مثلما يكون الشخص الذي ينضم الى مسيرة ضد ـ المسيح ، والذي يقف الى جانبه في الصراع الأخير . ونستطيع ان نقول بوجه عام ان الصراع بين الثوريين وبين المناهضين للثورة يقع على السطح : والمصالح المتعارضة هي التي تجري بينها المواجهة : مصالح اولئك

---

(١) كان دوستويفكسي ثوريا بالروح ، غير ان آراءه السياسية التي كانت سطحية تقف عند ظواهر الامور ـ تركت انطباعا بانها رجعية : وهذا تناقض فيه . (١٩٤٤)

Twitter: @ketab_n

الذين نحيلهم الى الماضي ، ونستبدل بهم غيرهم ، ومصالح أولئك الذين حلوا مكانهم ، وأخذوا مقاعد الصدارة في المأدبة . أما دوستويفسكي فكان يقف بمعزل عن هذا الصراع من أجل المقاعد الأولى في هذه الدينا ، كما فعلت جميع الأرواح العظيمة تقريبا التي لا نستطيع عادة أن ندرجها في هذا المعسكر او ذاك . هل نستطيع أن نقول مثلا عن كارليل Carlyle أو نيتشه Nietzche أنهما كانا ـ الواحد او الآخر ـ « ثوريين » أم « مناهضين للثورة» ؟ من المحتمل أن يعدهما الناس ، كما فعلوا مع دوستويفسكي ـ مناهضين للثورة من وجهة نظر غوغائية (ديماجوجية) ، لهذا السبب وهو انه لابد لكل روح أن تكون عدوا لكل ما يحمل ـ على السطح ـ اسم الثورة ، وأن ثورة الروح تنكر بعامة روح الثورة . وقد كان دوستويفسكي هذا الرجل الرؤياوي الى درجة كبيرة . ولاتستطيع المعايير المعتادة للثورى والمناهض للثورة أن تلائمه . بل لقد كانت الثورة بالنسبة اليه رَدّ فعل Reaction على قدر الامكان .

رأينا ان دوستويفسكي يبين أن الحرية ، اذا انحدرت الى الاستبداد تؤدي حتما الى التمرد والى الثورة . والثورة تمثل المصير المحتوم للانسان الذي انحط عن أصوله الالهية ، والذي جعل من حريته طغيانا لا جدوى منه ، وتمردا . والثورة لا تعرّف بالعلل والظروف الخارجية ، ولكنها تُحَدَّد من الداخل . فهي علامة على تغير فاجع في علاقات الانسان الأصلية بالله ، وبالعالم ، وبالموجودات . ويدرس دوستويفسكي السبل التي تؤدي بالانسان الى الثورة دراسة متعمقة ، فيكتشف جدلها الباطني المحتوم . وهذه دراسة انثروبولوجية لحدود الطبيعة الانسانية ولدروب الحياة الانسانية . وما يكتشفه دوستويفكي في مصير فرد واحد ، يكتشفه ايضا في مصائر شعب ، ومصائر مجتمع . والسؤال الذي يبغي معرفة « هل كل شيء مباح ؟ » ، يوضع أمام المجتمع بأسره كما يوضع أمام الانسان الجزئي . والسبل التي تقود الانسان الى الجريمة ، هي نفسها التي تقود المجتمع الى الثورة الدامية . فهنا تجربة مماثلة ، ولحظة واحدة من لحظات المصير . ذلك ان الفرد او الشعب اذا انتهك أي منهما حدود المباح ، يفقد كل منهما ـ بالمثل ـ حريته .

Twitter: @ketab_n

ركن . ولم يتم بينهم تعارف من قبل ، وعندما يخرجون من الحانة ، تمر أربعون سنة أخرى دون أن يلتقوا . ولكن عم يتحدثون في تلك اللحظة التي اجتمعوا فيها ؟ وتتحول الحرية الى عبودية . والحرية بلا إله تحطم نفسها . وقد تنبأ دوستويفسكي بهذه العملية المحتومة التي تؤدي في الثورة الى فقدان الحرية والى التردي في عبودية لا نظير لها ، وتعقبها مقدما تعقبا عبقريا في أدق تعرجاتها . لم يكن يحب « الثورة » لأنها تفضي الى عبودية الانسان والى انكار حرية الروح . هذا هو دافعه الاساسي . لقد ناهض الثورة حبا في الحرية ، ورفض مبادءها الاساسية التي سيكون الاستبعاد من نتائجها ، والتي ستؤدي الى انكار المساواة والاخاء بين البشر ، حتى تصل الى لامساواة لم يسبق لها مثيل . ولن تصل الثورة ابدا الى الغاية التي وعدت بها . ففيها ، حل ضد ـ المسيح مكان المسيح . والناس الذين رفضوا الاتحاد بحرية في المسيح ، يتحدون ـ على العكس ـ في الروح المضادة .

* * *

كان السؤال عن طبيعة « الثورة » عند دوستويفسكي هو قبل كل شيء سؤال عن « الاشتراكية » . وقد لعبت مشكلة الاشتراكية دورا مركزيا دائما في اهتماماته . وكان يدرك أن مسألة الاشتراكية هي مسألة دينية ، وانها ليست شيئا آخر غير مسألة الله والخلود . « ليست الاشتراكية مسألة عمالية حسب ، أو ما نسميه بالطبقة الرابعة ، وانما هي بالذات مسألة الالحاد ، أو التجسد الحديث للالحاد ، مسألة برج بابل المشيَّد بلا إله ، لامن أجل الصعود من الأرض الى السماء ، وانما لانزال السماء على الأرض » . . وتعمل الاشتراكية على حل السؤال الأبدي عن الاتحاد الشامل للكائنات ، وتنظيم الملكوت الأرضي ؛ وفي الاشتراكية الروسية تتجلى بوجه خاص هذه الطبيعة الدينية للاشتراكية . الاشتراكية الروسية رؤياوية بكاملها وهي تتجه صوب مَخْرج فاجع للتاريخ . ولم تعد الاشتراكية الثورية في روسيا أبدا على أنها شكل عابر من أشكال التنظيم الاقتصادي والسياسي للمجتمع ، وانما عُدَّت دائما بوصفها حالة نهائية مطلقة ، وحلا لمصائر الانسانية ، واقترابا من تأسيس ملكوت الله على الأرض . يقول ايفان

Twitter: @ketab_n

كارامازوف : « كيف يسلك الفتيان الروس حتى الآن ؟ بعضهم على الأقل . فلنأخذ على سبيل المثال ، هذه الحانة العفنة ، انهم يجتمعون فيها ويجلسون في عن مشكلات كلية لاغير : الله ، النفس الخالدة وهل هما موجودان ؟ أما هؤلاء الذين لايؤمنون بالاله ، فيتحدثون عن الاشتراكية وعن الفوضوية ؛ وعن اعادة تنظيم البشرية وفق دستور جديد ، أسئلة تعود الى نهاية واحدة ، وان كانت نقاط البداية مختلفة . » وهنا تتجلى الطبيعة الرؤياوية لهؤلاء « الفتيان الروس » . وفي هذه الاحاديث التي تدور في اغوار الحانات العفنة بدأت الاشتراكية الروسية والثورة الروسية . وقد تنبأ دوستويفسكي بالمدى الذي لا بد ان تفضي اليه هذه الأحاديث . « كان شيجالييف ينظر وكأنه ينتظر دمار العالم ، لا على أساس تنبؤات يمكن الا تتحقق ، وانما على اساس طريقة محددة ، صباح بعد غد ، في الساعة العاشرة وخمس وعشرين دقيقة بالضبط . » وكان جميع الثوريين الروسيين ذوي النزعة المكسيمالية Maximalistes ينظرون كما ينظر شيجالييف ، تلك النظرة الرؤياوية او العدمية ، التي تنكر الطرق التاريخية ، وجهد الثقافة ومسيرتها التدريجية . وعند قاعدة الاشتراكية الروسية غُرست البذرة العدمية ، عدو القيم الثقافية وذخائر التاريخ . ولكن تحت هذا الشكل المتطرف للاشتراكية الروسية ، يسهل علينا تحديد طبيعة الاشتراكية عامة ، بأيسر مما نستطيع تحت الاشكال الأكثر اعتدالا وتحضرا للاشتراكيات الأوروبية .

والاشتراكية من حيث هي عنصر أبدي ، الاشتراكية المتكاملة التي تحل مصير المجتمع الانساني ، ينبغي الا تُستوعب داخل هذا التنظيم المادي الاقتصادي او ذاك . الاشتراكية مظهر من مظاهر الروح . وهي تدعى الانشغال بالأمور النهائية ، لاقبل ـ النهائية Pre finales ، وتريد أن تكون دينا جديدا ، وأن تلبي احتياجات الانسان الدينية .

وهي لا تبغي الحلول مكان الرأسمالية ، بل على العكس هي جسد الجسد ، ودم الدم للرأسمالية . وانما تريد الاشتراكية أن تحل مكان المسيحية ، وأن تفعل ذلك بنفسها . وهي كالمسيحية مشبعة بالروح المسياوية L'esprit messianigue ، وتزعم

Twitter: @ketab_n

أنها تحمل النبأ الطيب الذي يبشِّر بإنسانية تخلصت من تعاساتها وشقوتها . ولم يكن دوستويفسكي يعرف ماركس ، ولم تتمثل أمام عينيه الأشكال النظرية الأكثر كمالا من الاشتراكية ؛ فلم يكن يعرف في الواقع سوى الاشتراكية الفرنسية . ولكنه استطاع بنوع من البصيرة العبقرية ، أن يستشف في الاشتراكية كل مالابد أن يتحقق عند كارل ماركس وفي كل حركة ترتبط به . والاشتراكية الماركسية مبنية بحيث تظهر في مجملها على انها الطرف المناقض للمسيحية : وبين المذهبين من التشابه مايتولد عادة عن الاضداد . ومع ذلك ، فان الاشتراكية الماركسية ، حتى أكثرها وعيا ـ لاتعرف طبيعتها الخاصة حتى الأعماق ، ولاتعرف هي نفسها ـ مابقيت على السطح ـ ماهية روحها . وقد ذهب دوستويفسكي الى ابعد من ذلك وأعمق في كشفه للطبيعة المحتجبة للاشتراكية ، وفي قلب الاشتراكية الثورية ، الملحدة ، استطاع أن يميز مبدأ ضد ـ المسيح ، وروح ضد ـ المسيح . ولم يكن ذلك لانه يقف على ارض المبادىء البورجوازية ؛ بل على العكس ، لقد كان أشد عداوة للروح « البورجوازية » من الاشتراكيين أنفسهم ، الذين هم في قرارة نفوسهم سجناء هذه الروح . وكان اشتراكيا هو نفسه ، من طراز خاص ، اشتراكيا مسيحيا أرثوذكسيا ، يناهض الاشتراكية الثورية ، ملتفتا تماما صوب المدينة الالهية Cite dwine ، لا صوب تأسيس برج بابل . ولكي يحارب المرء بنجاح ضد الاشتراكية ، ينبغي عليه أن يقف على أرض الروح ، كما فعل دوستويفسكي ، لا على أرض « المصالح البرورجوازية » التي يحتفظ ضدها بحقوقه جميعا .

والمبدأ الباطني للاشتراكية المادية هو عدم الايمان بالاله ، وبالخلود ، وبحرية الروح الانسانية . ولهذا يرحب الدين الاشتراكي بالغوايات الثلاث التي نبذها المسيح في الصحراء : غواية تحويل الاحجار الى خبز ، غواية المعجزة الاجتماعية ، وغواية مملكة هذا العالم . انها ليست ديانة ابناء الرب الاحرار ، كلا ، انها تخلع عن الانسان أولويته الروحية ، وتريد ان تكون دين عبيد الضرورة ، أبناء التراب . فإذا لم يوجد للحياة معنى عميق ، واذا لم توجد

Twitter: @ketab_n

الأبدية ، لم يبق للبشر الا أن يتجمعوا بعضهم الى البعض الآخر ، كما هي الحال في يوتوبيا فرسيلوف ، وأن ينظموا السعادة على الأرض . والدين الاشتراكي يعبرّ عن نفسه في هذه الكلمات التي اعلنها المفتش الأكبر : « سيكون الجميع سعداء ، ملايين الكائنات البشرية ... » « سنجعلهم يعملون أما في أوقات فراغهم ، فسوف ننظم وجودهم كلعبة للأطفال ، بأناشيد طفولية ، وكورس ، ورقصات بريئة . أوه ! وسنبيح لهم حتى الخطيئة .. فهم ضعفاء الى أقصى حد ، مجردين من السلاح .. » « سوف نمنحهم سعادة المخلوقات الهزيلة ، كما هم تماما . »

ويقول الدين الاشتراكي ايضا لدين المسيح : « أنت تزهو بأفرادك من الصفوة ، ولكنك لا تملك الا هؤلاء المصطفين ، أما نحن ، فاننا نحمل العزاء للكائنات جميعا .. ولن يأتي معنا الا السعداء . وسنقنعهم بأنهم لن يكونوا أحرارا ، الا اذا تنازلوا عن حريتهم . » ان دين الحب السماوي دين ارستقراطي .. دين المصطفين ، « عشرات الآلاف من العظماء الأقوياء » أما دين « ملايين الآخرين ، الضعفاء الذين لاحصر لهم ، كحبات الرمل في البحار » ، فهذا هو دين الخبز الارضي .[٢] انه يكتب على رايته : « اطعموهم ، ثم اطلبوا منهم بعد ذلك ـ لا قبل ذلك ـ أن يكونوا فضلاء . » والانسان الذي غرَّر به هذا الدين الاشتراكي ، اشترى بحريته الانسانية وهم خبز هذا العالم . وممثلو دين الاشتراكية ، يصورون تغلبهم على الحرية في سبيل ان يجعلوا الناس سعداء ـ على انه مزية » . « ... لم يكن ثمة شيء في أي مكان او زمان أثقل على البشر وعلى المجتمع الانساني من الحرية . ولكن هل ترى هذه الاحجار في تلك الصحراء القاحلة المحرقة ؟ حوِّلها الى خبز ، وستهرع البرية خلفك ، مثلما يفعل قطيع وديع معترف بالجميل ، وان ظل مرتجفا الى الأبد . » ثم يقول الدين الاشتراكي للمسيح في نهاية الأمر : لقد رفضت راية المطلق الوحيدة التي منحت لك ، الراية التي كان الجميع سيأتون اليك تحتها راكعين أمامك دون مناقشة ، راية خبز هذا العالم ؛

---

(٢) لم يبرهن دوستويفسكي برهانا كافيا على ان مسألة الخبز الأرضي ينبغي ان تحل بالنسبة للمجتمعات البشرية فالانسان لايستطيع ان يعيش على الأرض بالخبز السماوي وحده . (١٩٤٤)

Twitter: @ketab_n

ولكنك نبذتها باسم الحرية وباسم الخبز السماوي .. وانا أقول لك ان ما من همٍّ أشق على الانسان من ان يجد شيئا يستطيع ان يشريه بهذه الحرية التي ولد بها هذا المخلوق التعس » . وعلى هذا النحو يعرض هذا الدين هدفه قبل كل شيء ، وهو محاربة الحرية ، حرية الروح الانسانية التي تولِّد في الحياة مبدءا لامعقولا ، وآلاما لا حصر لها . ويرى هذا الدين ان الحياة ينبغي ان تُخْتزل في عملية خالصة Mette لاتترك باقيا فهو يريد اخضاعها للعقل الجمعي . ومن أجل هـذا ، لايجد ملجئا آخر سوى الاجهاز على الحرية . ولكنه ، لكي يجرِّد الناس من هذه الحرية ، فلابد من ان يغريهم بتحويل الحجارة الى خبز . والانسان تعس ، ومصيره فاجع ، لأنه وهُب حرية الروح . عليك ان تجبره على التنازل عن هذه الحرية ، وان تكسبه الى جانبك بوهم الخبز الارضي ، عنـدئذ سيكـون من الممكن تأسيس السعـادة الأرضية للبشر . وقد رأينا فعلا في « الروح تحت ـ الأرضية » ان الجنتلمان « ذا السحنة المتخلفة المستهزئة » يرى انه ممثل للعنصر اللامعقول في الحياة ، ذلك العنصر الذي يفسد تنظيم الانسجام والسعادة الاجتماعيين ، لأن فيه تختمر تلك الحـرية الأوليـة للانسان التي هي اغـلى عنده من خبـزه اليومي . وهنـا يقوم دوستويفسكي بكشف على اكبر جانب من الاهمية بالنسبة للفلسفة الاجتماعية . ذلك ان عذاب البشر ، وافتقار الكثيرين منهم الى هذا الخبز اليومي ـ لا يأتي في نظر دوستويفسكي من ان الانسان يستغل أخاه الانسان او من ان طبقة تستغل طبقة أخرى ، وانما يأتي من ان الانسان وُلد مخلوقا حرا ، روحا حرَّة . والمخلوق الحر يؤثر ان يتعذب ، وأن يُحْرم من الخبز اليومي على ان يفقد حرية الروح ، وان يستعبده الخبز الارضي . وحرية الروح الانسانية تفترض حرية الاختيار ، حرية الخير والشر ، ولكنها تفترض بالتالي ـ ضرورة المكابدة في الحياة ، واللامعقولية ، ومأساة الحياة . وهنا ـ كما هو الحال دائما عند دوستويفسكي ـ يُسْفر عن نفسه جدل محتجب . ذلك ان حرية الروح الانسانية هي حرية الشر ، وليست حريـة الخـير وحده . بيـد ان حريـة الشر تؤدي الى الاستبـداد والى التوكيـد الذاتي للانسان . والاستبداد يولِّد التمرد ، والثورة على منبع الحرية الروحية ذاتـه .

Twitter: @ketab_n

ويصل الاستبداد الذي لايكبح جماحة شيء الى انكار الحرية والانفصال عنها . وهذا الاستبداد ، وهذا التوكيد للذات ، الذي يضع حدا لحريته ، هما ماتجسده الاشتراكية . الحرية عبء ، وطريق الحرية هو طريق الصليب . والانسان في تمرده الواهن يثور على هذا العبء . وهكذا تنحل الحرية الى عبودية ، الى قهر . فكيف يمكن الخروج من هذه النقيضة ، من هذا التناقض المعقَّد ؟ لم يكن دوستويفسكي يعرف غير مَخْرج واحد : المسيح . ففي المسيح ، تتلقى الحرية الفضل الالهي La grnce ، وتتحالف مع المحبة اللامتناهية ، ولاتستطيع من بَعْد ان تتحول الى ضدها ، أي أن تصير قهرا . وعلى العكس من ذلك ، تقوم يوتوبيا السعادة الاجتماعية ، والكمال الاجتماعي ـ عند دوستويفسكي ـ باختزال الحرية الانسانية ، وتقتضي الحد منها . وعلى هذا المنوال تسير الأمور في مذهب شيجاليف وفي مشروعات بيير فرهوفنسكي ، ونظرية المفتش الأكبر الذي يتستر تحت القناع الخارجي للكاثوليكية ، ولكنه يدعو في الحقيقة الى الدين الاشتراكي ، الى دين الخبز الارضي ، والى مملكة النمل الاجتماعية . ودوستويفسكي ناقد قوي لمذهب السعادة الاجتماعي ، وهو يبرهن على مافيه من شيء قاتل للحرية .

وهذه فكرة يعود اليها دوستويفسكي في مواضع شتى ، واعني بها فكرة الرابطة القائمة بين الاشتراكية والكاثوليكية . فهو يرى في الكاثوليكية ، وفي الثيوقراطية (الحكم الالهي) البابوية ، نفس الغواية الموجودة في الاشتراكية . فالاشتراكية في نظرة ليست سوى كاثوليكية علمانية . ولهذا السبب كُتبتْ أسطورة المفتش الأكبر » التي سنعود اليها في فصل خاص ـ ضد الاشتراكية وضد الكاثوليكية في آن واحد . وأميل الى الاعتقاد بأنها كُتبت ضد الاشتراكية اكثر من كونها موجهة ضد الكاثوليكية التي لا تتبدى الا في شكلها الخارجي . وذلك لأن افكار المفتش الأكبر تتطابق على نحو مذهل مع أفكار فرهوفنسكي وشيجاليف وغيرهم من ممثلي الاشتراكية الثورية في مؤلفات دوستويفسكي . وقد كان دوستويفسكي مقتنعا بأن البابا سيتحالف في نهاية الأمر مع الشيوعية لأن الفكرة البابوية والفكرة الاشتراكية هما تصور واحد بعينه للتنظيم القسري للملكوت

Twitter: @ketab_n

الارضي . وهو يرى ان الدين الكاثوليكي والدين الاشتراكي ينكران حرية الوعي الانساني على حد سواء . وقد امسكت الكاثوليكية بسيف القيصر وانتشت بقوة ارضية . وبملكوت ارضي . وهكذا دفعت شعوب اوربا على الطريق الذي لابد ان يقودها الى الاشتراكية . ويقول دوستويفسكي في « يوميات كاتب » : « لقد كانت فرنسا دائما ومازالت ـ من خلال الثوريين الذين اقاموا الجمعية التأسيسية la Convention ، وملحديها واشتراكييها ، وشيوعييها في الوقت الحالي ـ كانت دائما ولاتزال بلد الكاثوليكية بلا منازع ، معلنة على لسان ملحديها الصرحاء : الحرية ـ والاخاء ـ والمساواة او الموت ، تماما كما يمكن ان يعلنها البابا نفسه اذا أجبر على اعلان وصياغة حرية ـ واخاء ـ ومساواة كاثوليكية فهذه هي كلماته ، روحه ، الكلمات الحقيقية والروح الحقيقية لبابوات العصر الوسيط . وليست الاشتراكية الفرنسية الحالية سوى التابع الأمين المباشر للفكرة الكاثوليكية ، وتعبيرها الكامل النهائي ، ونتيجتها المحتومة التي طورتها القرون . ذلك لأن الاشتراكية الفرنسية هي في جوهرها بالنسبة للانسان الاتحاد القسري ، وهي فكرة موروثة عن روما القديمة وحافظت عليها الكاثوليكية فيما بعد بقضها وقضيضها . » والكاثوليكية كما يراها دوستويفسكي (وان لم يعرفها تمام المعرفة) ، هي حاملة الفكرة الرومانية القائلة بنزعة عالمية قائمة على القهر ، وباتحاد عالمي قسرى بين البشر وبتنظيم لحياتهم الأرضية . وهي فكرة تقوم أيضا عند أساس الاشتراكية ، وتنكر ـ سواء هنا او هناك ـ حرية الروح الانسانية . وفي كل مرة ينادي المبشرون بدين الملكوت الارضي ، والخبز الارضي ، تُعَطَّل الحرية عن العمل . وقد كانت الثورة الفرنسية بالنسبة لدوستويفسكي تنويعا وتجسيدا جديدا للصيغة الرومانية القديمة عن « الاتحاد » العالمي . وهذه الصيغة ينبغي ان تسود ايضا على الثورة الاجتماعية . التي أحس بها مسبقا وتنبأ بها . واذا كان دوستويفسكي على استعداد للوقوف الى جانب المانيا البرتستانتية في الصراع الذي نشب في اوروبا ، فما ذلك إلا لكي يتمكن ـ على نحو افضل ـ من هزيمة الكاثوليكية والاشتراكية ، والفكرة الرومانية عن الاندماج الضروري بين الكائنات . وفي

Twitter: @ketab_n

عصره كانت الاشتراكية قد تطورت بخاصة في فرنسا ؛ وقد رأينا أن دوستويفسكي لم يعرف بعد الديمقراطية ـ الاشتراكية التي تطورت في المانيا ، كما كان يجهل الماركسية تماما . وهذا ما جعل كثيرا من احكامه في هذه المسائل ـ تشيخ وتهرم . ونحن لانستطيع من جهة اخرى أن نطابق بين العالم الكاثوليكي الكبير ـ المتنوع والذي يتمتع بثراء فاحش ، وبين أوهام الفكرة الثيوقراطية (الحكم الالهي) واتجاهاتها . فهذا العالم الكاثوليكي انجب القديس فرانسوا الأسيس Francois d'Asise والقديسين العظام والمتصوفة ، كما عرف فكرا دينيا معقدا الى مالا نهاية ، والحياة المسيحية الحقة . وكذلك لم تتجنب الارثوذكسية الشرقية ماأصاب الفكرة القيصرية البيزنطية من تشويهات ؛ فلسنا نجد فيها ايضا حرية الروح التي كشف عنها دوستويفسكي في المسيحية . ومهما يكن من أمر ، فقد أراد ان يبين وجود تماثل صارخ بين هذين المبدأين المتضادين : الكاثوليكية والاشتراكية . ففي رأيه ان الدولة الاشتراكية ليست دولة علمانية ، ولكنها دولة طائفية ، كالدولة الكاثوليكية ، لها دين سائد : ولا يتمتع بالحيِّز غير المحدود لحقوقهم سوى أولئك الذين ينتمون الى هذا الدين . ولا تعرف الدولة الاشتراكية سوى حقيقة واحدة تريد ان تجمع تحت رايتها قسرا الناس جميعا ، دون ان تترك أية قدرة للاختيار . بيد ان الأمر كان على هذا النحو في الامبراطورية البيزنطية الارثوذكسية . وهكذا يتلاقى الأضداد . وحرية الروح الانسانية تلقى الانكار عند كلٍّ من هذين القطبين المضادين . وهو انكار لا محيد عنه ، اذا وضعت الغايات الزمنية في مرتبة اعلى من غايات السماء .

* * *

كان مذهب شيجالييف هو المذهب الذي درس فيه دوستويفسكي طبيعة الاشتراكية الثورية ونتائجها الحتمية . فهنا نجد فعلا المبدأ الذي قام بتطويره فيما بعد المفتش الأكبر ، ولكن دون ذلك الحزن الرومانسي الذي اتسم به المفتش الأكبر ، والعظمة الخاصة جدا التي ميزت شخصيته . وفي مذهب « شيجالييف » الثوري ، يتكشف عنصر من السطحية اللامتناهية . ويشرح بيير فرهوفنسكي

Twitter: @ketab_n

ماهو جوهري في هذا المذهب لستافروجين قائلا : « تسوية الجبال بالأرض ، هذه فكرة جميلة ، وليست مضحكة . ولاحاجة بنا الى العلم فهناك مايكفي منه . ونستطيع دون اللجوء الى العلم ، ان نكدس المواد لآلاف من السنين ، ولكن لا بد من تنظيم الطاعة ... والحق ان التعطش الى التعلم تعطش ارستقراطي . وما ان تظهر الأسرة او الحب ، حتى تكون قد نشأت فعلا الرغبة في الملكية . ونحن نقتل هذه الرغبة ، ونرخي العنان لادمان الخمر ، ولصنوف الافتراء والنميمة ، والوشاية والغيبة ؛ ونمنح السلطة للفسق الذي لم يسبق له نظير ، ونخنق كل عبقرية منذ الطفولة . ولنحيل كل شيء الى قاسم مشترك واحد : المساواة التامة .. الضروري هو وحده الضروري هذا هو شعار الكرة الارضية من الآن فصاعدا . ولكن لابد ايضا من ازمات ، من تشنجات ؛ ونحن ، الحكام سنقوم بتدبير ذلك . اذ ان العبيد في حاجة الى الخضوع للحكم . طاعة تامة ، لاشخصية تامة ـ غير ان شيجالييف يسمح بشغب مرة كل ثلاثين عاما ، اذ يشرع الناس جميعا في التهام بعضهم للبعض الآخر ، ـ ولكن الى درجة معينة ، وبغرض واحد هو الا يصيبهم السأم . والسأم احساس ارستقراطي » « فكل انسان ينتمي الى الجميع والجميع لكل انسان . والعبيد جميعا متساوون في العبودية .. وأول ماينبغي ان يفعل هو الحط من مستوى التعليم ، والعلوم ، والمواهب . أما المستوى المرتفع من العلم والموهبة فلا يكون متاحا الا للملكات العليا ، وهو يتطلب هذه الملكات . » بيد ان هذه التسوية العامة الاجبارية ، هذا الانتصار لقانون الانتماء L'entropie القاتل (تزايد الحرارة واعادة توزيعها المتساوي بواسطة العالم) حين ينتقل الى المجال الاجتماعي لايعني انتصار الديمقراطية . فلن تكون هناك حرية ديمقراطية . ولم تنتصر الديمقراطية أبدا في الثورات . وعلى أساس هذا التسطيح الاجباري العام ، وهذا التجريد من الشخصية ، تصبح أقلية مستبدة هي الحاكمة . يقول شيجالييف : « فاذا خرجتُ من الحرية اللامحدودة ، انتهيت الى الاستبداد اللامحدود . وأضيف مع ذلك انه لا وجود لأي حل للمشكلة العامة ، خارج ما أقترحه » . وهنا نشعر بتعصب الافتتان بفكرة باطلة ، افتتان يفضي الى الانحلال

Twitter: @ketab_n

التدريجي للشخصية الانسانية ، الى حد فقدان الوجه الانساني . ويدرس دوستويفسكي كيف تؤدي الأحلام المهوشة التي تراود الثوريين الروس ، والشباب الروسي ، الى تحطيم الوجود بكل مافيه من ثراء ، وتنتهي آخر الأمرالى أطراف اللا وجود . وكان هذا الاقتناع يضرب عنده الى جذور عميقة . اذ كان يعتقد أن الأحلام الاجتماعية ليست أمورا بريئة ، بل انها تؤلف أمراض النفس الروسية ، وهي أمراض كشف عنها دوستويفسكي، وتعقبها بالتشخيص والتنبؤ بمسارها في آن واحد .

وهؤلاء الذين يزعمون في طغيانهم واكتفائهم المتهور أنهم يحبون الانسان ويشفقون عليه أكثر مما يحبه الاله ويشفق عليه ، هؤلاء الذين يرفضون ملكوت الرب ويريدون أن يبدعوا هم أنفسهم عالما أفضل يختفي منه الشر والعذاب ؛ هؤلاء يسيرون حتما صوب ملكوت شيجاليف . اذ لن يستطيعوا في غير هذا الطريق تصحيح ما صنع الاله . ويقول الستارتس (الراهب) زوسيما : « في الحقيقية ، لايوجد لديهم من الخيال أكثر مما لدينا . وهم يعتقدون أنهم يقومون بالتنظيم وفقا للعدالة ، ولكنهم بعد ان يرفضوا المسيح ، يغرقون العالم في طوفان من الدماء .. لأن الدم ينادي الدم ، والسيف المسلول يقارعه السيف . ولو لم يوجد وعد المسيح ، لحطّم الناس بعضهم بعضا حتى يفنى آخر زوج منهم على الأرض . » أقوال مذهلة بما فيها من قوة تنبؤية .

ويقول دوستويفسكي ان انعدام الشرف والافراط في العاطفية قائمان في أساس الاشتراكية الثورية الروسية . « لقد انتشرت الاشتراكية عندنا أساسا بواسطة الافراط في العاطفية . » غير ان هذا الافراط في العاطفية هو حساسية وشفقة كاذبان . بل إنه ينتهي في كثير من الأحيان الى القسوة . يقول بيير فرهوفنسكي لستافروجين : « تعاليمنا في الأساس نفى للشرف ، وحين نعترف صراحة بانعدام الشرف ، نستطيع أن نجتذب في يسر كل انسان روسي . » فأجابه ستافروجين : « حق انعدام الشرف : ولهذا يهرع الجميع نحونا ، ولن يبقى واحد دون أن يفعل ذلك . » ويعرِّف فرهوفنسكي أيضا أهمية فيدكا كاتوجنيك وغيره من

Twitter: @ketab_n

« الأنذال الحلوين » قائلا :« هذا هو العالم الجميل الذي يمكن أن يكون نافعا جدا في الوقت المناسب ، وان كان يضيعٌ كثيرا من الوقت ، لأنه يتطلب مراقبة دائمة . » وبمزيد من التحليل لعوامل الثورة يقول فرهوفنسكي أيضا :« ان القوة الأهم ، والملاط الذي يربط الجميع ، هو الخزي الذي يشعر به من له رأي خاص . هذه قوة .. قوة تعمل ، وتحرص على هذه الغاية ، وهي ألا يحتفظ انسان في رأسه بفكرة خاصة به .. بل انه يعتبر هذا خزيا . » وهكذا تشهد كل العوامل النفسية للثورة ، أنها حتى في أسسها ومنبعها الأول ـ تنكر الشخصية الفردية ، وكيفها ، ومسؤوليتها ، وقيمتها المطلقة . فالأخلاق الثورية لاتعرف الشخصية بوصفها أساس كل تقدير ، وكل حُكْم أخلاقي . انها أخلاق لا شخصية ، تنكر كل قيمة أخلاقية للشخصية وللصفات الشخصية ، وتنكر الاستقلال الأخلاقي L'autonomie Morale ولاتعترف الا باستخدام الشخصية الانسانية على انها مجرد وسيلة ، مجرد أداة ، وهي تسمح باستخدام مثل هذه الوسيلة التي تبدو أنها جيدة بغية انتصار العملية الثورية . والثورة لا أخلاقية Amorale بطبيعتها ، فهي تقوم عبر الخير والشر . وفي هذا تشبهها الثورة المضادة كثيرا من حيث المظهر الخارجي . وباسم كرامة الشخصية الانسانية ، وقيمتها الأخلاقية يقف دوستويفسكي ضد الثورة وضد الأخلاق الثورية ، ذلك لأن الشخصية لاتلعب أبدا أي دور أخلاقي ايجابي في التيار الثوري . الثورة هوس ، وجنون . هوس وجنون يهاجمان الشخصية ، ويشلان الحرية ، ويفرضان خضوعا تاما لتيار لا شخصي لا إنساني . ولايدري موجهو الثورة أنفسهم ما هي الروح التي تسوقهم . وقد يبدو أنهم ايجابيون في ظاهر الأمر ، ولكنهم في الحقيقة سلبيون ، وروحهم خاضعة للشياطين التي انطلقت في قرارة نفوسهم . وقد أبرز جوزيف دوميستر Joseph De Maistre في كتابه « خواطر عن فرنسا » في معرض حديثه عن الثورة الفرنسية ـ هذا الطابع السلبي لزعماء الثورة . والصورة الانسانية تتغير أثناء الثورة . فالانسان يفقد حريته ، ويصبح عبدا للأرواح الأولية . ويتمرد الانسان ، ولكنه لم يعد يملك استقلاله الذاتي ، وانما هو خاضع لسلطان سيد غريب ، لا انساني ولا شخصي . وهنا

Twitter: @ketab_n

يكمن سر الثورة . وفي هذا يبدو افتقارها الى الانسانية . فالانسان الذي ينقاد لحريته الروحية ، ولقوتها الخلاقة النابعة من صفتها الفردية ، لا يستطيع أن يجد نفسه خاضعا لسيطرة التيارات الثورية . ومن هنا يأتي انعدام الشرف ، وغياب الرأي الخاص ، واستبداد البعض وعبودية البعض الآخر . ويعارض دوستويفسكي ـ بطبيعة تصوره للعالم نفسها ـ الثورة بالمبدأ الشخصي ، والقيمة الكيفية والثمن المطلق للشخصية . وهو يدحض أكذوبة الجماعية اللاشخصية واللانسانية المضادة للمسيحية ، والطابع العالمي الزائف لدين الاشتراكية .

بيد ان النزعة « الشيجاليفية » ليست هي التي تنتصر وحدها في الثورة ، وانما تنتصر أيضا النزعة « السمردياكوفية » (نسبة الى سمردياكوف إحدى شخصيات الاخوة كارامازوف ») . ذلك أن ايفان كارامازوف وسمردياكوف ظاهرتان من ظواهر العدمية الروسية ، شكلان من اشكال الثورة الروسية ، ووجهان لحقيقة واحدة بعينها . وايفان كارامازوف مظهر متطور فلسفي للتمرد العدمي ؛ أما سمردياكوف فهو مظهره المنحط التابع (أو الفرعي) . ايفان كارامازوف يتصرف على قمة الحياة العقلية ، على حين يتصرف سمردياكوف في المناطق الدنيا من الحياة . وقد وضع سمردياكوف الجدل الملحد لأخيه غير الشقيق موضع التنفيذ ، وهو يجسد عقابه الباطني . وفي الجماهير الانسانية ، وفي الجماهير الشعبية نجد الكثرين ممن هم على شاكلة سمردياكوف وايفان . ويصدق هذا القول ايضا على الثورات التي هي حركات للجماهير وللجماعات . أما الاستنباط الذي بمقتضاه يباح كل شيء فان سمردياكوف يخرجه الى حيز التطبيق . ويرتكب ايفان الجريمة بالروح ، بالفكر ؛ أما سمردياكوف فيقترفها فعلا ، كاسيا باللحم فكرة ايفان . وقتل الأب الذي يرتكبه ايفان بالفكر ، يقترفه سمردياكوف ماديا . والثورة الملحدة ترتكب حتما جريمة قتل الأب ، فهي تنكر كل صلة بنوية ، وتفصل في عنف الابن عن الأب ، مبررة جريمتها بأن الأب كان رجلا فاسدا شريرا . وهذه العلاقة القاتلة بين الأب والابن هي مايؤلف « النزعة السمردياكوفية » . وبعد أن يخرج الى حيز الفعل ، ما أضمره ايفان بالفكر ، وما

Twitter: @ketab_n

قرره في روحه ، يسأل سمردياكوف ايفان : « لقد قلت انت نفسك ان كل شيء مباح ، والآن ، ماذا يزعجك في ذلك ؟ » وهكذا كان من هم على شاكلة سمردياكوف من رجال الثورة بعد ان حققوا فعلا المبدأ الذي يبيح كل شيء ـ كانوا على حق أن يسألوا من هم على شاكلة ايفان من رجال الثورة . « والآن ، لماذا انتم منزعجون ؟ » كان سمردياكوف يبغض ايفان الذي علّمه الالحاد والعدمية . وكان من الممكن ان ترمز صلاتهم المتبادلة ـ في زمن الثورة ـ الى الصلات القائمة بين « الشعب » و « الانتلجنسيا » . وقد كانت مأساة الثورة الروسية شاهدة على المدى الذي وصلت اليه بنوءة دوستويفسكي ومؤكدة له . فذلك الخادم سمردياكوف قد ثار وأظهر بأفعاله أن « كل شيء مباح » . وفي لحظة الخطر القاتلة بالنسبة لوطنه ، سيقول : « انني أبغض روسيا كلها . » ذلك ان ماتنكره الثوة ليست الشخصية فحسب ، وانما كل صلة بالماضي . بالأسلاف ، وهي تعلن دين القتل ، لا دين البعث . وقاتل شاتوف هو النتيجة الملموسة للثورة . وهذا هو السبب الذي جعل دوستويفسكي خصما للثورة .[٣]

* * *

هناك ثلاثة حلول ممكنة لمسألة الانسجام المقبل للعالم ، وللفردوس ، وللانتصار النهائي للخير : ١ ـ الانسجام ، الفردوس ، الحياة في حضن الخير ، معطاة دون حرية الاختيار ، ودون المأساة الشاملة ، وبلا عذاب ، وبلا جهد خَلّاق ؟ ٢ ـ الانسجام ، الفردوس ، الحياة في حضن الخير ، موضوعة على قمة التاريخ الأرضي ، ومشتراه بثمن عذابات لاحصر لها ، وبدموع جميع الأجيال البشرية التي كُتب عليها الموت ، ولم تنفع الا كأدوات للمستقبل السعيد ؛ ٣ ـ الانسجام ، الفردوس ، الحياة في حضن الخير التي يصل اليها الانسان عن طريق الحرية والعذاب ، وعلى مستوى تصل اليه المخلوقات جميعا في اللحظة التي يعيشون فيها ويعانون ، أعني في ملكوت الرب . وينحّي دوستويفسكي الحلين

---

(٣) قد يكون اكثر منطقا من وجهة نظر ثورة الروح ان نرى ايضا الجانب الايجابي من الثورة . (١٩٤٤)

Twitter: @ketab_n

الأوّلين بإصرار ، لكي لايقبل الا الحل الثالث . وهناك في جدل دوستويفسكي تعقيد يجعل من العسير أحيانا أن نفهم الجانب الذي يضع فيه نفسه . ماهو الجانب الذي يتخذه في التأملات المذهلة لبطل « الروح تحت ـ الأرض » أو لايفان كارامازوف ؟ كيف يتناول ، أخيرا ، الفردوس الارضي في « رؤيا رجل مضحك » أو في اللوحة التي يرسمها فرسيلوف ؟ وحياة الأفكار عند دوستويفسكي دينامية ومتناقضة الى أقصى حد : ولا نستطيع ان ندركها بطريقة متوقفة ساكنة (استاتيكية) وان نطالبه بمجرد « نعم » او « لا » . وفي هذا التمرد للرجل تحت الأرض او لايفان كارامازوف ضد الانسجام العالمي المقبل ، ضد دين التقدم ، رأى دوستويفسكي حقيقة فعّالة ، فوقف الى جانبهما ، وتمرد معهما . وفي جدله العبقري ، أماط اللثام عن المتناقضات الأساسية في مذهب التقدم . ذلك أن طريق التقدم لايؤدي الى الانسجام المقبل ، والى السعادة الشاملة ، والى الغبطة الفردوسية الا بأولئك المحمولين على قمته . ولكنه يحمل الى الموت تلك الأجيال المتناهية التي مهدت بجهودها وآلامها لذلك الانسجام . فهل نستطيع أن نقبل من الوجهة الأخلاقية انسجاما ندفع فيه مثل هذا الثمن ، وهل يستطيع الضمير الديني والأخلاقي أن يرضى بهذا الشرط لفكرة التقدم ؟ إن صوت دوستويفسكي نفسه هو الذي يتردد في هذه الكلمات لايفان كارامازوف ، وهذا هو فكره المنفعل ذاته : « وقصارى القول ، أنا لا أقبل هذا العالم الالهي ، ومع أنني اعرف انه موجود ، الا انني أرفض قبوله . وليس الاله هو مالا أقبله ، وانما لا اقبل العالم الذي خلقه ، العالم الالهي ، ولاأستطيع أن أوافق على قبوله . وها أنذا أفسر نفسي : أنا مقتنع ، كما يقتنع الطفل ، أن الآلام سوف تنفد ، وسوف تتلاشى ، وأن كل ذلك الهزلي المهين من المتناقضات البشرية ، سوف يختفي كسراب جدير بالرثاء ، كتصور مشين للحقراء والضعفاء ، كذرة من « الروح الاقليدية » ، وأخيرا ، في نهاية العالم ، وفي اللحظة التي يتم فيها الانسجام الابدي ، سوف يظهر شيء ، يكون من الروعة بحيث يستحوذ على القلوب جميعا ، ويهدىء من الاهانات جميعا ، ويكفر عن جرائم البشر جميعا ، وعن الدماء التي سفكوها ،

Twitter: @ketab_n

لابحيث نغفر فحسب ، بل بحيث نبرر ايضا كل ما كابده البشر : كل هذا لابد ان يحدث ، فليكن ، ولكني ـ رغم هذا كله ـ لن اعترف به ، ولا اريد أن اعترف به . » « انني لم اتعذب لكي اغذّي بنفسي انسجاما مقبلا بآلامي وجرائمي . » « واذا كان لابد للكائنات جميعا أن تتعذب لتشتري بثمن عذاباتهم ، الانسجام الابدي ، فما دور الأطفال في هذا من فضلك ؟ فمن غير المفهوم على الاطلاق ان يتعذبوا وان يشتروا بعذابهم هذا الانسجام المقبل ؟ لماذا يستخدمهم هم أيضا أدوات وعَلَفاً ؟[1] » « .... أنا ارفض تماما انسجاما أعلى . فهو لايساوي الدموع ، ولو كانت دموع طفل واحد يتعذب ، ويضرب صدره بقبضته الصغيرة ، ومن قرارة كوخه الموبوء يصلي « للاله الطيب » بدموعه البريئة . انه لا يساوي هذه الدموع ، لأنها شيء لاسبيل الى التكفير عنه . وكان لابد أن يكون ثمة تكفير عنها ، ولهذا لن نحصل أبدا على ذلك الانسجام . » ويرفض ايفان كارامازوف أن يكون المهندس المعماري للمصير الانساني ، اذا كان لابد لتشييده من تعذيب ولو مخلوق واحد برىء . وهو يرفض ايضا التمييز بين الخير والشر ، لأنه يكلّف كثيرا من الشقاء . ولهذا يرد للاله « تذكرته للدخول » في انسجامه الشامل . فهل يشارك دوستويفسكي دون تحفظات في الحجج التي يسوقها ايفان كارامازوف ؟ الاجابة لا ونعم في آن واحد . ذلك أن جدل ايفان هو جدل « الروح الاقليدية » ، جدل شخص ملحد ، يرفض الاعتراف بفكر أعلى من الحياة . غير ان ايفان في تمرده ـ يفصح عن حقيقة هي حقيقة دوستويفسكي نفسه . فاذا لم يكن الاله موجودا ، لم يكن هناك مخلِّص أو تكفير ، واذا لم يكن في العملية التاريخية « معنى » مغلق ازاء الروح الاقليدية ، فلابد من رفض العالم ، ونبذ الانسجام في مسيرته ، واعتبار التقدم فكرة بغيضة . ويتجاوز ايفان كارامازوف في تمرده الانبياء المعتادين لدين التقدم والاشتراكية الثورية . اذ انه لا يرفض الاله وحده ، بل العالم نفسه . وهذا تنبؤ عبقري . فقد جرت العادة بأن فكرة الالحاد يصاحبها

---

(٤) وهنا يقول دوستويفسكي ماقاله بيلنسكي Bielinski تقريبا في رسالته الشهيرة الى بوتكين Botkine . (١٩٤٤)

Twitter: @ketab_n

تمجيد للعالم ، اذ يُؤكد العالم نفسه بقوة خاصة نظرا لأن الاله غير موجود ، ولأنه لا يوجد شيء خارج هذا العالم الارضي . وتلك الفكرة العليا التي يستبعدها الانسان من الحياة ، يضفيها على هذا الانسجام المقبل . بيد ان مايبينه لنا دوستويفسكي ، هو الحد الاقصى للتمرد ، حيث لا يرفض الاله حسب ، وانما « المعنى » الالهي للحياة . ومن ثمّ ، لابد ان يرفض الحاد « الروح الاقليدية » العالم ايضا ، وان يثور ضد الانسجام المقبل وان ينبذ الدين الأخير ، دين التقدم . وهذه اللحظة العليا للتقدم ، تأتي ـ في نظر دوستويفسكي ـ مواكبة لحقيقة ايجابية . فالتمرد قد أفضى الى اللاوجود ، الى اعدام العالم ، بأن أظهر وهم الدين الثوري للتقدم : فلم يبق غير طريق وحيد ، هو الطريق الذي يؤدي الى المسيح . وهو يقودنا الى المسيح من خلال جدله . ولهذا كان دوستويفسكي نصف منحاز الى ايفان كارامازوف . لأنه اذا كان هناك « معنى » الهي . محتجب عن « الروح الاقليدية » ، واذا كان هناك مُخَلِّص ، وكانت الحياةفي هذا العالم عبارة عن تكفير ، واذا كان الانسجام النهائي للعالم يفضي الى الملكوت الالهي ، ولا يفضي الى ملكوت هذه الأرض ، اذن فانه من الممكن قبول هذا العالم ، كما يمكن تبرير التقدم التاريخي بكل ماينطوي عليه من آلام لا حصر لها .

وعلى هذا ، فإن نمو الطغيان والتمرد لايعدو أن يكون انتحارا ، مادام يصل الى انكار النتائج التي عَمل على ايجادها منذ البداية . وقد أدى السبيل الثوري للطغيان الى دين التقدم والاشتراكية . وعند نهايته ، أزاحهما بالضرورة والتمرد على تراث التاريخ لابد ان ينحل الى تمرد على نتائجه الأخيرة ، وعلى غاياته النهائية . ولكي نبرر ونعترف بما ينبغي ان يكون ، لابد ان نبرر ونعترف بما كان . فلكل من الماضي والمستقبل مصير واحد . ولا مندوحة عن الانتصار على الزمان المنقسم الى اجزاء ، وتوحيد الماضي والحاضر والمستقبل في الأبدية . وعلى هذا النحو حسب ، يمكن تبرير عملية العالم ، كما يمكننا قبول « دموع الطفل » . فلو كان الخلود موجودا ، لاستطعنا ان نقبل مسيرة العالم . ولكن ، اذا لم يكن ثمة خلود ، فلابد من رفض هذه المسيرة . هذه هي الفكرة الاساسية عند

Twitter: @ketab_n

دوستويفسكي ، ولهذا فانه يهاجم الحل الثاني من الحلول المقترحة ، أعني الحل الذي يقدم دين التقدم بوصفه المفتاح الوحيد للانسجام العالمي . ولم يكن دوستويفسكي يستطيع قبول انسجام مقبل قائم على فقدان الحرية ، على عدم التمييز بين الخير والشر ، والا تكون مأساة العالم مشحونة بالعذاب . لا عودة هناك صوب الفردوس المفقود . وانما على الانسان ان يصل الى الانسجام المقبل عن طريق حرية الاختيار ، والانتصار الحر على الشر . أما الانسجام الاجباري فلا يمكن تبريره ، ولا جدوى منه ، اذ لايتجاوب مع كرامة جنس الهي . هذا هو مايبرهن عليه وصف الفردوس في « رؤيا رجل مضحك » . فلابد للانسان أن يقطع طريق الحرية الأليم حتى نهاية الشوط ، ودوستويفسكي يكشف عن النتائج النهائية لهذا السعي . ان تمجيد العالم وتمجيد الانسان يقودان الى الدمار ، والى اللاوجود . ومن ثم كان الانتقال محتوما صوب الاله ـ الانسان . وفي المسيح تتصالح الحرية الانسانية والانسجام الالهي . وهنا تظهر امكانية الحل الثالث للمشكلة الكونية : اذ ان مسألة الانسجام النهائي والفردوس تحل ـ في رأي دوستويفسكي ـ بواسطة « الكنيسة » . وقد كانت لدوستويفسكي يوتوبياه الثيوقراطية التي لايعارض بها اليوتوبيا الاشتراكية للفردوس الارضي حسب وانما يعارض بها ايضا يوتوبيا الثيوقراطية الكاثوليكية . مطلوب من الكنيسة ان تسود العالم . يقول الأب بابيسيوس Pere Paislus : « لاينبغي أن تتحول الكنسية ال دولة . فهذه روما وحلمها .. وهذه هي الغواية الثالثة للشيطان . وعلى العكس ، الدولة هي التي ينبغي ان تتحول الى كنسية وان تصعد حتى تبلغها ، لتصير كنسية على الأرض . وهذه فكرة تتعارض تماما مع النزعة البابوية المتطرفة L'ultramontanisme ومع روما ، كما انها تؤلف الرسالة العليا للارثوذكسية على الأرض ، ومن الشرق ينبغي ان يشع النور . » وليست الكنيسة ملكوتا بعد ، ملكوت الرب ، كما تنادى بذلك الكاثوليكية ، وفقا لما يقوله القديس أغسطين . ولكن ، في الكنيسة ، ينبغي ان يتكشف ملكوت . كشف جديد في حضن الكنيسة ، كان دوستويفسكي متطلعا اليه ، كما يتطلع صوب الشطر التنبؤي من المسيحية .

Twitter: @ketab_n

وهذا التجديد الديني ينبغي ان يظهر في الشعب الروسي ، بوصفه شعبا رؤياويا . وهذه المرحلة الجديدة من المسيحية التي تطلّع اليها دوستويفسكي ينبغي ان تتسم بحرية واخاء في المسيح . وكان دوستويفسكي يعارض بالحب الاجتماعي الحقد الاجتماعي . وكان معاديا ـ شأنه في ذلك شأن جميع الفلاسفة الدينيين الروس ـ للمدنية « البورجوازية » : كما كان عدوا لأوروبا الغربية من حيث ان هذه المدنية البورجوازية قد انتصرت فيها . ونستطيع ان نميز في البوثوبيات الثيوقراطية الخاصة عند دوستويفسكي ـ عناصر نزعة فوضوية ، وعناصر اشتراكية مسيحية خاصة ، مختلفة تمام الاختلاف عن الفوضوية وعن الاشتراكية الملحدتين . وتصوره للدولة لم يفصّل تفصيلا كاملا ، كما ان نزعته الملكية Monarchisme احتفظت بطابع فوضوي . وهذه الاحكام تفضي بنا الى فكرة نزعة مسياوية دينية ، يرتبط بها الشطر الفعّال من نظريات دوستويفسكي الاجتماعية الدينية ، كما ترتبط بها النزعة الشعبية Pepulisme الدينية للروس .

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع

روسيا

Twitter: @ketab_n

كان دوستويفسكي روسيا صميميا ، كما كان كاتبا لروسيا ، فلا نستطيع ان نتخيله خارجها . ولغز النفس الروسية يمكن أن نفك رموزه فيه ؛ فقد كان هو نفسه هذا اللغز ، وفيه تتركز متناقضاته . والغربيون يفهمون روسيا من خلال دوستويفسكي . بيد أنه لم يفعل أكثر من أن يعكس الجو المحيط بالنفس الروسية ، والتعبير عنها : كما كان مبشرا بالفكرة الروسية ، وبالوعي القومي الروسي ، متسما هو نفسه بكل نقائض هذا الوعي القومي وانحرافاته : بالتواضع والصلف ، بالتعاطف العالمي ، وبالوطنية المتزمتة . وعندما ألقى دوستويفسكي خطابه الشهير عن بوشكين ، استخدم هذه العبارات موجها كلامه الى مواطنيه : « تواضع ، ياأيها الانسان المتكبر » ولم يكن هذا التواضع الذي يدعو اليه مجرد تواضع ، فقد كان يعتبر الشعب الروسي أشد شعوب الأرض تواضعا ، بيد أنه كان فخورا بهذا التواضع . وكان هذا في الواقع هو موطن الكبرياء عند الروس . وكان دوستويفسكي يرى ان الشعب الروسي هو الشعب « حامل الرب » Porteur De Dieu شعبا فريدا في نوعه . والوعي بهذه المسياوية المتفردة لاتتلاءم مع التواضع . **وكان هذا هو شعور وعقلية الشعب العبري اللذان بعثا فيه .**

وموقف دوستويفسكي من أوروبا تتخلله المتناقضات أيضا . فسنرى أن دوستويفسكي كان مواطنا أوروبيا حقيقيا ، يحترم آثارها وأشياءها المقدسة وأنه قال عن أوروبا أشياء مذهلة لم يقلها غربي أبدا . وبهذا الموقف تتجلى النزعة العالمية للنفس الروسية ، كما تتبدى قدرة الروسي على ان يعيش مكتفيا بنفسه ، وأن يُدخل في حوزته كل ما هو عظيم في العالم . بيد ان دوستويفسكي ينكر ـ من جهة اخرى ـ ان شعوب اوروبا كانت شعوبا مسيحية ، ويصدر على اوروبا حكما بالاعدام . كان في صميمه شوفينيا (وطينا متطرفا) ، وفي احكامه على الشعوب الاخرى ، كالشعبين الفرنسي والبولندي ، **وكذلك على اليهود بعامة** ـ كثير من الحيف . ذلك ان شعور الروس ووعيهم بأنفسهم أفضيا بهم دائما أما ان ينكروا بعنف كل ما هو روسي ، وارتكاب الطلاق مع الوطن ، الأرض الأم ، او على العكس توكيده بشده وبتعصب يبدو معه ان الشعوب الاخرى تنتمي الى جنس ادنى . لم

Twitter: @ketab_n

يكن الشعور القومي عندنا متزنا على الاطلاق او متسما باليقين الهادىء الذي يخلو من التمزق والهستيريا . فلنقرر ان الأمر على هذا المنوال عند اعظم عبقرية لدينا : عند دوستويفسكي ، فلم يبلغ الوعي القومي عنده الى مرحلة الرجولة الروحية ، والى الاتزان ، بل على العكس ، كان مصابا بالمرض ، بالمرض القومي الروسي .

ولابد أن نفهم ان تركيب النفس الروسية شديد الخصوصية وانه يختلف تمام الاختلاف عن مثيله الغربي . فثمة عالم هائل يتكشف في الشرق الروسي يمكن ان يكون متعارضا مع الغرب كله ، ومع الشعوب الاوروبية جميعا . وارهف الناس حساً من الغربيين يفهمونه جيدا ، وهذا اللغز الذي يكتنف الشرق الروسي يجتذبهم . وروسيا سهل شاسع بمساحات لا متناهية ، وعلى وجه هذه الارض ، لن تجد ملامح غائرة ، او حدودا ؛ ولن تعثر فيه على تعقيد الجبال او الوديان ، كما لن ترى فيه أي حد يرسم الشكل الخاص لكل منطقة . والسيولة الروسية موزعة على طول السهل ، فهي تسيل في اللامتناهي . وجغرافية الارض الروسية تتطابق مع جغرافية روحها . وهكذا لم تكن الطبيعة الجغرافية غير تعبير رمزي عن الحالة النفسية لشعب : كما أن كل ما هو خارجي ليس الا رمزا على ما هو باطني ، رمزا للروح . وهذه المساواة التي تتمتع بها الارض الروسية ، واتساعها اللامحدود ، وأبعادها اللامتناهية ، وماتتسم به عناصره من اللاتحدد ـ يرمز لما تتسم به النفس الروسية من مساواة ، وتماثل لا متناه ، وخضوع متطابق لتيار قومي يخلو من الوضوح والدقة . وهذا كله يجسد طبيعة الانسان الروسي . ذلك لأن المصادفة ليست هي التي ارادت ان يعيش شعب على هذه الارض او تلك ، ووسط هذه الطبيعة او تلك . فهناك صلة باطنة بينهما .. بل ان الطبيعة والارض ذاتهما تتحددان بواسطة الاتجاهات الاساسية للروح القومية ، فالسهول الروسية ، والوهدان الروسية ، ليست سوى رموز على النفس الروسية . وفي تركيب هذه الارض جميعا ، نحس بالصعوبة التي يصادفها الانسان الذي يريد ان يقهرها وان يضفي عليها شكلا ويخضعها للحضارة ، والانسان الروسي خاضع لسيطرة طبيعته لسيطرة ارضه ، وعناصره . وهذا هو الحال في نفسه لايسيطر الشكل على

Twitter: @ketab_n

المضمون ولايسمو به العنصر الجسدي والحسي فوق الروح . والصعوبة التي يلقاها في اخضاع ذاته لنظام هي التي تميز الانسان والارض في آن واحد . فالنفس تتناثر في السهل الذي لاتحده الحدود ، وتضيع في الأبعاد اللامتناهية . اللامتناهيات والأبعاد هي التي تجتذبها . فهي لاتستطيع ان تحيا في حدود ، وان تحاط بمعالم واضحة ، وفي مناطق حضارية متمايزة ؛ واذا كانت تتطلع من ثم الى ما هو متطرف نهائي فذلك لأنها تجهل هذه الحدود ، هذه المعالم ، ولأنها لا تصادف الحواجز التي يفرضها التنظيم ، سواء في حياتها ، او في عناصرها . انها نفس رؤياوية بطبيعتها وتركيبها ، حساسة حسب للجو الصوفي والرؤياوي . فهي لا تشيد قلعة كما يصنع الانسان الاوروبي ، معتصما بنظام ديني وحضاري . ولكنها تطفو صوب الآفاق التي تناديها وخاصة صوب ذلك الأفق البعيد حيث تعتقد أنها تبصر نهاية العالم . وما من نفس ايسر انخلاعا عن جذورها ، وأكثر استسلاما للعواصف التي لاسبيل الى مقاومتها من النفس الروسية . ان في هذه النفس حاجة الى الهيام على وجهها في سهوب البلاد الروسية . وانعدام الشكل ، وضعف النظام يلغيان عند الروس كل غريزة حقيقية للبقاء ؛ فهم يحطمون انفسهم ، ويستهلكونها في لاشيء ويتلاشون في الفضاء .

قال الشاعر أ بييلي A . Biely في قصائده الرائعة التي كرسها لروسيا :

« سوف تتلاشين في الفضاء ، سوف تتلاشين ، أي روسيا ، روسيا وطني العزيز ! »

والنفس الروسية قادرة على ان تصل الى النشوة بضياعها ذاته . وما أقل الاشياء التي تحمل لها توقيرا ، أو ترتبط بها ارتباطا قويا . فهي ليست مرتبطة بالحضارة ، التي صاغها العُرف والعادة ، كما هو شأن النفس الغربية الاوروبية . والانسان الروسي يجتاز دون عناء كل أزمة حضارية ، بل انه لم يعمل بعد على تثبيت حضارته الحقيقية . ولهذا كانت النزعة العدمية مميزة لروسيا أصدق التمييز . والروسي ينصرف بقلب لا يثقله شيء عن العلم ، وعن الفن ، عن الدولة وعن البيت ، وهو يتمرد على الروابط التي تقلت اليه ، ويتطلع الى مملكة

Twitter: @ketab_n

المجهول ، الى الاشياء البعيدة التي لا تبصرها العين ، والنفس الروسية على استعداد لخوض تجارب متطرفة تعجز عن خوضها النفس الاوروبية الاكثر تشكلا ، وتميزا ، والمصوغة بواسطة الحدود ، والمقيدة بتقاليد جنسها . والتجارب الروحية التي وصفها دوستويفسكي لايمكن ان تقع الا في النفس الروسية . فقد درس امكانياتها اللامتناهية . وعلى العكس من ذلك ، فأن حدود النفس الاوروبية ، وروابطها الحضارية ، وصلابتها العقلانية كانت عقبة تعترض مثل هذا النوع من البحوث . ولهذا السبب لا سبيل الى تصور دوستويفسكي الا في روسيا ، كما ان النفس الروسية هي وحدها التي يمكن ان تصلح أداة لكشوفه .

* * *

كان دوستويفسكي « صاحب نزعة شعبية «Populiste (نارودنيك Narodnik) على طريقته الخاصة : وكان يعتنق ويبشر بنزعة شعبية دينية . وهذا الحب للشعب ـ هذه « النزعة الشعبية » ـ نتاج للروح الروسية ، وظاهرة روسية صرف لا وجود لها في الغرب . والواقع اننا لا نستطيع ان نلتقي بهذه الاعتراضات الابدية التي تبديها « الانتلجنسيا » والشعب ، ورفع هذا الشعب الى منزلة المثل الاعلى الى درجة الانحناء أمامه ، والبحث عن الاله فيه ـ لا نستطيع ان نلتقي بكل هذا الا في روسيا . وهذه النزعة الشعبية كانت دائما في روسيا علامة على ضعف التيار الحضاري ، وغياب الوعي برسالتها . وكانت روسيا ابان مملكة الموجيك Moujiks الواسعة الغامضة التي يقوم على رأسها القيصر ـ قد تفككت الى عدد محدود جدا من الطبقات ، من بينها صفوة مثقفة قليلة العدد ، وضعيفة نسبيا ، مع تضخم للجهاز المحافظ في الدولة . هذا التركيب للمجتمع الروسي الذي يختلف اختلافا شديدا عن المجتمع الاوروبي ، كانت نتيجته ان جعل الطبقة المثقفة تشعر بعجزها ازاء التيار الشعبي ، حيال المحيط المعتم للشعب ، وبالخوف من ان يبتلعها هذا المحيط . بيد ان السلطة الامبراطورية المقدسة دينيا في ضمير الشعب ، انقذت الطبقة المثقفة من الظلمات الشعبية ، بأن قامت هي باضطهاد هذه الطبقة وهكذا وجدت نفسها محصورة بين فكي منجلة . وكان الوعي الذي

Twitter: @ketab_n

لدى الطبقة المثقفة عن نفسها في القرن التاسع عشر حيث سمت نفسها في لحظة معينة « الانتلجنسيا » ـ كان وعيا مأساويا . فالصفوة المثقفة عندما لم تجد في التاريخ الروسي تقاليد ثقافية قوية ، وعندما لم تشعر بأن هناك روابط عضوية تربطها بمجتمع متمايز ، وبطبقات قوية وفخور بماضيها الشهير ـ رأت انها موضوعة بين تيارين غامضين في التاريخ الروسي ، تيار السلطة القيصرية ، وتيار حياة الشعب . ومن ثم ، شرعت بغريزة حب البقاء الروحي في تمجيد هذا العنصر تارة ، وتمجيد العنصر الآخر تارة اخرى ، او تمجيد العنصرين معا في وقت واحد ، والبحث فيهما عن نقطة تتكىء عليها . وفوق الاغوار الشعبية المعتمة ، الواسعة كالمحيط ، شعر المثقفون بعجزهم ، وبالخطر الذي يتهددهم بأن تبتلعهم تلك الهوة . وهنا قامت هذه الطبقة المثقفة بتغيير اسمها ليصبح « الانتلجنسيا » وبالاستسلام للتيار الشعبي ، وباطلاق البخور للعنصر الذي يهدد بابتلاعها . « فالشعب » يمثل للانتلجنسيا قوة غامضة ، غريبة ، جذابة . وهو ينطوي على سر الحياة الحقيقية ، كما تستقر فيه حقيقة خاصة ، هي الاله نفسه الذي فقده المثقفون . ولم تكن « الانتلجنسيا » تشعر بأنها طبقة عضوية من الحياة العضوية فقد فقدت وحدتها ، واستأصلت جذورها . الوحدة والتكامل شيئان احتفظ بهما الشعب ، وهو وحده الذي يحيا حياة عضوية ، ويعرف الحقيقة المباشرة للحياة . اما الطبقة المثقفة فلم تظهر اية قوة لتوكيد رسالتها الحضارية امام الشعب ، وواجبها المنوط بها لاشاعة النور في ظلمات الطبقات السفلى . فكانت تشك في دورها الخاص بالتنوير ، ولم تكن تؤمن بحقيقتها ، كما القت ظلالا من الشك على القيمة الباطنة للثقافة . وهذه ظروف سيئة لأداء الرسالة الحقيقية الموكولة الى الثقافة : وكان القاء الشك عليها من وجهة نظر اخلاقية ودينية واجتماعية في آن واحد . وتصبح الثقافة عاقبة من عواقب الظلم ، مشتراه بثمن فادح ، اذ تعنى الانقطاع عن حياة الشعب ، وانتهاكا للوحدة العضوية . فالثقافة خطيئة في حق « الشعب » او هي « الخروج » عن « الشعب » ونسيان « الشعب » وهذا الشعور بالخطيئة طارد « الانتلجنسيا » الروسية ابان القرن التاسع عشر كله ، واستنزف طاقتها

Twitter: @ketab_n

الخلاقة . واقول مرة اخرى انه شعور تولد عن ان الطبقات المتعلمة لم يكن لديها وعي كافٍ بقيمة الثقافة كما انها تركت شكا اخلاقيا وارتيابا يثقلان عليها . وهذا شيء يميز أشد التمييز هذه « النزعة الشعبية » الروسية . فلم يكن الناس يبحثون عن الحقيقة في الثقافة ، وفي تطلعاتها الموضوعية ، وانما في الشعب ، في تيار الحياة العضوية ... تيار الحياة العضوية حيث تستقر ايضا الحياة الدينية ولا تستقر في الثقافة او في الروح . وأنا أقدم هنا الصفة المميزة للمبادىء الاولى للنزعة الشعبية الروسية بمعزل عن فروعها الدقيقة المتباينة . والواقع ان النزعة الشعبية في روسيا كانت منقسمة الى اتجاهين : مادي وديني . وفي صورتها المادية التي تميز انحلال الطبقة المتعلمة ، نلمس التعبير عن السيكلوجية نفسها التي نجدها في صورتها الدينية . فثمة تشابه بين الشعبيين الاشتراكيين الملحدين وبين الشعبيين السلافوفيل (اصحاب النزعة السلافية) . فهنا نفس التمجيد للشعب ، ونفس الارتياب في الثقافة . « فاليمين » المتطرف ، و « اليسار » المتطرف يتخذان في روسيا ملامح متشابهة تدعو الى الدهشة ؛ فكل منهما ينطوي على نفس التيار الرجعي المعادي للثقافة . ونفس العلة التي تعاني منها النفس القومية الروسية موجودة في هذين القطبين المتضادين . ففي كل منهما قمع مماثل للمبدأ الشخصي ، وللثقافة التي تتعلق بالشخصية ، والمسؤولية والشرف الشخصيين . كما نجد فيهما ايضا عجزا مماثلا عن الاستقلال الروحي وعن التسامح والبحث عن الحقيقة لا في الذات وانما خارج الذات . وقد كان لغياب الفروسية من التاريخ الروسي نتائج ضخمة . فقد بينت النزعة الجماعية الروسية اكثر من مرة ان الشخصية والروح الشخصية لم تكونا على يقظة كافية في الشعب الروسي وان الشخصية كانت ذائبة في التيار الطبيعي لحياة الشعب . وهذا هو السبب الذي دفع النظرية الشعبية الى البحث عن الحقيقة وعن الاله لا في الشخصية ولكن في الشعب .

فماذا كان « الشعب » بالضبط في رأي هذه النظرية الشعبية ، وما هي تلك القوة الغامضة التي يتصرف بها ؟ لقد ظل تعريف الشعب نفسه مهوَّشا مختلطا الى ابعد حد . ولم يكن « الشعب » في نظر الغالبية العظمى من الشعبيين هو

Twitter: @ketab_n

الأمة ، من حيث هي كل عضوي متكامل يشمل طبقات المجتمع وفئاته جميعا ، والأجيال التاريخية كلها ، والمثقفين والنبلاء ، والفلاحين والتجار والصناع ، والعمال . فليس لكلمة « شعب » هنا ذلك المعنى الانطولوجي (الوجودي) المحدد ، وانما لها قبل كل شيء معنى اجتماعي ودلالة طبقية . فـ « الشعب » هو في غالبيته العظمى الفلاحون والعمال والطبقات الدنيا من المجتمع التي تعيش على مجهودها الجسدي . ولهذا فان النبلاء واصحاب المصانع والتجار والعلماء والكتاب او الفنانين لايؤلفون « الشعب » وليسوا شطرا عضويا فيه بل على العكس انهم ضده بوصفهم « بورجوازيين » و « انتلجنسيا » أما في النزعة الشعبية الثورية والمادية التي اعتنقها اليسار فقد ساد هذا التصور الطبقي في نهاية الأمر . والغريب انه ساد ايضا في النزعة الشعبية الدينية وفي النزعة السلافوفيلية Slavphilism وان تكن في تناقض مطلق مع اتجاهات الوعي السلافوفيلي . فقد كان « الشعب » في نظر السلافوفيل كما هو في نظر دوستويفسكي ـ هو اولا وقبل كل شيء الشعب البسيط الفلاحون والموجيك . أما الطبقة المثقفة فقد انفصلت ـ في نظرهم ـ عن الشعب واتخذت موقفا معارضا له وللحقيقة . فالحقيقة تلتمس عند الموجيك لا عند النبلاء او عند « الانتلجنسيا » الموجيك هم الذين يحتفظون بالايمان الحقيقي . وبهذا سحبوا من البطقة المتعلمة حق الشعور بأنها جزء لا يتجزأ من الشعب وحرموها من ان تجد في قرارة نفسها التيار الشعبي . فاذا كنتُ نبيلا او تاجرا ، عالما او كاتبا ، مهندسا او طبيبا ، فأنني لا استطيع ان اشعر انني من « الشعب » بل ينبغي ان اعتبر الشعب تيارا غامضا مضادا لي وعليّ ان انحني امامه كما انحني امام حامل للحقائق العليا . وكل صلة مباطنة مع « الشعب » وماهو « شعبي » مستحيلة فلا يمكن ان تقوم هنا الا صلة متعالية Transcendamt . فالشعب هو قبل شيء « اللا أنا » المضاد لي الذي انحني امامه لأنه ينطوي في ذاته على حقيقة خارجة عني اشعر ازاءها بأنني مذنب . بيد ان هذا التصور هو تصور عبد يخلو من كل حرية للروح ، ومن كل وعي بحرية روحية خاصة . هذه « النزعة الشعبية » الوهمية التي اعتنقها دوستويفسكي تتعارض

Twitter: @ketab_n

مـع الكلمات المـذهلة التي وضعها عـلى لسان فـرسيلوف فيما يتعلق بـالنبـالة الروسية : « انا لا استطيع الا احترم طبقتي النبيلة . فقد نشـأ لدينا عـلى مر القرون نمط معين من الثقافة الرفيعة نمط لم يوجد له نظير في العالم ، يأخذ على عاتقة كل عذاب العالم . انه نمط روسي ولما كان هذا النمط موجود في الطبقة المتعلمة العليا من الشعب الروسي ، فانه لشرف لي ان انتمي اليه . هذه الجماعة تحتفظ في ذاتها بروسيا المستقبل . وربما كانت الفا (ولعلها أكثر او اقل) بيد ان روسيا قد عاشت بهدف واحد هو انجاب هذا الألف . »

غير ان اعظم العبقريات الروسية وهم في اوج حياتهم الروحية او ابداعهم الثقافي ـ لم يحتملوا محنة القمم ، وتلك الحرية السامقة للروح ، وسيطر عليهم الخوف من العزلة ، فهرعوا منحدرين الى اسفل ، الى الاماكن السطحية من حياة الشعب ، آملين ان يصلوا بفضل هذا الاندماج الى حقيقة عليا ـ ويبدو ان عظماء الروس لايتمتعون بشاعرية الاماكن المرتفعة والقمم ؛ فأصـابهم رعب الانعزال والهجران والبرد ، واخذوا يبحثون عن دفء الحياة الشعبية والجماعية . وهنا تختلف العبقرية الروسية ـ دوستويفسكي ـ عن العبقرية الاوروبية ـ نيتشه . لم يستطع تولستوي ، ولم يستطع دوستويفسكي احتمال الاعالي ؛ بل فتنهما التيار المعتم ، الرحيب ، المستسر للحيـاة الشعبية . فـراودهما الامـل ان يجدا فيـه الحقيقة ، بدلا من ارتقاء القمم . واولئك الذين كـانوا اول من عبـر عن الوعي القومي الروسي ـ اعني السلافوفيل ـ تصرفوا على هذا المنوال . فليس من شك انهم كانوا على قمة الثقافة الاوروبية ، ومن اكثر النـاس ثقافـة بين الروس ،؟ ولكنهم كانوا يفهمون ان الثقافة لايمكن الا ان تكون قومية ، وبهذا كانوا يقتربون من الغربيين اكثر من « المستغربـين » الروس انفسهم . بيد انهم رفعـوا راية التسليم امام سلطان الموجيك ، وغاصوا في اغوار غامضة ، دون ان يجدوا القدرة في نفوسهم على الدفاع عن حقيقتهم ، بوصفها حقيقة قومية مشتركة بين الجميع ؛ بل كانوا هم ايضا يتصورون « الشعب » بوصفه شعبا بسيطا ـ معاديا للطبقة المتعلمة . واستطاع الجناح اليساري اللاديني من النزعة الشعبية ان يجني ثمار

Twitter: @ketab_n

هـذا الفهم للشعب بوصفـه طبقة واصبـح الوعي « القومي » منـذ ذلك الحين مستحيلا اذ ازدادت الهوة بين « الانتلجنسيا » و « الشعب » عمقا وتوكيـدا ، وظلت الفكرة « الشعبية » هي وحدها القائمة . وفي هذه الاثناء ، اودعت في قلب النزعة السلافوفيلية عناصر لفهم اوسع واكثر حيوية للشعب ، بـوصفه امـة ، وبوصفه كائنا عضويا صوفيا . بيد ان السلافوفيل سقطوا ضحايا مرض الطبقة المثقفة . وهو مرض اصيب به ضمير دوستويفسكي . وكانت الماركسية قد قامت بتقسيم فكرة الشعب نظريا ـ الى طبقات ، وبهذا وجهت ضربة للنزعة الشعبية . غير انها اذعنت بعد ذلك هي نفسها ـ لاحياء هذا المبدأ .

* * *

كانت نزعة دوستويفسكي الشعبية من طراز خاص ، فقـد كانت نـزعة شعبيـة دينية . ولاشك في ان السلافوفيل كانوا يعتنقون ايضا نزعة شعبية من هذا النوع وكـان كـوشيلييف Kocheliev يقـول ان الشعب الروسي لا يصلح امـره الا مـع الارثوذكسية ، وانه بدونها « لايعدو ان يكون مجرد حثالة » وكأن السلافوفيل يعتقدون ان الشعب الروسي هو اكثـر الشعوب مسيحيـة على الارض ، بـل هو الشعب المسيحي الوحيد . بيد ان ايمان دوستويفسكي الديني بالشعب الروسي كان ينتمي فعلا الى عهد اخر . وكان السلافوفيل يشعرون انهم مغروسون بقوة على الارض ، وان هذه الارض حسب شعورهم راسخة تحت اقدامهم . وكانوا يملكون تراثا طويلا من العادات المريحة ، كما يتمتعون بتلك الدعة التي تميز هؤلاء الملاك الروس الذين شبوا في ديارهم الريفية ، وسيبقون طلية حياتهم ملاكا لها . فلن نلمس عندهم شيئا فاجعا ، او اي احساس مسبق بالرؤياوية المقبلة المجهولة . اما دوستويفسكي فعلى العكس من ذلك ، يتنمي الى تلك الحقبة من الادراك الفاجع للعالم ، الى تلك الحقبة المتجهة دينيا الى « الرؤيا » (نهاية العالم) وكان تصوره المسياوي للشعب ، شاملا ، عالميـا متجها صـوب مصير العـالم اجمع . كـان السلافوفيل اذن قرويين بالقياس الى دوستويفسكي . وموقف هذا الاخـير ازاء اوروبا يختلف عن موقفهم كل الاختلاف . كما كان أشد تعقيدا وتوترا الى مـا

Twitter: @ketab_n

لانهاية . اما بالنسبة للتاريخ الروسي ، فقد كانت له مواقف متباينة فهو لم يكن مدفوعا على هذا النحو الى تمجيد روسيا القديمة السابقة على حكم القيصر بطرس ، بل ـ كان على العكس ـ يضفي قيمة هائلة على بطرسبرج ، في الفترة البطرسية من التاريخ الروسي ودوستويفسكي هو كاتب تلك الفترة . وما كان يهمه ، هو مصير الانسان في روسيا البطرسبورجية في عهد بطرس الاكبر ، والمحنة الفاجعة المعقدة التي عاناها النوماد الروس الذين تم استئصال جذورهم في تلك الفترة . وهو في هذا يحذو حذو بوشكين . وماشاهده هذا الاخير ووصفه مما كان له طابع شبحيfantomatique في بطرسبورج ـ كان يجتذب دوستويفسكي . أما عادات موسكو المتأصلة والريفية فكانت على العكس من ذلك ـ غريبة عليه ، فلم يهتم الا بالانتلجنسيا الروسية في العهد البطرسبورجي من تاريخ روسيا ، فكان متتبعا بكل ما يملك من جهد ـ للكارثة القادمة . فهو كاتب مرحلة تتشكل فيها الثورة الباطنة لم يكن دوستويفسكي اذن سلافوفيليا بالمعنى التقليدي لهذه الكلمة ، مثلما لم يكن قسطنطين ليونتييف constantin leiontiev واحد منهم فهذان شخصان لهما تكوين مختلف وتشيع فيهما دينامية نبحث عنها عبثا عند السلافوفيل .

واننا لنجد ـ فضلا عن ذلك ـ في « يوميات كاتب » سلسلة من التلميحات المعادية الجائرة في كثير من الأحيان تجاه السلافوفيل : « يتمتع السلافوفيل بقدرة نادرة على انكار قومهم ، وعلى عدم فهم شيء من حقائق عصرهم » وهو يدافع عن « المستغربين » في مواجهتهم : « أمن الحق ان المستغربين يملكون من غريزة الروح الروسية اقل مما يمتلكه السلافوفيل ؟ » « لم نكن نريد الا اظهار شيء من ذلك العنصر التوهمي عند السلافوفيل الذي ادى بهم الى التنكر التام لقومهم ، والعيش في تنافر كامل مع الواقع . وايا كان الحال فقد كانت النزعة الى الغرب L'occidentalisme أكثر واقعية ـ على الاقل ـ من النزعة السلافوفيلية وعلى الرغم من كل اخطائها فقد تقدمت الى ابعد مما تقدمت اليه تلك النزعة الاخيرة وبقيت الى جانب الحركة على حين ان السلافوفيل ظلوا الى الأبد في مكانهم ، معتقدين ان في هذا شرفا عظيما لهم . اما « النزعة الغربية » فقد وضعت الاسئلة النهائية

Twitter: @ketab_n

بجسارة وقدمت حلولها في الالم ، عبر الوعي بالذات وعرفت كيف تعود الى الارض الشعبية ، وان تجد الاتحاد مع العناصر الشعبية ، والخلاص في الارض . وكنا ـ من ناحيتنا ـ نتقدم كواقعة نعتقد انها محتومة لا رجوع لها ، وانه في العودة الفعلية (وهي عودة لن تكون عامة) الى الارض سواء كانت تلك العودة عن وعي او عن غير وعي ـ كان للتأثير السلافوفيلي نصيب اقل كثيرا ، نصيب ضئيل ، بل ربما لم يكن له نصيب على الاطلاق .» وكان دوستويفسكي يقدر الغربيين لبحوثهم ، ولما في وعيهم من تعقيد ، ولما تتسم به ارادتهم من دينامية . اما ما كان يزعجه ـ في مقابل ذلك ـ فهو ان السلافوفيل ، بوصفهم من الطبقة الارستقراطية ، يضعون انفسهم خارج عملية صعبة للحياة ، خارج الحركة الادبية ، وينظرون الى كل شيء من علٍ . اما بالنسبة لدوستويفسكي فقد كان « الفتى الروسي » والملحدون والاشتراكيون والفوضويون ـ كانوا جميعا تجليات للروح الروسية . كما كان الادب « المستغرب » تجليا ايضا لهذه الروح . وكان دوستويفسكي يعارض بالواقعية ، الواقعية الفاجعة للحياة ، مثالية السلافوفيل ، فقد كان يفهم حركة الروح التي تتحقق في روسيا . وبفكره التنبؤي اكتشف طبيعة هذه الحركة واشار الى النهاية المخيفة التي لامناص من ان تصل اليها . وكان يقف على ارض التجربة الروحية ، بوصفها التجربة الضرورية . بيد ان السلافوفيل الذين كانوا قد وصلوا في هذه الفترة الى الجيل الثاني ـ رفضوا فهم كل حركة ، وتهيبوا كل تجربة . وهذان موقفان من الحياة يختلفان كل الاختلاف . فارتباط دوستويفسكي بالارض لم يكن هوة ارتباط السلافوفيل . فقد كان يتأمل الارض الروسية الى اشد طبقاتها عمقا هناك حيث لايتحقق الوجود الا بالزلازل والانهيارات . فلم تكن جذوره الضاربة في اعماق التربة ساكنة . انه تأصيل انطولوجي (وجودي) ، معرفة بروح الشعب في اعمق اعماق ماهيته .

* * *

كان موقف دوستويفسكي ازاء اوروبا باعثا على الدهشة وتُميِّز هذا الموقف ـ بخاصة ـ اقوال فرسيلوف التي عبر فيها دوستويفسكي عن ارق افكاره تحو اوروبا : وكان يضع على لسان فرسيلوف كثيرا من افكاره الخاصة . الانسان

Twitter: @ketab_n

الروسي عالمي ، وهو اكثر الناس حرية في العالم . « الاوروبيون ليسوا احرارا ، اما نحن ، فأحرار . ومع حزني الروسي ، كنت وحدي الذي يتمتع بالحرية ... كل فرنسي قادر ، لا على ان يخدم فرنسا وحدها ـ بل البشرية جمعاء ، ولكن شريطة ان يظل فرنسيا ؛ وهذا يصدق ايضا على الانجليزي والالماني . والروسي في عصرنا هو وحده الذي تلقّى تلك الملكة وهي انه ازداد روسية كلما ازداد نزوعا الى اوروبا . وهذا هو الفارق الاساسي بيننا وبين الآخرين ، وهو يتمثل عندنا ، كما لا يتمثل في مكان آخر . فأنا فرنسي في فرنسا ومع الالماني الماني ومع اليوناني القديم يوناني ؛ وأكون مع هذا كله روسيا اصيلا وأخدم روسيا على نحو افضل مادمت امثل فكرها الرئيسي . » « واوروبا عزيزة ايضا على الروس كروسيا نفسها : وكل حجر فيها غال وعزيز ، لقد كانت اوروبا وطننا مثلما كانت روسيا . بل اكثر ! لن يستطيع احد ان يحب روسيا خيرا مما احبها ، بيد ان احدا لن يلومني ابدا على انني اعتز بفينيسيا وروما وباريس ومافيها من كنوز العلم والفن والتاريخ اكثر من اعتزازي بروسيا . أوه ! ما أعز تلك الاحجار القديمة الاجنبية وعجائب عالم الاله القديم تلك البقايا من العجائب المقدسة بالنسبة للروسي ! بل انها اعز علينا مما هي بالنسبة اليهم . ولا توجد غير روسيا التي لا تعيش لنفسها بل للفكر ، والواقعة الغريبة هي ان روسيا منذ ما يقرب من قرن لاتعيش لنفسها بل لاوروبا فحسب » وماكان لرجل سلافوفيلي ان يتفوه بهذه الكلمات . وهذه النغمة نفسها تعود للظهور على لسان ايفان كارامازوف : « اريد ان اجوب اوروبا ؛ واعلم انني لن اجد فيها سوى مقبرة ، ولكنها أعز مقبرة هذا هو كل ما في الامر . فهناك يرقد الموتى الاعزاء ، والحجارة التي تغطيهم تشهد بحياة مشبوبة قد مضت ، وبايمان حار في حركته وفي حقيقته وفي صراعه وفي علمه ، وكنت أعلم مقدما انني سأجثو على التراب وسأقبّل هذه الاحجار وأبللها بدموعي ، مقتنعا في الوقت نفسه في قرارة نفسي بأن هذا كله لم يعد منذ امد بعيد ـ سوى مقبرة ولا شيء غير ذلك . » وهذا ايضا ما نجده في « يوميات كاتب » : « اوروبا ... ولكن هذا شيء رهيب مقدس ، اوروبا اوه ! اتعلمون ايها السادة كم هي عزيزة علينا ـ نحن الحالمين

Twitter: @ketab_n

السلافوفيل ـ هذه الاوروبا التي تعتقدون اننا نبغضها ، اوروبا هذه نفسها « موطن المعجزات المقدسة ؟ اتعلمون كم هي عزيزة علينا هذه المعجزات ، وكم نحب ونقدر على نحو اكثر من الاخوة ، القبائل العظيمة التي تقطنها ، وكل ما حققته هذه القبائل من اشياء عظيمة ونبيلة وسامية ؟ هل تعلمون كم من الدموع ومن انقباضات القلب سببها المصير العزيز القريب لهذه البلاد ، وكم تخيفنا تلك السحب القاتمة التي تخيم دائما على افقها ؟ انكم انتم ايها السادة الاوروبيين فينا والغربيين منا لم تحبوا اوروبا ابدا كما احببناها نحن الحالمين السلافوفيل الذين تريدون اعتبارهم اعداءها التقليديين . » وعلى هذا النحو لم يتحدث ابدا السلافوفيل او المستغربون . قسطنطين ليونتييف الذي لم يكن من هؤلاء او اولئك ـ هو وحده الذي كان يستطيع ان يعبر عن ماضي اوروبا في الفاظ مشابهة . والمفكرون الدينيون الروس من طراز دوستويفسكي وقسطنطين ليونتييف ـ لم ينكروا الثقافة الرفيعة التي انتجتها اوروبا الغربية . بل كانوا يحملون من التقدير لهذه الثقافة اكثر مما يحمله الاوربيون الحاليون . وما كانوا ينكرونه هو المدنية الاوروبية المعاصرة وروحها « البورجوازية » التجارية ، حيث اماطوا اللثام عن خيانة نحو للتراث الرفيع وموروث الثقافة الماضية لاوروبا .

ولم يكن التعارض بين روسيا واوروبا ـ في نظر كثير من الكتاب والمفكرين الروس سوى تعارض بين روحين ، بين نمطين من الحضارة ؛ وما هو الا شكل من اشكال الصراع ضد اتجاهات المدنية الحاضرة التي ترمي الى اخماد الروح . وقد كانت النزعة السلافوفيلية والاستشراقية L'orientalisme انحرافا خاصا للوعي ، فهناك روحان يتصارعان في العالم ، وبدأت روح المدنية التجارية في الانتصار عقب خيانة للمبدأ المسيحي في الحضارة . وتغلبت الروح المادية على الروح الدينية ، واحتجبت السموات خلف التكالب على السعادة الارضية . هذا هو الاتجاه العالمي للمدنية المعاصرة وهو أظهر ما يكون تحققا عند الشعوب الاوروبية . ولم ينقذ الروس سوى « تخلفهم » . ولكن من الوهم ان نستنتج من هذا التخلف ان ليس لهذا الاتجاه العالمي للمدنية المعاصرة سيطرة على روسيا وعلى الشعب الروسي ، او

Twitter: @ketab_n

انهم نأوا عنه بطبيعة روحهم ، او ان هذا الاتجاه لاينتسب الى للغرب وحده . ذلك ان الاتجاهات الدينية في الفكر والادب الروسيين تلونت بالوان النزعة السلافوفيلية وبالوان الشرق . وهي الوان دفاعية . وقد عرفت المانيا في مطلع القرن التاسع عشر وفي عهد الاندفاعة العظمى الخلاقة للمثالية الالمانية وللحركة الرومانسية تبلورا مماثلا لاتجاهاتها ، ووعيا مشابها بذاتها . وتأكدت الروح المثالية والاتجاهات الرومانسية وسيادة المصالح الروحية العليا ـ تأكدت بوصفها روحا جرمانية واتجاها جرمانيا ومصالح جرمانية في مواجهة الاتجاهات غير الروحية لفرنسا وانجلترا . وقد بدأت فكرة المسياوية الجرمانية في هذه الفترة نفسها . وهذا لم يمنع المانيا ـ عقب ذلك ـ ان تسلك سبيل النزعة المادية ، وان تتخاذل عن اداء رسالة روحها العليا . وقد كان الصراع بين روحين وبين نمطين من انماط الثقافة الدينية واللادينية للمدنية مباطنا دائما لأوروبا الغربية نفسُها ، ودارت رحاه على ارضها . فكان الرمانسيون الفرنسيون والرمزيون والكاثوليك الفرنسيون في القرن التاسع عشر من امثال باربيه دوريفيي Barbey D'Aurevilly وفييه دوليل ـ آدم Villiers de L'isle — Adam وهويسمان Huysmans وليون بلوا Le'on Bloy يعارضون بكل وجودهم وبكل مصيرهم الاليم الروح السائدة على ذلك القرن ، اعني المدنية الاوروبية والفرنسية في القرن التاسع عشر التي لم تكن تجرحهم بأقل مما تجرح السلافوفيل ودوستويفسكي وليونتييف . فهؤلا ايضا كانوا ملتفتين بوجوههم صوب العصر الوسيط ، وكأنه وطنهم الروحي . وكان ظهور نيتشه بحلمه المشبوب عن حضارة ديونيزوسية مأساوية ـ كان بأكمله احتجاجا حادا ومَرضيا ضد الروح الظافرة للحضارة الاوروبية . وهذا موضوع كلي شامل universel لايمكن تصوره تحت نوعي المعارضة بين روسيا واوروبا او بين الشرق والغرب . فهنا يتعلق الامر بالمعارضة بين روحين ، بين نمطين للثقافة داخل اوروبا نفسها ، كما هو في داخل روسيا ، وفي الغرب مثلما هو في الشرق . وكان من نصيب الروس ومن نصيب اعظم الكتاب والمفكرين الروس ان يشعروا بهذا التعارض شعورا اشد حدة من الغربيين . وكان هرتزن اسبق من الأوروبيين الذين عاشوا في

Twitter: @ketab_n

الاربعينيات في الوعي بهذا التعارض . ولكن يجب الا نستنتج من هذا ان الاتجاه العالمي للمدنية المعاصرة لاينبغي ان ينتصر في روسيا ، كما لا ينبغي ان تنتصر ايضا الروح اللادينية ، وان الروح في روسيا لن تعاني نكسة . فلقد ظهر الماركسيون في روسيا وتكللت جهودهم بالنجاح . والآن يدور فيها رحى الصراع بين الروحين ، بين نمطي الثقافة او بمعنى ادق الصراع ضد اخماد الروح او اضعافها ـ روح الحضارة والمدنية . وقد يكون من المحتمل الا تنتصر الروح والحضارة في روسيا . ولا ينبغي علينا ان نقارب بين الروح والحضارة فحسب بل ان نوحد بينهما . ان نجعلهما شيئا واحدا . لأنه اذا كانت المدينة قد لاتستطيع ان تكون روحا ، الا ان الحضارة روح دائما وهي مرتبطة بطبيعتها الخاصة بتراث مقدس ، تراث الاسلاف . وقد فطن دوستويفسكي على نحو حاد لم يبلغه غيره ، الى ازدواجية الحركة اثناء مسيرتها ومولد روح ضد المسيح فيها . وكشف عن تحركات هذه الروح في روسيا ، وفي روسيا قبل كل شيء . اما ليونتييف فقد اصابه اليأس في اواخر حياته من ان يرى ظهور نمط جديد مزدهر من الحضارة يعارض مدنية اوروبا الذابلة ، ويكون شبيها بزهورها الماضية . وهكذا استسلم للقنوط وهو يشاهد في بلاده انتصار تلك العملية العامة المنادية بالمساواة Egalite ire التي كان يبغضها الى الحد الذي جعله ينطق بتلك الاقوال المشحونة بالقلق : ربما كانت روسيا مختارة لاداء رسالة دينية واحدة ، الا وهي ان ترى مولد ضد ـ المسيح في حضنها ، وهكذا سقطت فكرة النزعة الشعبية الدينية التي سدد تطورها ضربات فظيعة اشد ما تكون الفظاعة للتاريخ الروسي ـ سقطت هذه الفكرة نفسها في التفكك . ذلك لأن مصير الفكرة المسياوية الروسية هو ايضا مصير فاجع .

* * *

« وكل شعب عظيم ينبغي عليه ـ اذا اراد ان يستمر طويلا في الحياة ، أن يؤمن بأن فيه ، وفيه وحده ، يستقر خلاص العالم ، وبأنه يحيا لكي يظل رأس الشعوب لكي يربطهم جميعا حوله ، ويقودهم في جماعة موحدة صوب غاية نهائية عليه ان يعهد بها اليهم جميعا . » وعلى هذا النحو يعبر دوستويفسكي في

Twitter: @ketab_n

« يوميات كاتب » عن الحاجة التي يشعر بها الى وعي قومي مسياوي . مثل هذه الفكرة لاتتضمن للوهلة الاولى أي نزعة الى التعصب القومي ، او اية نزعة خصوصية . Particularisme . والوعي المسياوي لشعب ما يكون عاما وعالميا . والشعب المسياوي شعب يوكل اليه خدمة قضية خلاص الشعوب جميعا ، والعالم اجمع .. وهي مهمة يقترحها دوستويفسكي على الشعب الروحي ، الشعب الذي يحمل الاله . وليست المسياوية هي النزعة القومية ، ذلك انها تتطلع الى ماهو أعلى من ذلك الى مالا نهاية ، ولكنها لا تنطوي على أي توكيد قومي . وعلى نقيض ذلك ، لا يدعي السلافوفيل الذين يعتبرون انفسهم بحكم تعريفهم نفسه ، قوميين الى إعلى درجة ، والمقتنعين بأن الشعب الروسي يمثل النمط الاسمى للحضارة المسيحية ـ لايدعي السلافوفيل ان من واجب الشعب الروسي تخليص جميع الشعوب الاخرى ، والكشف عن الحقيقة الكلية . وهذه النزعة الكلية الشاملة L'universaliame التي تذهب اليها الروح الشعبية الروسية ، يكتشفها دوستويفسكي في عبقرية بوشكين الرحبة . وما يدهش المرء عند بوشكين هو « ملكة التعاطف العالمية ، والتقمص التام لعبقرية الشعوب الاجنبية تقمصا يوشك ان يكون كاملا . » « وهذه الملكة روسية في جوهرها ، ويشاطر فيها بوشكين في حقيقة الامر شعبنا كله . » وهو يقول مناقضا السلافوفيل « ان تطلعنا صوب اوروبا ، بكل مافيه من انبهار ومبالغة ـ لم يكن رسميا ومعقولا حسب ، ولكنه كان شعبيا ايضا كما انه تطابق تماما مع تطلعات الروح الشعبية نفسها ، وكان له ذاته دون ان يناقض الغاية النهائية في أسمى درجاتها » . « وربما كانت النفس الروسية وعبقرية الشعب الروسي اقدر من غيرها في سائر الشعوب الاخرى على احتضان فكرة الاتحاد العالمي والاخاء » وقد كشف دوستويفسكي بغريزته العبقرية ان التشرد القلق المتمرد عند الروس ، وبداوة روحهم ، ماهي الا مظهر قومي عميق . « وفي آليكو Aleko بحث بوشكين وصور المتشرد التعس على ارض وطنه ، الشهيد الروسي التاريخي » ومؤلفات دوستويفسكي مكرسة كلها لمصائر هذا الشريد البعيدكل البعد . فهذا المتشرد هو الذي يهمه اكثر من أي شيء اخر . « السعادة

Twitter: @ketab_n

الشـاملة هي الشيء الضروري للشـريد الروسي ، لكي يخلد الى الهـدوء ؛ وهو لايشتري سكينته بأقل من هذا الثمن . » وهكذا نكتشف في الشريد ، في الروسي المستأصل الجذور ـ تلك النزعة العالمية التي تميز شعبنا بأكمله . وهنا ينطوي فكر دوستويفسكي بما فيه من دينامية لاتقبل ماهو سكوني ثابت ـ على تناقض . فالشريد الروسي انتزع نفسه من ارض وطنه . وهنا تكمن خطيئته ، وعقم حياته الخلاقة . غير ان الروسي المستأصل الجذور الذي يعتبره دوستويفسكي نتاجا للطبقة الاقطاعية الروسية ، هذا الشريد يعامله بـازدراء بوصفـه « الجنتلمان الروسي والمواطن العالمي . » ومع ذلك فان هذا ايضا مـظهر من مـظاهر الروح القومية وهذا حكم متناقض لانجده عند السلافوفيل الذين يتصف تفكيرهم بقدر اكبر من الوحدة . دوستويفسكي يحب اذن ذلك المستأصل الجذور ، ذلك الشريد بوجه عام ، كما كان مهتما اهتماما شديدا بمصيره ، وكان يعتبر « الانتلجنسيا » الروسية المنقطعة الصلة بالشعب بوصفها سمة مميزة كل التمييز ، شاهدا بذلك على ان نزعته الشعبية الدينية لم تكن سوى تجاور للافكار المتناقضة . والحق انه عندما اخذ يحض على الانحناء امام الشعب والبحث عن « الحقيقة الشعبية » و « الحقيقة في الشعب » فانه كان يفهم من هذه الكلمة « الشعب » انه كائن عضوي صوفي ، او روح الامة كما يتصورها على انها كلٌ هائل غـامض يضم الغالبيـة العظمى من الناس « البسطاء » من الموجيك . وهنا نلمس سوء الفهم المعتاد لهذه الفكرة الشعبية ، فلسنا بحاجة الى الذهاب الى الشعب للانضمام اليه . فالروسي المتجول الهائم على وجهه المستأصل الجذور ، المتوحد ، يستطيع ان يكتشف في اعماقه التيار الشعبي وان يتعرف عليه وان يصير من الشعب بمجرد اظهاره لهذه الاعماق . ذلك ان كل روسي يجد في قرارة نفسه العناصر العميقة للشعب . وليس العنصر « الشعبي » موجودا خارج نفسي في الموجيك ، ولكنه موجود فيّ أنا ، في الطبقة العميقة من وجودي الخاص الذي لا اكون فيه اشبـه بمونـاد* مغلقة . والصلة الوحيدة الحقيقية التي توجد ازاء ما هو « شعب » منفصلة عن الشعب ، اجل اجدها على السطح لا في الاعماق . ولكي أصير شعبيا لن أكون في حاجة الى

Twitter: @ketab_n

الموجيك او الى الناس البسطاء ، وما عليّ الا ان استدير صوب اعماقي الخاصة . مم تتكون هذه « الحقيقة الشعبية » التي تُكتشف في الاعماق على هذا النحو ؟ ان دوستويفسكي لا يستعيرها من الموجيك الذين تعتبر هذه الحقيقة غريبة عنهم من الوجهة التجريبية ولكنها تظهر في اعماق روحه . ذلك ان دوستويفسكي هو « الشعب » اكثر من الشعب نفسه ، واكثر من كل طبقة الفلاحين في روسيا . « لاجدال في ان مصير روسيا يشمل اوروبا كلها Paneuropeene والعالم كله Panmondiale وان يكون المرء روسيا ، روسيا كاملا ، ربما كان معناه انه اخ للناس اجمعين ، انسان عالمي . أواه ! ان كل هذه النزعة السلافوفيلية ونزعة الاستغراب ليستا لدينا سوى سوء تفاهم هائل ، وان يكن تاريخيا وضروريا وبالنسبة للروسي الاصيل تعتبر اوروبا من حيث هي فرع من فروع القبيلة الآرية الكبرى عزيزة عليه ايضا شأنها في ذلك شأن روسيا ذاتها ، انها حصة من الارض الوطنية لان حصتنا التي تخصنا عالمية » وبهذا التصور للدور المقدر على روسيا يقترب دوستويفسكي الى غير حد من فلاديمير سولوفييف Vladimir Soloviev بأكثر مما يقترب من السلافوفيل او القوميين الروس الذين جاءوا بعدهم . بيد اننا نستطيع ان نكتشف في هذا التصور المسياوي لدوستويفسكي متناقضات ، والخطر الذي ينطوي عليه كل تصور مسياوي .

* * *

فلما بلغ القرن العشرين تجلى المصير الفاجع لهذه الفكرة . ذلك ان روسيا الامبرالية لم تكن تشبه روما الثالثة الا قليلا ؛ وفيها ـ على حد تعبيردوستويفسكي « كانت الكنيسة امرأة مشلولة » وفي حالة من الاذعان المهين للقيصر . وكان المسياويون الروس متجهين صوب « المدينة » المقبلة ولم يكونوا يملكون مدينتهم الخاصة بهم . وكانوا يأملون ان تظهر في روسيا مملكة جديدة المملكة الالفية للمسيح . وسقطت روسيا الامبرالية ، وجاءت الثورة فحطمت السلسلة التي تربط الكنيسة الروسية بالدولة الروسية . وهكذا على الشعب الروسي تجربة تحقيق ملكوت جديد لهذا العالم . ولكن بدلا من روما الثالثة اقاموا الدولية الثالثة la Troisieme Internationale وانكشف ضمير هؤلاء الذين حققوا هذه الدولية الثالثة فاذا

Twitter: @ketab_n

به ـ على طريقته الخاصة ـ ضمير مسياوي . وتعرفوا على انفسهم بوصفهم حاملين للنور القادم من الشرق ، النور الذي يجب ان يخرج شعوب الغرب من ظلمات « البورجوازية » الغارقين فيها . هذا هو مصير الوعي المسياوي الروسي : اذ لا يوجد في كتابات الراهب فيلوتيه Thilothee حسب ولكن عند باكونين Bakounine ولينين Lenine ايضا . وتكمن خطيئة عبادة الشعب في أسس الوعي المسياوي وهي خطيئة تتلوها عقوبة لا محيد عنها .

وهذه التنقضات والغوايات والخطايا التي احاطت بالفكرة المسياوية الروسية تتلخص في شخصية شاتوف Chatov . ولكن هل تحرر دوستويفسكي نفسه من شاتوف تمام التحرر ؟ طبعا انه ليس شاتوف ، ولكنه كان يحبه ، وكان فيه شيء من شاتوف . وفضلا عن ذلك فان كل ابطال دوستويفسكي يمثلون أجزاءً من ذاته الخاصة ومراحل في طريقه الخاصة . يقول شاتوف لستافروجين : « هل تعرف ـ في الوقت الحاضر وعلى الأرض من هو الشعب الوحيد الحامل للاله ، والذي يمهد لتجديد العالم وانقاذه باسم الاله الجديد ، والى من اعطيت مفاتيح الحياة والقول الجديد ؟ » « كل شعب لم يكن حتى الآن الا شعبا ، وقد حان الوقت لكي يكون له الهه الخاص ، وان يستبعد هذا الاله سائر الآلهة الموجودة في العالم الى غير رجعة . » هذه هي الردة الى الوثنية المشركة . غير ان شاتوف ـ الذي قطع شوطا ابعد ـ يعود الى اليهودية بادعاءاتها العالمية . « اذا لم يعتقد شعب عظيم ان الحقيقة لا توجد الا لديه ، واذا لم يعتقد انه هو وحده القادر على بعث الناس جميعا وتخليصهم ، وانه موجود لهذا الغرض ، فانه لن يكون اذن سوى اداة عرقية Ethnoqraphigne ، وليس شعبا عظيما ... بيد ان الحقيقة واحدة ومن الممكن ان يستطيع شعب واحد حيازة الحقيقة ، على حين يكون للشعوب الاخرى آلهتها الخاصة والعظيمة . وهذا الشعب الفريد **حامل الرب** ، هو الشعب الروسي . » وهنا يوجه ستافروجين هذا السؤال القاتل لشاتوف : « هل تؤمن انت نفسك بالاله ، أم لا تؤمن ؟ » فيتلعثم شاتوف من فرط حماسته قائلا : « أنا أومن بروسيا .. أومن بأرثوذكسيتها .. وأومن بجسد المسيح .. واومن بأن حدثا

Twitter: @ketab_n

جديدا سيقع في روسيا .. » فيلح ستافروجين : « ولكن بالله ؟ بالله ؟ » « انا ... أنا سأومن بالله . » وبهذا الحوار المثير للدهشة يفضح دوستويفسكي اكذوبة النزعة الشعبية الدينية ، العبادة الدينية للشعب ، وخطر الوعي المسياوي الشعبي . فهناك كثيرون من الروس يؤمنون بالشعب اكثر من ايمانهم بالله ، وآمنوا بالشعب اكثر مما امنوا بالله ، ويريدون ان يذهبوا الى الله عن طريق الشعب . ووهم عبادة الشعب وهم روسي . وتختلط العناصر الدينية والشعبية في الضمير الروسي بحيث يصعب التمييز بينهما. وهذا الخلط يبلغ في بعض الاحيان الى حد التوحيد بينهما في الارثوذكسية الروسية . والشعب الروسي يؤمن بالمسيح الروسي . والمسيح هو الاله القومي ، اله الفلاحين الروس ، مرسوما بملامح روسية . وهذا اتجاه وثني في حضن الاثوذكسية . وهذه القومية الدينية ، المتعصبة الضيقة الافق ، التي مابرحت غريبة على المسيحية الغربية ، والتي لا تتخذ ازاء العالم الكاثوليكي سوى موقف سلبي .. هذا كله يتنافر تمام التنافر مع الروح العالمية للمسيحية . وكل شعب ، ككل فردية يعكس المسيحية ويعبر عنها بطريقته الخاصة . ولا بد ان تكون مسيحية الشعب الروسي مسيحية خاصة وذات ملامح فردية اصيلة . وهذا لا يتناقض في شيء مع الطابع العالمي للمسيحية التي تتصف وحدتها الشاملة بأنها عينية وليست مجردة . غير ان المسيحية الروسية تنطوي على خطر ، الا وهو ان ترى سيطرة العنصر الشعبي على اللوجوس العالمي ، العنصر الرجولي ، النفس على الروح . وهو خطر نلمسه عند دوستويفسكي نفسه . فكثيرا مايدعو الى الاله الروسي لا الاله العالمي . وتعصبه هو السمة اليهودية في تدينه .

وشخصية شاتوف شخصية مهمة من حيث انها تجمع في داخلها بين التيارين : التيار الثوري وتيار « المائة ـ السود »* Cent — Noiriste كما أنها تشهد على القرابة القائمة بينهما . ففي بعض الاحيان ، يكاد لايختلف الروسي الثوري المكسيمالي عن المنتمي الى جماعة « المائة السود » . والملامح المتشابهة بينهما بارزة على كل حال . وكلاهما يتجاوز الحدود في عبادة الشعب : فالعنصر الشعبي

Twitter: @ketab_n

يشوش عقلهما ويشل شخصيتهما ويفككها . وهذا هو ما يصنعه دوستويفسكي في النور ، وهو الذي يشعر في قرارة نفسه بهذا التيار الثوري وبتيار« المائة ـ السود » في آن واحد . فقد لاحظ في الشعب الروسي موجات من القلق ، ومن الشهوة ، ومن اللذة ، لم يفطن اليها الكتاب الروس « الشعبيون » . وليس عبثا ان طائفة الشليستي Chlisty قد ولدت في حضن الشعب الروسي بحيث اصبحت مظهرا مميزا له الى اقصى حد . ففي هذه الطائفة تجتمع ـ في الواقع ـ الارثوذكسية والوثنية القديمة في روسيا وعندما يتخذ التدين الروسي شكل الوجد ، فانها تكاد تبدو دائما في ملامح « النزعة الشليستية » Chlistysme هنا يتضح العنصر الشعبي الطبيعي اقوى من النور الشامل للوجوس . Logos

والصلة الضرورية بين العناصر الذكورية والانثوية ، بين الروح والنفس ، مُنبتّة في روسيا : وهذا هو مصدر جميع متاعبها التي تزعج ضميرها الديني والقومي في آن معاً ، ويصف آندريه بيلي Andre Biely في روايته « الحمامة الفضية » ذلك التيار من القلق الذي يسرى عبر الشعب الروسي ـ يصف ذلك التيار بقوة مذهلة من النفاذ الحدسي . فليست روسيا هي الغرب ، ولكنها ليست الشرق ايضا . انها ذلك الشرق الغربي الهائل الخاضع لتأثير التيارات الوافدة من الشرق والغرب . في هذا يكمن مافيها من تعقيد وإلغاز .

ويتمتع دوستويفسكي بموهبة تنبؤية ، تحقق التاريخ من صحتها . وقد أمكن وضعها موضع الاعتبار بحدة خاصة في اللحظة التي جرى فيها الاحتفال بالذكرى الاربعين لوفاته . بيد ان هذا هو الجانب السلبي ، لا الايجابي لتنبؤاته عن روسيا والشعب الروسي تلك التنبؤات التي تحققت . روايته « الممسوسون » كتاب تنبؤي . وهذا شيء بارز للعيان في الوقت الحاضر . غير ان التوكيدات التنبؤية لدوستويفسكي التي تزخر بها « يوميات كاتب » لم تتحقق . ومن العسير في الوقت الحاضر قراءة الصفحات التي تتحدث عن القسطنطينية الروسية ، وعن القيصر الابيض ، وعن الشعب الروسي بوصفه الشعب المسيحي بلا منازع . في هذه النقطة أخطأ دوستويفسكي خطأ جذريا ، وكان نبيئا سيئا . فهو يعتقد ان

Twitter: @ketab_n

« الانتلجنسيا » اصابتها عدوى الالحاد والاشتراكية . ولكنه يعتقد ايضا ان الشعب الذي لا يرحب بهذه الغوايات ، سيظل متمسكا بحقيقة المسيح . وهنا انحراف « لنزعته الشعبية » ؛ وقد اضعفت نزعة دوستويفسكي الشعبية موهبته التنبؤية . وكانت الثورة الروسية دحضا لهذه النزعة الشعبية ، اذ بينت ما فيها من وهم واكاذيب . لقد هجر « الشعب » المسيحية على حين اخذت « الانتلجنسيا » ـ على العكس من ذلك ـ في الرجوع اليها . فمن المهم جدا الا تخضع الحياة الدينية لشعب ما ـ من الآن فصاعدا ـ لوجهة نظر طبقة ، لم يتحرر منها السلافوفيل كما لم يتحرر منها دوستويفسكي ـ تحررا كافيا . بل من الضروري ـ على العكس ـ الاهابة بالشخصية ، والبحث عن الخلاص في اعماقها الروحية . وهذا حل يتفق تمام الاتفاق مع المزاج الروحي الاساسي لدوستويفسكي نفسه . ولقد انتهت النزعة السلافوفيلية ، كما انتهت نزعة الاستغراب . والآن يعرف الروس بعدا جديدا للوجود : واصبح من اللازم لهم تطوير وعي ديني وقومي جديد ، واكثر فحولة . وقد أسهم دوستويفسكي في تطوير هذا الوعي الجديد اسهاما لا حد له . بيد ان الروس يستطيعون ان يتعرفوا فيه على الغوايات التي تعرضوا لها ، وعلى الآثام التي اقترفوها . وعلى الدرب الموصل الى الحياة الجديدة والى النهضة الروحية (الرينيسانس) لا مناص من ان يسلك الروس عبر المهانة واليأس ، وكذلك عبر اقصى نظام روحي تفرضه الذات على نفسها Autodiscipline . وبهذا وحده يمكنها ان تسترد قوتها الروحية .

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن

المفتش الأكبر
المسيح وضد ـ المسيح

Twitter: @ketab_n

تمثل « اسطورة المفتش الأكبر » قمة العمل الفني لدوستويفسكي ، كما انها تعد تتويجا لجدله . ففيها ينبغي ان نلتمس آراءه البناءة عن الدين ، وهنا تنفك كل الخيوط ، وتُحَّل المشكلة الجوهرية ـ مشكلة الحرية الانسانية . وهو موضوع يمثل الاسطورة كلها ، وان يكن ذلك على نحو مستتر؛ ومن الغريب ان هذه الاسطورة التي تمثل دفاعا عن المسيح بقوة لم يسبق لها نظير ـ توضع على لسان ايفان كارامازوف الملحد . والحق ان هذا لغز ، ولا يتبين المرء الى أي جانب ينضم الراوي ، والى أي جانب ينضم المؤلف نفسه . والحرية الانسانية يمكن ان تُفسح المجال للتأويل والتكهن . كما نجد ايضا ان موضوع الاسطورة هو الحرية ، وانها تخاطب « الحرية » . فمن الظلمات ، ينبغي ان ينبثق النور . وهكذا نرى ان نفس الملحد المتمرد ايفان كارامازوف تنطوي على اطراء المسيح . ومصير الانسان يسوقه حتما ، اما نحو المفَتش الأكبر او صوب المسيح . ولا مناص من الاختيار ، لأنه لا وجود لحل ثالث . والحل الثالث لايمكن الا ان يكون حالة عابرة ، هي انكار الاطراف . ففي مذهب المفتش الأكبر ، يؤدي الطغيان الى ضياع حرية الروح وانكارها وهذه الحرية لايمكن العثور عليها ثانية الا في المسيح . والحيلة الفنية التي يلجأ اليها دوستويفسكي في سرده تدعو الى الاعجاب : اذ يظل مسيحه صامتا طيلة الوقت ، ساكنا في الظل . ذلك ان الفكرة الدينية الكافية Efficiente لايمكن التعبير عنها بأية كلمة . وحقيقة الحرية لاسبيل الى التعبير عنها ايضا . أما حقيقة القهر فيمكن التعبير عنها في يسر . واخيرا تنبثق الحقيقة عن الحرية من المتناقضات التي تكتنف أفكار المفتش الأكبر : وهي تبرز على نحو مبهر من جميع الاقوال التي يتمسك بها ضدها . وهذا المحو للمسيح ولحقيقته يعطي انطباعا فنيا ، قويا على نحو خاص . فالمفتش الأكبر يسوق الحجج ويقنع : فهو يمتلك منطقا قويا وارادة قوية تنزع نحو تحقيق خطة لا متناهية . بيد ان صمت المسيح وسكوته الوديع يقنعان ويؤثران بشكل أكثر حسما من كل ما تتمتع به محاجة المفتش الأكبر من قوة .

وفي الاسطورة ، نجد مبدأين كليين في مجابهة : الحرية والقهر ؛ الايمان

Twitter: @ketab_n

بمعنى الحياة ، وانكار هذا الايمان ، المحبة الالهية ، والشفقة الانسانية الخالصة ؛ المسيح ـ وضد المسيح. ويتناول دوستويفسكي الفكرة المعارضة لفكرة المسيح في حالتها الخالصة . وهو يرسم للمفتش الأكبر شخصية سامية . فيجعله ينتمي الى « الشهداء الذين يعذبهم حزن نبيل محب للبشرية » انه زاهد ، متحرر من كل رغبة مادية منحطة . رجل يحيا من أجل فكرة . وهو يمتلك سره : وهذا السر هو انكاره للاله ، انكاره لمعنى الحياة الخليق وحده بالعناء والذي يتعذب الناس باسمه . وبعد ان فقد المفتش الأكبر هذا الايمان ادرك ان عددا كبيرا من الناس لم يؤتوا القدرة على تحمل عبء الحرية التي كشف عنها المسيح . ذلك ان طريق الحرية طريق وعر ، مؤلم فاجع يتطلب نوعا من البطولة . وهو لايتناسب مع القوى المتاحة لمخلوق بهذه الهشاشة ، مخلوق خليق بمثل هذا الرثاء الا وهو الانسان . والمفتش الأكبر لايؤمن بالاله ، كما انه لا يؤمن بالانسان لان هذين مظهرين لاعتقاد واحد بعينه . ولهذا لا تقتضي المسيحية الايمان بالله فحسب وانما تقتضي ايضا الايمان بالانسان : المسيحية هي دين « الاله ـ الانسان » بيد ان فكرة « الاله ـ الانسان » هي بالضبط الفكرة التي يرفضها المفتش الأكبر، فكرة التقارب والاندماج بين المبدأين الالهي والانساني في حضن الحرية . والانسان لايستطيع ان يتحمل اختبار قواه الروحية ، وحريته الروحية ، وانتخابه لحياة اسمى . وحين نفرض عليه هذا الامتحان ، نكون مقدرين لقوته تقديرا عظيما : اذ نتطلب منه الكثير ، ونحكم عليه انه مختار لكرامة سامية . غير ان الانسان تهرب من حريته المسيحية ، ومن التمييز بين الخير والشر . « ولماذا التمييز بين هذين المبدأين الشيطانيين للخير والشر ، اذا كان هذا التمييز يكلفنا كل هذه المشقة ؟ » الانسان لايستطيع ان يتحمل عذابه الخاص ، او عذاب الاخرين ، بيد ان الحرية دون عذاب مستحيلة وكذلك التمييز بين الخير والشر مستحيل ايضا . وهكذا يجد الانسان نفسه في مواجهة ورطة : الحرية على جانب ، والسعادة والرفاهية والتنظيم العقلاني للحياة على الجانب الآخر . ايختار الحرية مع العذاب أم السعادة بلا حرية ؟ وتختار الغالبية العظمى من الناس الطريق الثاني ـ اما الاول

Twitter: @ketab_n

فوقف على صفوة ضئيلة . ويتخلى الانسان عن افكاره العظيمة عن الله ، وعن الخلود وعن الحرية ويستسلم لسيطرة حب زائف لجاره ، حب ليس للاله فيه نصيب ، تعاطف كاذب وتعطش لتنظيم ارضي يخلو من الاله . لقد تمرد المفتش الأكبر على الاله باسم الانسان ، باسم ادنى الأفراد ، أولئك الذين لا يؤمن بهم كما لا يؤمن بالاله . وهذه مسألة عميقة بوجه خاص . ذلك ان اولئك الذين ينذرون انفسهم لرفاهية البشر الارضية ، لايؤمنون في الواقع ، وفي اغلب الاحيان بأن الانسان خُلق لحياة اسمى ، لحياة الهية . والروح « الاقليدية » المشحونة بالتمرد وتحديد ذاتها ـ تحاول تنظيم الانسجام العالمي تنظيما افضل مما صنعه الاله . فالاله قد خلق نظاما كونيا مليئا بالعذاب ، وفرض على الانسان عبئا لا يحتمل من الحرية والمسؤولية . على حين ان الروح « الاقليدية » تشيد نظاما للعالم يخلو من هذا العذاب وتلك المسؤولية ، ولكنه يخلو ايضا من الحرية . فلا بد ان تفضي الروح « الاقليدية » حتما الى مذهب المفتش الأكبر ، اعني الى انشاء مملكة للنمل تحكمها الضرورة بإخماد حرية الروح . وهذه النغمة ظهرت فعلا في « الروح تحت ـ الارض » وفي « الممسوسون » وعبر عنها شيجالييف وفرهوفنسكي ووجدت خاتمتها في « اسطورة المفتش الأكبر » فاذا لم يكن للعالم معنى اسمى لم يعد للاله وجود ولا للخلود ، ولن يتبقى الا تنظيم الحياة الارضية وفقا لشيجالييف والمفتش الأكبر . والتمرد على الاله يؤدي حتما الى تحطيم الحرية . ولا بد ان تؤدي الثورة اذا اتخذت من الالحاد اساسا ـ الى استبداد لا محدود . والمفتش الأكبر هو انكار حرية الروح والاله ، والانسان والاله ـ الانسان ، وانسنة L'humanisatim الاله . ووجهة نظر مذهب السعادة مُعارضة بالضرورة للحرية .

وتتنافر حرية الروح الانسانية مع السعادة . الحرية شيء ارستقراطي ولا توجد الا من أجل الصفوة المختارة . والمفتش الأكبر يهنم المسيح بأنه قد فرض على الناس حرية تتجاوز قدرتهم وانه تصرف على هذا النحو وكأنه لايحبهم . « وبدلا من ان تستحوذ على الحرية الانسانية ، توسعت فيها . انسيت ان

Twitter: @ketab_n

الانسان يؤثر السكون ، بل الموت نفسه على حرية التمييز بين الخير والشر ؟ لاشيء اشد اغراء للانسان من حرية وعيه ، ولكن لاشيء ايضا اشد ايلاما منها . وها أنت بدلا من المبادىء الصلبة التي كان من الممكن ان تهدىء الوعي الانساني مرة واحدة والى الابد . ها أنت ذا لا تبعث الا ما هو غريب ، ملغز ، غير محدد ، وبهذا تصرفت وكأنك لم تكن تحب البشرية . » ولضمان سعادة البشر فلا بد من ان توضع ضمائرهم في حالة سكون ، أعني حرمانهم من حرية الاختيار . فقليل اولئك الذي يمكنهم ان يتحملوا عبء الحرية ، والاتجاه صوب ذلك « الذي كان يبغي الحب الحر للانسان » .

ويعتني المفتش الأكبر بالجماهير التي لا حصر لها كحبات الرمل في البحار والتي لا تستطيع احتمال محنة الحرية . وهو يرى ان الانسان « لايبحث عن الاله بحثه عن المعجزة » . وبهذه العبارات يعبر عن الرأي التافه الذي يذهب اليه عن الطبيعة البشرية ، وعن افتقاره الى الايمان بالانسان . ويستمر في توجيه اللوم الى المسيح : « انك لم تنزل عن الصليب .. لا لأنك لم تكن تريد الانتصار على الانسان بمعجزة ، وانما كنت متعطشا الى ايمان حر ، لا يتولد عن معجزة . ان ما كنت ترغب فيه هو حب ارادي ، لا فورات عبيد أمام قوة افزعتهم مرة واحدة والى الابد . بيد انك تقدر الناس تقديرا اعلى من اللازم : فهم ليسوا الا عبيدا حتى وان كانوا متمردين . » « ولأنك تُعْلي من قدر الانسان اكثر من اللازم ، فقد تصرفت دون رحمة من اجله ، وتطلبت الكثير منه . ولو انك وضعته وضعا ادنى لكنت أقل تطلبا . ولكان ذلك اشبه بالحب ، ان تفرض عليه عبئا اخف . فهو ضعيف وضيع . » ذلك ان الارستقراطية التي يتسم بها دين المسيح تزعج المفتش الأكبر . « كنت تستطيع ان تفخر بأبناء الحرية هؤلاء ، وبحبهم الحر ، وبالتضحية الحرة الجليلة التي قدموها باسمك . ولكن تذكر انهم لم يكونوا سوى بضعة آلاف ـ وانهم كانوا آلهة ايضا ـ ولكن ماذا عن الآخرين ؟ هل من خطئهم ، هؤلاء الآخرون ، البشر الضعفاء ، انهم لم يستطيعوا تحمل مايتحمله الاقوياء ؟ اهي خطيئة النفس الضعيفة انها لا تستطيع احتضان مواهب رهيبة ؟ اتراك لم

Twitter: @ketab_n

تأت حقا الا صوب المختارين ومن اجلهم ؟ » وهكذا يقف المفتش الأكبر مدافعا عن الانسانية الهشة ، وباسم حب البشر ينتزع منهم هذه الهدية من الحرية التي ترهقهم بألوان العذاب . « الا نحب الانسانية لأننا ندرك في تواضع ما تتصف به من ضعف ولأننا نريد ـ في حب ـ ان نخفف عن كاهلها ماتنوء به من عبء ؟ » وهنا يقول المفتش الأكبر للمسيح مايقوله الاشتراكيون عادة للمسيحيين : « ان الحرية وخبز الارض اذا تحقق توزيعهما بشيء من الدراية لايتفقان لأن الناس لن يعرفوا ابدا تقسيمهما فيما بينهم . وسيقتنعون ايضا بعجزهم عن ان يكونوا احرارا ، لأنهم ضعفاء . اشرار ، اصغار ، متمردين . وانت وعدتهم الخبز السماوي : ولكن هل يمكن ان يقارن بخبز الارض في نظر هذا الجنس البشري الضعيف الشرير الى الابد ، والجاحد الاى أبد الآبدين ؟ واذا جاءك ـ باسم الخبز السماوي ـ آلاف ، عشرات الألوف من الناس ، فما مصير الملايين ، وعشرات الملايين من الآخرين الذين لم يجدوا في انفسهم القدرة الكافية على احتقار خبز الارض باسم خبز السماء ؟ أينبغي الاعتقاد بأن عشرات الألوف من الأقوياء والأشداء هم وحدهم الاعزاء عليك ، على حين ان ملايين الآخرين الذين لايحصى عددهم كحبات الرمل في البحار ، الضعفاء الذين يعبدونك ينبغي ان يكونوا مجرد اداة للأقوياء والأشداء ؟ اما نحن فان الضعفاء هم الاعزاء لدينا ... » « باسم هذا الخبز الارضي نفسه تثور روح الارض ضدك ، وتتغلب عليك ، وحينئذ يهرع الجميع اليه ... فحيث كان معبدك يرتفع صرح جديد ، برج بابل جديد ومخيف . » وكانت الاشتراكية الملحدة تتهم المسيحية دائما بانها لم تجعل الناس سعداء ، وبأنها لم تمنحهم الراحة ، ولم تقدم اليهم الطعام . اما الاشتراكية الملحدة فأنها تنادى بدين الخبز الارضي ، الذي يجتذب ملايين وملايين من البشر ، في مضاد دين الخبز السماوي الذي لا تقبل عليه سوى حفنة ضئيلة ولكن اذا كانت المسيحية لم تجعل الناس سعداء ولم تقدم اليهم الغذاء فذلك لانها لم تكن تريد ان تنتهك حرية الروح الانسانية ، ولأنها تخاطب الحرية الانسانية ، ومن هذه الحرية تنتظر تحقيق كلمة المسيح . وليس الخطأ ؛

Twitter: @ketab_n

المسيحية ، اذا لم تشأ البشرية لهذه الكلمة أن تتحقق ، واذا كانت قد خانت هذه الكلمة . فما ذلك الا خطأ الانسان ، لا خطأ الاله ـ الانسان . أما بالنسبة للاشتراكية الملحدة والمادية ، فلا وجود لهذه المشكلة المأسوية مشكلة الحرية . فهي تنتظر تحققها ، وتخليص البشرية من تنظيم مادي ومحدد للحياة . وهي تريد ان تقهر الحرية وان تنتزع العنصر اللامعقول من الحياة باسم السعادة ، والتخمة والراحة . « وسيصبح الناس سعداء عندما يتخلون عن حريتهم » « وسنمنحهم سعادة صامتة ، متواضعة ، السعادة التي تصلح للمخلوقات الضعيفة . أوه ! وسنقنعهم في نهاية المطاف بألا يغتروا بأنفسهم ، فأنت الذي ربيتهم ، وانت الذي علمتهم الغرور ... وسنجعلهم يعملون بكل تأكيد ، ولكننا سوف ننظم حياتهم اثناء ساعات الفراغ ـ على طريقة لعب الاطفال بأناشيد طفولية ، وكورس ورقصات بريئة . بل سنسمح لهم بارتكاب الخطيئة لأننا نعلم أنهم ضعفاء مجردون من السلاح . » ويعد المفتش الأكبر بتخليص الناس « من ذلك الهم الكبير وصنوف القلق الفظيعة الحالية التي تنشأ عن اختيار الذات في حرية . وسيكون الجميع سعداء ملايين وملايين من البشر » « لقد اعرض المفتش الأكبر عن المغرورين والتفت صوب المتواضعين من أجل سعادتهم » . ولكي يبرر نفسه اخذ يلمح « الى عشرات الملايين من البشر الذين لم يعرفوا الخطيئة » . وهو يتهم المسيح بالغرور ، وهذه نغمة تتكرر كثيرا عند دوستويفسكي . ففي « المراهق » يقال عن فرسيلوف : « هذا انسان مغرور الى اقصى حد ، وكثير من هؤلاء الناس المغرورين جدا يؤمنون بالله ، وبخاصة اولئك الذين يبدون اشد الاحتقار . والسبب لهذا بسيط : فهم يختارون الله حتى لا ينحنوا امام الناس : لان الانحناء امام الله اقل جرحا لشعورهم . » فالايمان بالله علامة على سمو الروح ؛ والانكار علامة على روح تبقى على السطح . ويفهم ايفان كارامازوف ماتنطوي عليه فكرة الاله من جلال مذهل . « مايثير الدهشة ان هذه الفكرة فكرة ضرورة الاله ـ يمكن ان تتسلل الى رأس حيوان على هذه الدرجة من الوحشية والشر هو الانسان ، فهذه فكرة مقدسة ومؤثرة ، تارة ، ماكرة وتضفي الشرف على الفرد ، تارة

Twitter: @ketab_n

اخرى . » واذا وجدت في الانسان طبيعة عليا ، واذا كان مختارا لهدف اسمى ، فهذا لان الله موجود ولا بد من الايمان به . ولكن ، اذا لم يكن الاله موجودا ، فلن يكون للانسان ـ بالتالي ـ طبيعة عليا ولن يتبقى شيء سوى مملكة نمل اجتماعية مؤسسة على القهر . وفي « اسطورة المفتش الأكبر » يرسم دوستويفسكي لوحة ليوتوبيا اجتماعية ، لوحة يعرضها ايضا شيجاليف ، وفي كل مكان يحلم فيه الانسان بالانسجام المقبل للمجتمع .

وفي الاختبارات الثلاثة التي يرفضها المسيح ، « ثمة تنبو بالتاريخ المقبل للبشرية ، فهذه هي الاشكال الثلاثة التي يتحقق فيها التوفيق بين جميع المتناقضات التاريخية التي لاسبيل الى حلها في الطبيعة البشرية على الارض » وباسم حرية الروح الانسانية يُنَحِّي المسيح الغوايات ، رافضا ان تكتسب الروح الانسانية بواسطة الخبز ، او المعجزة ، او مملكة الارض . أما المفتش الاكبر ، فعلى العكس ، يرحب بهذه الغوايات الثلاث باسم سعادة البشر والتخفيف عنهم . وعندما يرحب بها يتخلى عن الحرية . وهو يوافق قبل كل شيء على عرض الروح المعنوية بتحويل الأحجار الى خبز . « لقد رفضت الراية المطلقة الوحيدة التي منحت لك والتي تجعل الناس ينحنون امامك دون ادنى شك ـ راية الخبز الارضي ـ وقد رفضتها باسم الحرية وباسم الخبز السماوي . » وانتصار الغوايات الثلاث تسجل ـ على نحو حاسم ـ تهدئة البشر على الارض . « كان من الممكن ان تعلم البشر كل ما يريدون معرفته على الارض ، اعني : من الذي ينبغي ان ينحنوا امامه والى من يفضون بما يدور في ضمائرهم ، وعلى اي نحو يستطيعون ان يتحدوا اخيرا لكي يؤسسوا مملكة النمل المشتركة ، المتحدة ، التي لاجدال فيها ـ ذلك لأن رغبة الاندماج العالمي هي العذاب الثالث والاخير للبشر . » ومذهب المفتش الأكبر يحل الاسئلة جميعا المتعلقة بتنظيم ارضي بشري .

* * *

يكمن سر المفتش الأكبر في انه ليس مع المسيح ، ولكنه مع « الآخر » « اننا لسنا معك ، وانما مع « الآخر » ، هذا هو سرنا » ولقد ظهرت روح المفتش

Twitter: @ketab_n

الأكبر ـ الروح التي تحوّل المسيح الى ضد ـ المسيح ـ تحت مظاهر متباينة في التاريخ . وكانت الثيوقراطية الكاثوليكية مظهرا من تلك المظاهر عند دوستويفسكي . ونستطيع ان نكتشف هذا الاتجاه نفسه في الارثوذكسية البيزنطية ، وفي كل حكم قيصري او امبراطوري . اما الدولة الواعية بحدودها فلا تعبر عن تصورات المفتش الأكبر ولاتثقل على حرية الروح . ويبدو ان المسيحية كانت تواجه دائما عبر مصيرها التاريخي الاغراء الذي يحرضها على انكار هذه الحرية للروح . ولم يكن ثمة شيء اصعب على الانسانية المسيحية من صون تكاملها ونزاهتها . والحق ، انه ما من شيء اشد ايلاما وارهاقا للانسان من الحرية ، ولانكار هذا العبء ، والقائه بعيدا ، يجد كل صنوف الامكانيات وهذا كله مع بقائه داخل المسيحية ، ذاتها . ونظرية السلطة التي تلعب مثل هذا الدور في تاريخ المسيحية ، يمكن ان تتحول في يسر الى انكار لسر الحرية المسيحية ، سر الاله المصلوب . والواقع ان سر الحرية المسيحية هو سر **الجلجثة** ، سر عملية الصلب . فالحقيقة ، التي وضعت على الصليب لا تجبر احدا ، ولا تضغط على أحد . ولا يمكن الاعتراف بها واحتضانها الا في حرية . والحرية المصلوبة تخاطب حرية الروح الانسانية . ولم ينزل المصلوب عن الصليب ،كما تطلّب المنكرون ،وكما نتطلب ذلك حتى عصرنا الحالي ـ لأنه كان « متعطشا الى الحب الحر ، لا الى الفورات الذليلة التي يبديها العبد امام قوة افزعته مرة واحدة والى الابد » . وهكذا ظهرت الحقيقة الالهية الى العالم ، مهينة ممزقة ، مصلوبة بواسطة قوى هذا العالم ، غير ان حرية الروح توطدت بهذه الواقعة نفسها . ذلك أننا لا نتطلب حقيقة الهية باهرة القدرة ، ظافرة في العالم ، ومسيطرة بالقوة على النفوس الانسانية ـ لا نتطلب مثل هذه الحقيقة لفهم حرية الروح . وفي هذا كان سر الجلجثة هو سر الحرية . فكان لابد من يوضع ابن الرب على الصليب بواسطة قوى هذا العالم حتى تتأكد حرية الروح الانسانية . وفعل الايمان هو فعل من افعال الحرية ، هو حرية الاعتراف بعالم الاشياء غير المرئية . والمسيح بوصفه ابن الرب جالسا على يمين الأب ، لايُرى الا بفعل الايمان الحر وحده . والروح التي

Twitter: @ketab_n

تؤمن في حرية تشاهد بعث « المصلوب » في « المجد » غير ان الكافر الذي يستحوذ عليه عالم الاشياء المرئية (عالم الشهادة) وحده ، لن يشاهد سوى التنكيل الشائن بالمسيح النجار ، وانهيار وخسران ما اعتقد انه الحقيقة الالهية . وكل سر المسيحية كامن هنا . وفي كل مرة ـ كانت هناك محاولة ـ في تاريخ المسيحية الى تحويل « الحقيقة » المصلوبة ، التي تخاطب حرية الروح ، الى « حقيقة » تضغط على هذه الروح ـ كان في ذلك خيانة للسر الاساسي للمسيحية . وعندما تتصرف الكنيسة على هذا النحو فانها ترتدي دائما قناع السيادة وتستحوذ على سيف القيصر . فمن ناحية يتخذ تنظيم الكنيسة طابعا يهوديا وتخضع حياة الكنيسة لقواعد القهر اليهودي . ومن ناحية اخرى يتخذ المذهب القطعي (الدجماطيقي) للكنيسة طابعا عقلانيا اذ تخضع حقيقة المسيح لقواعد القهر المنطقي . الايريد ذلك ان يقول ان المسيح كان ينبغي ان ينزل عن الصليب حتى نؤمن به ؟ ففي الفعل التلقائي تماما للصليب ، وفي سر الحقيقة المطلوبة ، لا نجد اثرا لتوكيد او لضرورة منطقية او قانونية . واضفاء الطابع القانوني والعقلي على حقيقة المسيح معناه العبور من درب الحرية الى درب القهر . وقد ظل دوستويفسكي مقتنعا بالحقيقة المصلوبة ، بدين الجلجثة ، أي بدين الحرية . وكان المصير التاريخي للمسيحية على نحو جعل هذا الايمان يتردد بوصفه صيغة جديدة للمسيحية . ومن ثم ، فان مسيحية دوستويفسكي تبدو كانها مسيحية جديدة ، وان ظلت مخلصة للحقيقة القديمة التقليدية للمسيحية . ويبدو ان دوستويفسكي في تصوره للحرية المسيحية يتجاوز حدود الارثوذكسية التاريخية . فلم تعد نظرياته اكثر قبولا عند التصور الارثوذكسي منها عند التصور الكاثوليكي ، بيد ان نزعة المحافظة الارثوذكسية لابد ان تصاب بالفزع نتيجة لحرية روحه اللا محدودة ، وبما فيه من ثورية على مستوى الروح . ولما كانت هذه هي حالة كل عبقرية عظيمة ، فان دوستويفسكي يقف على القمة . فالمذاهب الدينية المتوسطة لاتعدو ان تكون مذاهب سطحية . والطابع العالمي لأي مذهب ديني هو فكرة كيفية تماما ولاتمت بصلة الى العدد : ومن الممكن ان تظهر بقوة اشد في جماعة صغيرة منها في ملايين

Twitter: @ketab_n

الافراد . وتستطيع العبقرية الدينية ان تعبر عن نفسها بكيفيتها أفضل مما يعبر الجمهور بكثرته . وهذه هي الحالة دائما . وكان دوستويفسكي وحيدا في مساندة تصوره للحرية المسحية ، اذ وقف العدد ضده . ونظرياته عن الحرية قريبة من نظريات خومياكوف Khomiakov التي تعلو دائما فوق النظرية الارثوذكسية الرسمية . والواقع ان ارثوذكسية خومياكوف ودوستويفسكي ليست هي مسيحية المطران فيلاريت وتيوفان الناسك .

ومن الممكن ان تظهر روح المفتش الأكبر ايضا في « اليمين » المتطرف ظهورها في « اليسار » المتطرف . وقد استمرت افكاره على ايدي الثوريين والاشتراكيين ، وعند فرهوفنسكي وشيجالييف . ويفترض شيجالييف ـ لوضع حل نهائي للمسألة ـ تقسيم البشرية الى قسمين غير متساويين . فيتلقى عشر الناس الحرية الشخصية وحقا غير محدود على تسعة الاعشار الباقية . وهؤلاء الآخرين ينبغي ان يجرَّدوا من شخصيتهم وان يساقوا الى حالة القطيع ، وبطاعتهم اللامحدودة وفي نفس الوقت الذي يرون فيه ميلادا جديدا لبراءتهم البدائية ، ويبلغون نوعا من الفردوس الاصلي ، عليهم ان يعملوا فيه . » وقد كان شيجالييف ـ كما كان المفتش الأكبر متعصبا « للحب الانساني » . ويرى هذا الثوري ـ كما يرى المفتش الاكبر ـ « ان العبيد ينبغي ان يكونوا متساوين ؛ وبدون استبداد ، لن توجد حرية ولن توجد مساواة ولكن حيثما يوجد قطيع فلابد ان تسود المساواة » . أجل ليست المساواة ممكنة الا تحت حكم الاستبداد . وفي الاتجاه الى المساواة يسير المجتمع حتما صوب الاستبداد ولا مناص من ان تفضي الاتجاهات التي تنادي بالمساواة الى لا مساواة صارخة في واقع الامر ، والى طغيان أقلية ضيئلة على الغالبية العظمى . وهذا هو مافهمه دوستويفسكي ، وبرهن عليه بطريقة رائعة . وفي « اسطورة المفتش الأكبر » كانت الاشتراكية هي ما وضعه نصب عينيه اكثر من الكاثوليكية التي لم يكن يعرفها الا معرفة سطحية ، ومن الخارج . والمملكة المقبلة للمفتش الاكبر اقل اتفاقا مع الكاثوليكية منها مع اشتراكية الملحدة والمادية . ذلك ان الاشتراكية تقبل الغوايات الثلاث ، التي

Twitter: @ketab_n

رفضها المسيح في الصحراء فهي تنكر حرية الروح باسم السعادة وراحة الجماهير . وتغريها ـ قبل كل شيء ـ اليوتوبيا التي تحيل الحجارة الى خبز . واذا كانت الحجارة تستطيع ان تتحول الى خبز ، فبأي ثمن فاحش يحدث هذا ـ بثمن الحرية الانسانية . فالاشتراكية تؤمن بملكوت هذا العالم وتنحني امامه . غير ان ملكوت هذا العالم لايمكن بلوغه الا بانكار الحرية الروحية وهكذا يكون المذهب الاشتراكي ، وهو الدين الذي يعارض الدين المسيحي ـ مشابها لمذهب المفتش الاكبر : فكلاهما قائم على انعدام الايمان « بالحقيقة » و« الفكر » . فان لم تكن ثمة « حقيقة » لم يعد هناك « فكر » ، ولم يتبق الا مفهوم واحد متسام ، هو التعاطف نحو جمهور البشر والرغبة في جعلهم يتذوقون سعادة عفوية في لحظة الحياة الارضية العابرة . وهنا تتعلق المسألة ـ كما هو مفهوم جيدا ـ بالاشتراكية من حيث هي دين جديد ، لا من حيث هي مذهب للاصلاحات الاجتماعية او تنظيم اجتماعي يمكن ان تجد فيه ما يبررها .

والمفتش الأكبر ممتلىء بالشفقة نحو البشر وهو ديمقراطي واشتراكي . وقد اغراه الشر الذي استعار قناع الخير . ذلك ان مبدأ ضد ـ المسيح ليس هو مبدأ الشر الذي يظهر مباشرة فهذا مبدأ عتيق مبتذل . كلا انه مبدأ جديد مهذب وجذاب يتخذ دائما مظهر الخير وبين مبدأ الشر ضد ـ المسيحي ، ومبدأ الخير المسيحي هناك تشابه ينشأ عنه خطر الخلط والاستبدال . فها هي صورة الخير تبدأ في الازدواج . ولم تعد صورة المسيح تدرك بوضوح ، بل أخذت تميل الى الاختلاط بصورة ضد ـ المسيح . وبدأ في الظهور اشخاص ذوو افكار مزدوجة . وقد رأينا ان مؤلفات ميريجكوفسكي Merejkovski كلها تعكس هذا الخلط ، هذا الاستبدال الدائم . وقد تنبأ دوستويفسكي بهذه الحالة من حالات الروح ، ووصفها لنا على نحو تنبؤي . وتتجلى غواية ضد المسيح للانسان عندما يبلغ المرحلة القصوى للازدواجية . فهنا تنهار دعائمه النفسية . وتنمحي المعايير القديمة المعتادة دون ان تولد معايير جديدة بعد . والتطابق بين وصف الروح ضد ـ المسيحية عند دوستويفسكي في « اسطورة المفتش الأكبر » وفي غيرها من

Twitter: @ketab_n

المواضع وعند فلاديمير سولوفييف Vladimir Soloviev في كتابه « عن ضد ـ المسيح » De L'Antechrist بارز للعيان . فعند فلاديمير سولوفييف ايضا نجد ضد ـ المسيح انسانيا Humanitaire فهو يقبل الغوايات الثلاث وهو يريد ان يجعل البشر سعداء وان يدبر لهم فردوسا ارضيا تماما كما يفعل المفتش الاكبر وشيجالييف . وهناك وصف مماثل لروح ضد ـ المسيح قدمه الكاتب الانجليزي الكاثوليكي بنسون Beson في روايته الهامة تحت عنوان « سيد العالم » Maitre du Mande وتثبت رواية بنسون لدوستويفسكي ـ فضلا عن ذلك ـ ان عدوى روح المسيح لم تصب الكاثوليك جميعا ونحن نجد عند بنسون نفس المشاعر المسبقة ونفس التنبؤات التي نجدها عند دوستويفسكي وفلاديمير سولوفييف .

ويستند تفتح الجدل الدوستويفسكي على نقيض الموضوع بين الاله ـ الانسان والانسان الاعلى (السوبرمان) بين المسيح وضد ـ المسيح . ففي تصادم هذين العنصرين المتناقضين يتحقق المصير الانساني . واكتشاف فكرة الانسان الذي ينصب نفسه الها ينتمي الى دوستويفسكي وهي فكرة تبلغ درجة خاصة من الحدة في شخصية كيريلوف . فهنا نغوص نهائيا في جورؤيا « نهاية العالم » Apocalypse وهنا توضع المشكلة الاخيرة للمصير الانساني . يقول كيريلوف وكأنه يهذي « سيأتي الانسان الجديد سعيدا مزهواً . ولن يبالي ان عاش او لم يعش فسيكون الانسان الجديد . وسيتغلب على الشر وعلى الشهوة ، بل سيكون الاله نفسه ، اذ لن يوجد اله بعد . » « ... الاله هو الألم الذي يعطي الخوف من الموت . وهذا الذي ينتصر على الالم والخوف سيكون هو نفسه الاله ومن ثم ستكون هناك حياة جديدة وأناس جدد . كل شيء سيكون جديدا . » « سيصبح الانسان الها ، وسيتغير مظهره الجسدي ، وسيتحول العالم بأكمله وستتغير الاشياء والافكار والمشاعر جميعا .... » « ومن يجرؤ على قتل نفسه فهذا هو الاله . وهكذا يمكن ان يتصرف كل انسان على انه لاوجود للاله وعلى ان شيئا لا يكون . » ولا يؤمن كيريلوف بأبدية المستقبل ولكنه يؤمن بحياة حاضرة ابدية عندما « يتوقف الزمان بغتة ويصير ابدية . » وسوف « يُستوعب الزمان في

Twitter: @ketab_n

الروح » وهذه الروح «ستضع حدا لنهاية العالم » وسيكون اسمه « الانسان الأعلى » . فيتساءل ستافروجين : « الاله الانسان ؟ » فيجيب كيريلوف : « كلا الانسان الاله ، الانسان الأعلى وهنا يكمن الاختلاف . » والطريق المؤدية الى تأليه الانسان هي نفسها الطريق المؤدية ـ على نحو عام ـ الى مذهب شيجالييف ومذهب المفتش الأكبر . ومن الناحية الفردية تفضي الى التجربة الروحية لكيريلوف . ان كيريلوف يريد ان يكون منقذا للانسان وان يمنحه الخلود . ومن أجل هذا ، وبفعل عشوائي يقدم نفسه قربانا فيقتل نفسه ، بيد ان موت كيريلوف ليس موتا مسيحيا ! انه ليس جلجثة تحمل الخلاص . وموته يتعارض في كل شيء مع موت المسيح ، ذلك لأن المسيح قد حقق مشيئة الأب اما كيريلوف فقد حقق مشيئته الخاصة ، وأظهر طغيانه . « فهذا العالم » هو الذي وضع المسيح على الصليب . أما كيريلوف فقد قتل نفسه . والمسيح يكشف عن حياة ابدية في عالم آخر . أما كيريلوف فريد ان يؤكد ابدية الحياة الحاضرة . وسبيل المسيح يبدأ من الجلجثة وينتهي بالبعث والانتصار على الموت . أما سبيل كيريلوف فينتهي الى الموت ويجهل البعث . والموت هو الذي ينتصر على طريق الانسان المؤله . والانسان الوحيد الذي تحول الى إله ولم يكن فانيا هو الاله ـ الانسان ، المسيح . بيد ان الانسان يريد ان يكون نقيض الاله الانسان ، يريد ان يكون مضادا له وان يشبهه في آن واحد ويبين لنا دوستويفسكي في كيريلوف الحد الاقصى لهذه الفكرة فكرة تأليه الانسان وافلاسها الداخلي . واختار في كيريلوف مخلوقا نقيا زاهدا مثلما كان المفتش الأكبر تماما . وفي جو من النقاء الكامل تتطور التجربة غير ان الطريق الذي يقطعه الانسان في مؤلفات دوستويفسكي ، طريق الازدواجية هذا يؤدي الى ذلك الانسان الاعلى ويبين في نهاية الأمر ، الى أي حد يكون تصوره مدمرا للصورة الانسانية .

* * *

و « اسطورة المفتش الأكبر » هي الموضع الذي ينبغي ان نلتمس فيه الشطر البناء من أفكار دوستويفسكي الدينية ، وتأويله الاصيل للمسيحية . فهنا يتجلى دوستويفسكي اكثر عبقرية ، واشد اتساقا منه على لسان زوسيما او آليوشا

Twitter: @ketab_n

او فيما نثره من تعاليم في « يوميات كاتب » . وصورة المسيح المحتجبة تتشابه مع صورة زرادشت عند نيتشه . فهي نفس الروح من الحرية المترفعة ، ونفس العلو السامق ونفس الروح الارستقراطية . وهذه سمة اصيلة للفهم الذي كان لدى دوستويفسكي عن المسيح ، وهي سمة لم يؤكدها احد بعد . فما من احد قبله وحد الى هذه الدرجة بين صورة المسيح وبين حرية الروح التي لا تبلغها الا حفنة قليلة من الرجال . ولم تكن حرية الروح هذه ممكنة الا لأن المسيح تخلى عن كل سلطان زمني . ذلك لأن ارادة القوة تحرم من الحرية الانسان الذي يملك السلطة وأولئك الذين يمارسها عليهم . ولم يكن المسيح يعرف غير سلطان الحب فهو وحده الذي يتوافق مع الحرية . ودين المسيح هو دين الحب ودين الحرية ، الحب الحر بين الله والبشر وكم يختلف مثل هذا التصور مع السبل التي حاولوا بها ـ على مر التاريخ ـ تحقيق المسيحية في العالم ! وليست الكاثوليكية المحافظة هي وحدها التي تجد صعوبات عظيمة في الاعتراف بدوستويفسكي كواحد منها ـ بل هذا ماتجده الارثوذوكسية المحافظة ايضا . فبالعنصر التنبؤي الذي كان فيه وبتوجهه صوب كشف جديد في المسيحية ـ استطاع ان يتجاوز حدود المسيحية التاريخية . والافكار الفعالة التي ضمنها دوستويفسكي كتابه « يوميات كاتب » لا تعكس كل ما في آرائه الاجمالية عن الدين من عمق وتجديد . فهاهنا عارف بالباطن e'soterique يحاول ان يضع نفسه على مستوى الفهم المتوسط . ولكي نعرف افكاره الدينية الى منتهاها فلابد ان نضع انفسنا داخل انوار المعرفة الرؤياوية . ذلك ان مسيحية دوستويفسكي مسيحية رؤياوية ، وليست تاريخية . وهو يضع مشكلة رؤياوية يتعذر علينا ان نضغط حلها داخل اطار المسيحية التاريخية . وشخصية كل من زوسيما وآليوشا ـ وهما الشخصيتان اللتان ربط بهما دوستويفسكي الشطر الايجابي من نظرياته الدينية فلا يمكن اعتبارهما ناجحين بخاصة من الوجهة الفنية ، بل ان شخصية ايفان كارامازوف اقوى منهما الى مالانهاية ، وأكثر اقناعا ؛ ومن خلال هذه الظلمات المتراكبة يخرج نور أكثر حياة . ولم يكن من قبيل المصادفة ان دوستويفسكي ابعد زوسيما عن بداية الكتاب . فما كان يستطيع ان

Twitter: @ketab_n

يتعقبه خلال الرواية كلها . وأيا كان الأمر ، فقد افلح في اضفاء بعض سمات مسيحيته الجديدة عليه . ذلك ان زوسيما لايمثل الستارتز(Starets الأب) التقليدي : فهو لايشبه الأب آمبرواز Ambroise الذي عاش في دير اوبتين Optyne والذي لم يكن دوستويفسكي يعترف بأنه من شخصياته . وكان زوسيما يسلك فعلا الطريق المأسوي حيث يقود دوستويفسكي الانسان . وقد ادرك ـ على نحو رائع ـ في هذا الرجل مايمكن ان نسميه التيار الكارامازوفي . فقد كان قادرا (أي زوسيما) على ان يجيب على هذه المعاناة الجديدة للبشرية ـ تلك المعاناة التي لم يكن الآباء ذوو التكوين القديم يفهمون عنها شيئا وكان ملتفتا فعلا صوب مسرة البعث . اما الأب في دير اوبتين (آمبرواز) فما كان يستطيع في اغلب الظن ان يقول : « اخواني لاتفزعوا من خطيئة الانسان ولكن احبوه حتى في خطيئته لان هذا الحب هو ما يشبه الحب الالهي ، وهو أكثر من الحب الارضي . احبوا كل ما خلق الله ، الكل ، وكل حبة رمل صغيرة . أحبوا كل ورقة شجر ضئيلة كل شعاع الهي ، كل الحيوان ، وكل النبات ، احبوا كل شيء سوف تحبون كل شيء ، وفي كل شيء تصلون الى سر الاله ... » أحبب ان تنبطح على الارض ، وان تحتضنها . عانق الارض احببها حبا لا كلل فيه ، ولاشبع ، احبب الناس جميعا والاشياء جميعا ، ابحث عن هذا الوجد وعن تلك النشوة . بلل الارض بدموع فرحك وأحبب هذه الدموع التي سكبتها . لا تخجل من تلك السورات بل ـ على العكس ـ اعتز بها لأنها هبة الهية لاتمنح للجميع ، وانما لحفنة مصطفاة فحسب . » ولقد كان هذا الوجد مجهولا تماما ـ وبكل تأكيد ـ للأب آمبرواز . ولم تكن فيه اية سورة صوب الارض الصوفية ، صوب فهم جديد للطبيعة . ونستطيع ان نلتمس في تلك السورة سمة من التشابه مع القديس فرانسوا الاسيسي الذي تجاوزت عبقريته الدينية ـ عنده هو ايضا ـ حدود القداسة الرسمية . غير ان تربة اومبري Ombrie تختلف كثيرا عن التربة الروسية ، والزهور التي تفتحت هنا وهناك ليست واحدة . فهذه الزهرة من القداسة الشاملة التي ازدهرت فوق التربة الاومبرية ـ لانظير لها . ولم يكن زوسيما سوى تعبير عن رؤي دووستويفسكي التنبؤية وهي رؤي لا

Twitter: @ketab_n

سبيل الى التعبير عنها في قالب فني ناجح تماما وهذه القداسة الجديدة ينبغي ان تظهر بعد ان يكون الانسان قد قطع طريقه الفاجع . وزوسيما يتبدى لورح « الانسان تحت ـ الارض » لراسكولنيكوف وستافروجين وكيريلوف وفرسيلوف بعد ان ظهر لامبراطورية آل كارامازوف . ولكن من داخل امبراطورية آل كارامازوف نفسها كان لا بد ان يظهر الانسان الجديد ولابد ان تولد النفس الجديدة .

وهذه الولادة للنفس الجديدة صورت في الفصل من رواية « الاخوة كارامازوف » الذي عنوانه « قانا الجليلي » Cana de Galilee وهنا ايضا تهب مرة اخرى نفحة من مسيحية القديس يوحنا . وكان نور هذه المسيحية للقديس يوحنا قد اضاء لآليوشا بعد ان غمر نفسه قلق الظلمات ؛ فعرضت له الحقيقة الباهرة لدين البعث بعد ان عانى المرارة اللامتناهية للموت والتحلل . لقد كان مدعوا الى حفل العرس ، فلم يعد يشهد الاب زوسيما في قبره او يشم رائحة التعفن الوهمية . « لقد ذهب اليه ذلك العجوز الضئيل النحيل التي ملأت الغضون وجهه ... ذهب اليه ضاحكا في مرح وصمت . لم يعد القبر موجودا بل كان مرتديا ملابس الأمس عندما كان جالسا معهم والضيوف متحلقين حوله . وكان وجهه سافرا تماما ، وعيناه تلمعان ، فلم يكن من شك انه هو الآخر من الحفل ، وأنه دعي ايضا الى عرس قانا الجليلي . » وقال له العجوز النحيل : « فلنشرب الخمر الجديدة خمر السرور الجديد العظيم . » وفي نفس آليوشا انتصر البعث على الموت والتحلل . لقد مر بولادة جديدة . « وكانت نفسه المترعة بالوجد متعطشة الى الحرية ، الى الفضاء الى الرحابة . » « وبدا الصمت الارضي وكأنه يمتزج بصمت السموات وانضم السر الارضي الى سر النجوم .. كان آليوشا واقفا شاخص البصر ، وفجأة وكأنما انهارت تحته ساقاه ارتمى على الارض . ولم يكن يعرف لماذا احتضنها ، ولايستطيع ان يعلل لماذا يشعر برغبة لا تقاوم لعناقها كلها ؛ ولكنه عانقها باكيا منتحبا غامرا اياها بدموعه واقسم وهو في شدة وجده ان يحبها ، ان يحبها حتى تفنى القرون ... ولكنه كان يشعر في كل لحظة شعورا واضحا ، وبطريقة نابضة

Twitter: @ketab_n

بالحياة ـ ان صح هذا التعبير ـ بأن شيئا راسخا لا يتزعزع كمسيرة الكواكب ، ينفذ متغلغلا في نفسه . واستحوذت عليه فكرة طيلة حياته كلها حتى نهاية الزمان . كان اشبه بطفل ضعيف عندما هوى على الارض ولكنه نهض محاربا صلبا ، طيلة الحياة كلها وهذا هو ما شعر به وادركه على الفور ، في لحظة وجده ذاتها وعلى هذا النحو . ينتهي عند دوستويفسكي طريق الحيرة الانسانية فالانسان المنتزع من الطبيعة المستأصل من الأرض ، يسارع نحو الجحيم . وفي نهاية شوطه يعود الانسان الى الارض ، الى الطبيعة ، فيتحد من جديد بالكل الكوني الكبير . بيد ان ذلك الذي سلك سبيل الطغيان والتمرد لن توجد بالنسبة اليه هذه العودة الطبيعية الى الارض . فليست هذه العودة ممكنة الا بواسطة المسيح ، بواسطة « قانا » فمن خلال المسيح ، يعود الانسان الى الارض الصوفية ، الى وطنه الى « عدن » الطبيعة الالهية . وهنا تتسامى الارض والطبيعة . أما الأرض القديمة والطبيعة العتيقة فقد اغلقتا في الوقت الحاضر في وجه الانسان الذي عرف الاستبداد والازدواجية . فلا رجوع الى الفردوس المفقود . وعلى الانسان ان يذهب صوب فردوس جديد . واصطدام المسيحية القديمة « السوداء » المتحجرة المتطيرة ، بالمسيحية الجديدة « البيضاء » يتجسد في شخصية الاب ثيرابونت Theraponte عدو زوسيما . وثيرابونت يمثل انهيار الدين الارثوذوكسي وموته انهياره في الظلمات . أما زوسيما ـ فعلى العكس ـ اذ يمثل بعث الارثوذوكسية وظهور روح جديدة فيها واختلاط « الروح القدس » بالروح المقدسة (او الالهام المقدس) هو علامة على ان الظلمات قد ابتلعت نهائيا نظرية ثيرابونت . وكان هذا الاب يطوي صدره على مشاعر سيئة تجاه زوسيما بيد ان المسيحية التي يفهمها آليوشا ، هي مسيحية زوسيما وليست مسيحية ثيرابونت وبهذا ينتمي الى الروح الجديدة . يقول زوسيما : « وذلك ان اولئك الذين انتزعوا انفسهم من المسيحية وتمردوا عليها ليسوا بماهيتهم اقل تشخيصا من المسيح نفسه ، وعلى هذا النحو سيبقون . » هذه الكلمات ـ التي تعد غير مألوفة بالنسبة لثيرابونت ـ تشهد بأن الصورة والتشابه الالهيين لم

Twitter: @ketab_n

يضيعا نهائيا في راسكولنيكوف ، وستافروجين وكيريلوف وايفان كارامازوف وانما امكانية الرجوع الى المسيح مازالت متاحة لهم ، هذا الرجوع الى المسيح الى الوطن المفقود سيحققونه بواسطة آليوشا .

* * *

كان دوستويفسكي كاتبا مسيحيا عميقا في مسيحيته . وأنا لا أعرف كاتبا أعمق منه في هذا الباب ، والمناقشات التي تدور عن مسيحية دوستويفسكي تمس السطح أكثر مما تمس الاعماق . يقول شاتوف لستافروجين : « لاتقل لي انهم لو استطاعوا ان يثبتوا لك رياضيا ان « الحقيقة » تقع خارج المسيح فانك تؤثر ان تبقى مع المسيح على ان تبقى مع الحقيقة ؟ » هذه الكلمات الموجهة الى ستافروجين كان يمكن ان يتفوه بها دوستويفسكي ولابد انه فعل ذلك أكثر من مرة . فقد احتفظ طيلة حياته كلها بارتباط وحيد فريد مع المسيح . وكان من اولئك الذين يؤثرون التخلي عن «الحقيقة » بأسم المسيح على ان يتخلى عن المسيح نفسه . فالحقيقة ـ بالنسبة اليه ـ لا توجد خارج المسيح . وكانت مشاعره مشبوبة ، وحميمة في عمق . وهذا العمق في مسيحية دوستويفسكي ينبغي ان نلتمسه ـ قبل كل شيء ـ في الصلة التي تربطه بالانسان وبالمصير الانساني . مثل هذه الصلة ليست ممكنة الا في تصور مسيحي . وهي تمثل عند دوستويفسكي الانتصار الباطني للمسيحية . وهذه التعاليم نستخلصها من مؤلفاته بقوة اشد مما نستخلصها من تعاليم زوسيما او من « يوميات كاتب » : فهناك شيء لا سابقة له في أي أدب من الآداب . ذلك ان دوستويفسكي يدفع بنزعة « التمركز حول الانسان » Anthropo centrisme المسيحية حتى نتائجها المتطرفة . فالدين يتغلغل على نحو حاسم في العمق الروحي للانسان . وهو عمق روحي مردود اليه . ولا يتحقق ذلك وفقا للتصور الالماني او وفقا للتصوف والمثالية الالمانيين حيث تختفي صورة الانسان نفسها في هاوية الروح وتفنى في حضن الألوهية . والامر على العكس من ذلك تماما عند دوستويفسكي ـ اذ تبقى الصورة الانسانية حتى الاعماق الاخيرة . وفي هذا كان دوستويفسكي مسيحيا صرفا . واذا اردنا ان نلتمس

Twitter: @ketab_n

الميتافيزيقا المسيحية عند دوستويفسكي فلابد ان نلتمسها قبل كل شيء في « اسطورة المفتش الأكبر » ، التي لم تسبر بعد اغوارها السحيقة ولم توضح اعماقها البعيدة توضيحا كافيا فهذه « الاسطورة » تنطوي على الكشف الحقيقي عن الحرية المسيحية .

* * *

كان دوستويفسكي نبي الفكرة الثيوقراطية التي تتميز بها حقا الارثوذوكسية الروسية ، النور الديني النابع من الشرق وقد عبر عن هذه الايديولوجية الثيوقراطية في « الاخوة كارامازوف » وثمة افكار مختلفة تدور حول هذه الايديولوجية نجدها متناثرة في مواضع عديدة من « يوميات كاتب » : وقد بدت بالنسبة للبعض على انها اساسية بين افكار دوستويفسكي . ونحن لا نستطيع ان نتفق معهم . بل على العكس انها لا تبدو فكرة اصيلة بوجه خاص كما انها تناقض في احيان كثيرة افكار دوستويفسكي الدينية التي تعد افكارا شخصية بعمق ، والفكرة الثيوقراطية تنتسب بماهيتها الى « العهد القديم » وهي فكرة يهودية تخللت فيما بعد الروح الرومانية . وهي لا تنفصل عن تصور الاله وفقا للعهد القديم . والثيوقراطية (الحكم الالهي او الديني) لايمكن الا ان يكون قهرا . و « الثيوقراطية الحرة » (وهذا تعبير وضعه فلاديمير سولوفييف) عبارة عن تناقض في الحدود Contradictio in Adjecto وفضلا عن ذلك فان كل الثيوقراطيات التاريخية سواء السابقة على المسيحية او المسيحية كانت استبدادية وخلطت بين مستويين للوجود ، بين نظامين ، نظام السماء ونظام الارض ؛ نظام الروح ونظام المادة ، نظام الكنيسة ونظام الدولة . والفكرة الثيوقراطية تتصادم حتما مع الحرية المسيحية . وفضلا عن ذلك فان دوستويفسكي في « اسطورة المفتش الأكبر » يوجه الضربات الاخيرة ، اعنف الضربات الى هذه الفكرة الكاذبة عن فردوس ارضي . ذلك ان حرية المسيح ليست ممكنة الا بالتخلي عن كل ادعاء بالسلطة الارضية . بيد انه في الفكرة الثيوقراطية عند دوستويفسكي نفسه - تمتزج عناصر متنافرة واشياء قديمة وجديدة . كما نجد فيها ايضا الادعاء الكاذب

Twitter: @ketab_n

اليهودي ـ الروماني القائل بأن الكنيسة مملكة زمنية . وكذلك نجد فيها افكار القديس اغسطين . ويرتبط بهذه الفكرة الثيوقراطية الباطلة عند دوستويفسكي تصور باطل ايضا عن الدولة وفكرة قاصرة عن قيمتها المستقلة ، عن قيمة دولة ليست ثيوقراطية ولكنها زمنية تستمد تبريرها الديني الخاص من ذاتها لامن الخارج على نحو جواني ، لا متعالى . ولابد ان تخل الثيوقراطية حتما الى القسر وان تصل الى انكار حرية الروح ، حرية الضمير ، اما فيما يتعلق بالدولة فأنها تتضمن اتجاها فوضويا يوجد ايضا عند دوستويفسكي . ويشكل سمة روسية اصيلة ربما كانت تكشف عن مرض روسي . وأصالة هذه الروح الروسية تحيا في تطلعها الرؤياوي ، في حدسها بالمستقبل . فهي نزعة رؤياوية تنطوي من ذاتها على شيء عليل ، على عيب في الفحولة الروحية ولم تستطع هذه النزعة الرؤياوية الروسية ـ على الرغم من تنبؤات دوستويفسكي ـ ان تتحاشى غواية روح ضد ـ المسيح . فلم تكن « الانتلجنسيا » وحدها هي التي استجابت بقلب خفيف « للغوايات الثلاث » وقطعت صلتها بالحرية الاصيلة للروح بل استجاب « الشعب » ايضا . ويمثل دوستويفسكي المنبع الروحي الاصلي للتيار الديني الرؤياوي في روسيا . اذ ترتبط به كل اشكال المسيحية ـ الجديدة . فهو يكشف عن جميع الغوايات الجديدة التي تتربص بالاتجاهات الرؤياوية للفكر الروسي وهو يتنبأ بظهور شر مهذب Raffine لانستطيع ان نميزه الا في مشقة . بيد انه هو نفسه لم يكن خاليا دائما من تلك الاوهام . ومع ذلك فان الحقيقة التي كان يعلمها عن الانسان وعن الحرية الانسانية وعن المصير الانساني تظل الشطر الابدي الباهر في مؤلفاته .

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل التاسع

نحن ودوستويفسكي

Twitter: @ketab_n

انشطر التاريخ الفكري والروحي لروسيا في القرن التاسع عشر الى قسمين بظهور دوستويفسكي الذي يجسد في روسيا مولد روح جديدة . فبين السلافوفيل والمثاليين الذين ظهروا في الاربعينيات من جهة ، وبين التيارات الروحية التي ظهرت في القرن العشرين من جهة اخرى . تقوم ثورة للروح ـ وهذا هو عمل دوستويفسكي . وروسيا المعاصرة تنفصل عن روسيا الاربعينيات نتيجة لكارثة جوانية ، اذ اتخذت بعدا جديدا لم يكن يتوقعه اولئك الذين عاشوا في تلك الفترة حياة أسعد وأهدأ . ولا تنتمي روسيا المعاصرة الى مرحلة تاريخية اخرى فحسب ولكنها تنتمي الى حقبة روحية اخرى يضغط عليها شعور بكارثة عالمية : وهذا هو اللقاح الذي قذفه فيها دوستويفسكي وكان كيريفسكي Kirievsky وخوميـاكوف Chomiakov وآكسافوف الذين يشاطرون دوستويفسكي وكذلك الروس الذين يعيشون اليوم ـ بعض المعتقدات وبعض الافكار العامة ـ كانوا يجهلون هذا الادراك لكارثة تحيق بالعالم ، وهو ادراك طارد فيما بعد شخصيات مستقرة وهادئة نسبيا مثل الأمير ي . تروبتسكوي E . Troubtkoi وكان الناس في الاربعينيات يحيون وفق ايقاع ثابت ويشعرون ان الارض راسخة تحت اقدامهم حتى في الظروف التي يعتنقون فيها مثالية حالمة ورومانسية . ولم تكن الهوات قد فغرت أفواهها بعد في تيار حياتهم النفسية . ولم يكن اودويفسكي Odoievski وستانكييفيتش Stankievich يشبهان شخصيات دوستويفسكي بأكثر مما يشبهها السلافوفيل . ومع ان السلافوفيل والمستغربين كانوا في حرب ، الا انه كان من الايسر عليهم ان يتفاهموا فيما بينهم ، أيسر من ان يفهم الناس الذين عاشوا في عهدهم ، أولئك الذين عاشوا في الفترة التي كشف عنها دوستويفسكي بعد ذلك . فهذا رجل يستطيع ان يؤمن بالله ، ولا يستطيع ان يؤمن به شخص آخر ؛ وهذا يمكن ان يكون وطنيا روسيا والآخر وطنيا متحمسا للغرب ، ومع ذلك يمكن ان يكون الواحد والآخر منتميا الى التكوين النفسي ذاته وان يكون هذا وذاك من نسيج واحد . أما بعد دوستويفسكي فقد تغير هذا النسيج النفسي ذاته عند اولئك الذين تبنوا روحه وهذه النفوس التي سوف تعيش تجربته ستكون من الآن فصاعدا ـ

Twitter: @ketab_n

نازعة صوب مستقبل مجهول مثير للقلق ، تتخللها تيارات رؤياوية وتتقاذفها الاقطاب المتطرفة وسيعرف هؤلاء بخاصة الازدواجية التي لم يكن على رجال الاربعينيات معاناتها ؛ وليس من شك انهم عرفوا الكآبة والضجر ولكنهم كانوا اكثر اتزانا ولم يصطدموا بقرنائهم (Double) ولم يشاهدوا الشيطان ولم يرهقوا انفسهم بمشكلة ضد ـ المسيح . فالناس الذين عاشوا في الاربعينيات وكذلك الذين عاشوا في الستينيات لم يحيوا في جو رؤياوي ولم تستحوذ عليهم فكرة نهاية الاشياء . وكلمة « رؤياوي » قابلة لاتخاذ معنى نفسي وبالتالي يمكن ان يقبلها حتى اولئك الذين يرفضون تصورها الدجماطيقي (القطعي) والديني . ولن ينكر احد ان مؤلفات دوستويفسكي كانت غارقة في جو من الرؤيا ، وان دوستويفسكي استطاع بهذا الجو ان يعيد سمة اساسية من سمات الروح الروسية .

ومن الناحية الايديولوجية كان الناس الذين عاشوا في الاربعينيات قد شكلتهم النزعة الانسانية ؛ كما تشبعوا بأرثوذكسية السلافوفيل . وكان خومياكوف ، بتصوره الشهير عن الكنيسة مسيحيا صاحب نزعة انسانية . أما دوستويفسكي فيرمز الى ازمة النزعة الانسانية الايديولوجية والمادية وهو بهذا لا يتخذ قيمة روسية فحسب بل عالمية ايضا . فالانسان الذي عاملته النزعة الانسانية بوصفه كائنا ذا ثلاثة ابعاد ـ اصبح بالنسبة لدوستويفسكي كائنا ذا ابعاد اربعة : وفي هذا البعد الجديد تظهر العناصر اللامعقولة التي قلبت حقائق النزعة الانسانية رأسا على عقب . فهذه عوالم جديدة تتكشف في أعماق الانسان . وتغير المنظور كله نتيجة لهذه الواقعة ، ذلك لأن الطبيعة الانسانية لم تسبر اغوارها النزعة الانسانية ، ولا أقصد النزعة الانسانية المادية السطحية وحدها بل النزعة الانسانية المثالية الاعمق الى ما لا نهاية ، وكذلك النزعة الانسانية المسيحية ايضا . وقد كان في النزعة الانسانية شطر كبير من الاحلام والاوهام . اما واقعية الحياة الحقيقية كما كان يحلو لدوستويفسكي ان يسميها ـ واقعية الطبيعة الانسانية فكانتا اكثر مأساوية وينطويان على متناقضات لم يتح لها ان تعرض للوعي الانساني Humaniste . ولم يعد من الممكن بعد دوستويفسكي ان يوجد انسانيون بالمعنى القديم للكلمة او توجد نزعة شيللرية Sehillerisme فقد كتب

Twitter: @ketab_n

علينا ان نكون واقعيين مأسويين . هذه الواقعية المأسوية هي علامة العصر الذي يفرض مسؤولية جسيمة ، جسيمة الى درجة ان رجال الجيل السابق لم يستطيعوا تحملها دون عناء . اذ تصبح « الاسئلة اللعينة » بعدئذ اسئلة حيوية واقعية اسئلة ، حياة او موت ، حيث يكون المصير الخاص موضع المسألة كالمصير العالم . لقد أصبح كل شيء اكبر جدية . واذا كان الجيل الادبي الذي ظهر في مستهل القرن العشرين والذي عكس هذه البحوث وهذه التيارات الروحية ـ يبدو احيانا انه قد تقاعس عن اداء مهمته الروحية ، واذا كنا نصدم احيانا بضعف شخصيته الاخلاقية ، فما ذلك الا لأن كل شيء اصبح جديا وواقعيا بالمعنى الانطولوجي للكلمة . وماكنا نستطيع ان نتطلب من كتاب ومفكري الاربعينيات مثل تلك المطالب القاسية .

* * *

وعندما تغلغلت في روسيا في مستهل القرن العشرين تيارات جديدة من المثالية والدين ، تيارات قطعت صلتها بالنزعتين الوضعية والمادية للفكر التقليدي الشائع بين الانتلجنسيا الروسية ، فأنها اخذت تنضوي تحت لواء دوستويفسكي فقد كان روزانوف Rosanov وميريجكوفسكي Merejkovsky والمثاليين الجدد وليون شستوف Leon Chestov وآندريه بيلي Amdre Biely ووفنسسلاس ايفانوف Venceslas Ivanov ـ كان هؤلاء جميعا مرتبطين بدوستويفسكي وولدوا من روحه وعكفوا على حل المشكلات التي وضعها . فقد كان دوستويفسكي اول من اوتى روحا جديدة من هؤلاء الرجال . عالم هائل يتكشف لم تعرفه الاجيال السابقة . انها حقبة النزعة الدوستويفسكية Dostoievskisme التي تتفتح في الفكر والادب الروسيين . وكان تأثير دوستويفسكي أقوى وأعمق من تأثير ليون تولستوي ، وان كان هذا الاخير يسترعي الانظار اكثر مما يفعل دوستويفسكي . ذلك ان تولستوي اسهل منالا الى مالانهاية من دوستويفسكي ومن الايسر ان يتخذه المرء معلما واستاذا . كما انه كاتب اخلاقي Moraliste اكثر مما كان دوستويفسكي . ولكننا في الاثر الذي حفره دوستويفسكي ـ نجد ان الفكر الميتافيزيقي الروسي المعقد الحاد ـ هو الذي

Twitter: @ketab_n

يدور بحيث يخرج منه كل شيء . ومن الممكن تصور تركيبين او نمطين للنفس ، احدهما مهيأ لتقبل روح تولستوي والآخر روح دوستويفسكي . وعلى هذا النحو نرى أن الاشخاص الذين يستحوذ عليهم حقا سياق الروح التولستوية ، وسبل النزعة التولستوية يشق عليهم فهم دوستويفسكي . وقد لا يسيئون فهمه فحسب ولكنهم ينفرون منه في كثر من الاحيان . ذلك ان المتناقضات الفاجعة لكاتب « المسوسون » تند في الواقع عن النفوس التي ترضيها عقلانية تولستوي وواحدتيه Monisme المتحدة تماما . أما روح دوستويفسكي فتفزعهم وتبدو لهم انها ضد المسيحية . كان تولستوي هو الذي يمثل في نظرهم المسيحي الاصيل المخلص لكلمة الانجيل ، هذا التولستوي هو نفسه الذي كانت فكرة التكفير غريبة عليه اكثر من غرابتها على أي شخص آخر ، والذي كان يعيب كل شعور حميم تجاه المسيح : وعلى العكس من ذلك ـ كان دوستويفسكي الذي يملك الشعور الخالص حب المسيح ، والذي كان يغوص بأكمله في سر التكفير ـ يؤخذ على انه كاتب معتم عسر ضد ـ المسيح ، ناشر للمهاوي الشيطانية . وهذا نزاع لا سبيل الى حله يتواجه فيه موقفان وتصوران اساسيان للوجود . ومهما يكن من أمر فقد ظل تولستوي فيما يتعلق بالفكر الديني المبدع ، يكاد يكون عقيما ، على حين ان مؤلفات دوستويفسكي كانت خصبة الى اقصى حد . وكل شخصياته من امثال شاتوف وكيريلوف ، وفرهوفنسكي ، وستافروجين وايفان كارامازوف ، ظهر أمثالها في القرن العشرين وهذه الشخصيات لم تكن واقعية في عصر دوستويفسكي ، وانما كانت تنتمي الى عالم الرؤي والتنبؤات . وفي الثورة الروسية الاولى ـ الصغيرة وكذلك في الثورة الثانية ـ الكبيرة ـ برزت موضوعات دوستويفسكي الاساسية التي لم تكن توجد الا على هيئة كون في السبعينيات ـ برزت الى النور . وهنا استطعنا ان نلمس الحدود الدينية للنزعة الثورية Revolutionmarisme في روسيا وان نسبر افتقار زعائمها الى الطابع السياسي . وقاربت الثورة الروسية بين دوستويفسكي وبين مواطنيه واذا كان الكتاب العظام الآخرين في هذا البلد يبدون بوصفهم سابقين على الثورة Pre revolutionnairei فان دوستويفسكي يمكن ان يسمى

Twitter: @ketab_n

كاتب المرحلة الثورية فقد تحدث باستمرار عن الثورة بوصفها مظهرا من مظاهر الروح . وقد كان هو نفسه مظهرا للروح التي تنبأت بأن روسيا سوف تحلق فوق الهاوية . وهذه الهاوية ـ في مؤلفاته تجتذب وتغوي . لقد انفتحت حقبة « الاسئلة الملعونة » وحقبة « السيكلوجية » المتعمقة ، حقبة تمرد الفردية تحت ـ الارضية التي تنكر في آن واحد كل طريقة من طرائق الحياة المستقرة ، وضدها الذي تنبأت به ، اعني تمرد النزعة الجماعية اللاشخصية . هذا كله مودع في قرارة تلك التيارات الثورية التي ينضم فيها شاتوف الى فوهوفنسكي وستافروجين الى كيريلوف وايفان كارامازوف الى سمرديا كوف . لقد ابدع دوستويفسكي نماذج مثالية ، ولا تتوقف سيكلوجيته ابدا عن السطح النفسي ـ الفزيائي للحياة ، ولهذا كان تولستوي ـ بالمعنى الضيق الدقيق ـ نفسانيا أفضل Psychologue اما دوستويفسكي فكان روحانيا Pneumatologue يتعمق علمه ـ لا حياة النفس وانما حياة الروح ، حتى يلتقي بالاله وبالشيطان . وكانت هذه المسائل ، هذه المسائل النهائية هي التي تهتم بها روسيا منذ زمن طويل لا مجرد المسائل النفسية . بل ان مصائر حياتها الاجتماعية ومصائر ثورتها تأتي في مرتبة ثانوية بالنسبة لحل المسائل المتعلقة بالاله وبالشيطان . ومن ثم فان علم النفس لا يعدو ان يكون سمة سطحية لمؤلفات دوستويفسكي : اذ يجعلنا نخرج من دائرة البحوث التي لا منفذ لها . لكي نوجه وعينا صوب المسائل النهائية . ولهذا اخطأ ليون شستوف leom Chestov عندما اراد ان يعتبر دوستويفسكي مجرد عالم نفساني بالنفس تحت ـ الارض Lame Aouterraine ذلك انه حتى المناطق تحت الارضية من النفس ليست بالنسبة اليه سوى لحظة ، مرحلة على الطريق الروحي للانسان ، مرحلة يصحبنا الى ما بعدها .

ولم يكن دوستويفسكي فنانا عظيما حسب ، فنانا نفسانيا عظيما : بل ينبغي ان نلتمس أصل شخصيته المبدعة في مكان آخر . فهو مفكر عظيم قبل كل شيء . وهذا ما حاولت ان ابينه طوال هذا الكتاب . وهو اعظم ميتافيزيقي انجبته روسيا ، وكل الافكار الميتافيزيقية لروسيا صدرت عنه فهو يحيا في جو مشبوب

Twitter: @ketab_n

مشتعل من الافكار وهو يذيعها ويشيعها فيما حوله فتصبح للروح خبزها اليومي الذي لاتستطيع بدونه ان تحيا : فنحن لا نستطيع ان نحيا الا اذا حللنا مسائل الاله والشيطان ، والخلود والحرية والشر ومصير الانسان والبشرية نستطيع وهذه ليست مجرد مسائل سطحية بل انها اساسية لأنه اذا لم يكن الخلود موجودا ، فلن يكون ثمة مايدعو الى الحياة . والافكار نابضة بالحياة عند دوستويفسكي وليست ميتافيزيقاه مجرده . لقد علمنا الطابع الحي العيني ، الجوهري للافكار : والروس جميعا اطفال روحيون تواقون الى وضع الاسئلة « الميتافيزيقية » والى حلها بالروح التي وضع بها دوستويفسكي هذه الاسئلة وقام بحلها . و « ميتافيزيقا » دوستويفسكي اقرب اليهم من ميتافيزيقا فلاديمير سولوفييف Vladi-mir Soloviev : بل ربما كان القبول الوحيد الذي يمكن ان توجد الميتافيزيقا على اساسه هو القبول الذي اعطاه لها دوستويفسكي . اما سولوفييف فلا يبلغ ابدا ما هو عيني Concret ؛ وهو يحارب ميتافيزيقا مجردة بطريقة مجردة . وليس من شك انه قريب كل القرب من دوستويفسكي ، بل لعله ان ينضم اليه احيانا وبخاصة في كتابه « ضد ـ المسيح » ولكنه هو نفسه مظهر مواز لدوستويفسكي وليس مزهوا بروحه . اما روزانوف Rosanov وهو واحد من المع الكتاب الروس في مطلع القرن فقد ولد ـ على العكس ـ من خيال دوستويفسكي المبدع ؛ واسلوبه هو وحده الذي يثير الدهشة ، من حيث انه يخرج مباشرة من اسلوب بعض شخصيات دوستويفسكي . وهو يتمتع بنفس الحس العيني الذي نجده لدى استاذه ، وبالمادة الحية للميتافيزيقا ، ويعالج نفس الموضوعات التي عالجها ، غير ان ظهور روزانوف علامة على الاخطار التي انطوى عليها فكر دوستويفسكي ، فنحن نسمع فيدور بافلوفيتش كارامازوف يتحدث احيانا بلسانه ، الذي يصعد به الى درجة العبقرية . والغياب التام لأي نظام تخضع له الروح ويسيطر به على نفسه يبرهن على ان تأثير دوستويفسكي يمكن ان يكون سببا في الاضعاف . وكذلك ولدت ايديولوجية ميريجكوفسكي من الروح الدوستويفسكية : وقد كانت متضمنة في قصة « قانا الجليلي » وفي افكار دوستويفسكي عن الاله ـ الانسان ، وعن

Twitter: @ketab_n

الانسان الاعلى . وهذا التأثير لم يفد منه ميريجكوفسكي في العثور على المعيار الذي يميز به المسيح من ضد ـ المسيح . فقد ظل كل تفكيره ازدواجيا وهذا يدفعنا الى وضع سؤال اخير : هل يمكن ان يكون دوستويفسكي معلما ؟

* * *

علمنا دوستويفسكي الكثير ، وكشف لنا عن أشياء كثيرة . ولقد تلقينا تراثه الروحي . بيد انه لا يعلِّم المرء كيف يحيا ، بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة : فنحن لا نستطيع ان نتبعه في السبل التي سلكها او ان نحيا وفقا لتعاليمه واستخلاص درس للوجودمنه عمل شاق . ولا تنطوي « النزعة الدوستويفسكية » على كنوز روحية عظيمة للروس حسب وانما تنطوي ايضا على اخطار روحية . ففي الروح الروسية تعطش الى الاستهلاك الذاتي autoconsomptionوالانتشاء الخطر بهلاكها الخاص : ذلك ان غريزة المحافظة على البقاء الروحي لم تنمو عندهم الا قليلا . فلا يمكن اذن ان نحرص هذه الروح على المأساة بلا عاقبة ، وان نوصي بها بوصفها طريقا يخرجنا من الازدواجية والظلمات . وليس من شك اننا نستطيع ان نعيش هذه المأساة الانسانية التي يكشف عنها دوستويفسكي ، نستطيع ان نعيشها وان نستمد منها شيئا من الثراء : ولكن لا ينبغي ان نشير على الانسان بها بوصفها سبيلا مفتوحا امامه . هذا التيار الديونيزوسي المشبوب الذي تتولد عنه المأساة ينبغي تصوره بوصفه معطى اصليا وباعتباره اساسا من اسس الوجود وعلى انه الجو الذي يتحقق فيه مصيرنا الانساني : ولكن لاينبغي على كل حال ان نسوق اليه البشر وان نجعل من هذا الجو المتطرف جوا سويا . ومع ذلك فان تأويل دوستويفسكي من منظور سوى عسير وخطر في آن واحد . وقد ذكرت ذلك فعلا . عندما تعرضت لموضوع تصوره للشر . فمن المهم غاية الاهمية ان نحدد المنظور الذي ينبغي ان نتخذه اذا اردنا التصدي لهذا العمل . فهو لا يشهد على ان الشعب الروسي يمتلك امكانيات روحية هائلة كامنة فيه فحسب بل يشهد ايضا على ان هذا الشعب عليل الروح . واذا كان هذا الشعب موهوبا بصورة خارقة من الوجهة الروحية ، الا انه من الاصعب عليه ـ اكثر من أي شعب غربي ـ ان يقوم

Twitter: @ketab_n

بتنظيم هذه الروح . ودوستويفسكي لايضعه على طريق التنظيم الذاتي Autodiscipline والتحكم في العنصر الرجولي للروح حتى يسيطر على العنصر الانثوي فيه. ويمكن ان نعتبر ضعف الشخصية عيبا قوميا للروس ؛ وتنمية الشخصية الاخلاقية وتنمية الفحولة الروحية تمثل بالنسبة لهم مشكلة حيوية من اهم المشكلات . فهل اعانهم دوستويفسكي على القيام بمثل هذا العمل ؟ هل ساعدهم على انشاء استقلال روحي حقيقي ، وعلى التخلص من العبوديات جميعا ؟ لقد حاولت ان ابين كيف كان الشعور بالحرية قويا عند دوستويفسكي . بيد ان حرية الروح هذه ، لم يعلمنا دوستويفسكي كيف نكتسبها ، كيف نكتسب الاستقلال الروحي والاخلاقي ، كيف يتحرر المرء وشعبه من سيطرة التيارات السفلى ، ومع ان تعاليمه قد دارت حول الحرية من حيث هي مبدأ اول للحياة ، الا انه لم يكن استاذا في الحرية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة . فقد كانت المأساة الديونيزوسية والازدواجية والهاوية تشكل في نضره الطريق الوحيد للانسان . ومن خلال الظلمات نصل الى النور : وتكمن عظمة دوستويفسكي في انه بيّن بدقة ان هذا النور ينبثق من تلك الظلمات . غير ان النفس الروسية تميل الى الغوص في هذا التيار المظلم وان تبقى فيه اطول وقت ممكن : فمن العسير عليها انتزاع نفسها منه والتغلب على هذا الدافع العنيف الذي يدفعها صوب ما هو مظلم . وفي نفس الوقت الذي يمتلك فيه الروسي شعورا متطرفا بالشخصية وبالمصير الشخصي ، يبدو انه عاجز عن صيانة هذه الشخصية من التمزقات التي تحدثها الشهوات الديونيزوسية والحفاظ على شكلها ، وتنغمس الروح الروسية ايضا في التيارات الاولية للنفس وهذا ما ينعكس في دوستويفسكي : فنحن نجد لديه كشوفا هائلة عن الروح الروسية وعن الروح العالمية ، أما الذي لايعبر عنه ، فهو النضج الروحي ، النقطة التي تسيطر فيها الروح على التيارات المضطربة للنفس ، النظام وذروة غايات اكثر سموا . والفكر ، فيما يتعلق بمشكلة الشخصية ، لايفلت من هذه الازدواجية المهلكة التي عانينا منها فعلا . فاذا كان يعطي للشخصية ـ من ناحية ـ قيمة مطلقة ، فانه يؤمن ـ من ناحية اخرى ـ بالعالمي والجماعي . ونزعته

Twitter: @ketab_n

الشعبية الدينية وهم النزعة الجماعية يصيب بالشلل عنده العنصر الشخصي في الشخصية اعنى النظام الروحي . وهكذا نجد ان فكرة العالمية الدينية عند الروس في كثر من الاحيان ماهي الا تمجيد زائف للشعب ، تمجيد للجماهير الشعبية من حيث هي حائزة على الروح . ومنذ ظهور دوستويفسكي الذي يعد اعظم عبقرية قومية لديهم ، لا يبدو انهم اكتسبوا وعيا قوميا بلغ درجة من الصحة والنضج : وهذا ما اوضحته الثورة بصورة قاسية . وما صنعه فشته والأشخاص المتأثرون بروحه للشعب الالماني ، يبقى ان يتحقق للشعب الروسي ايضا : ويبقى ان تعطي له فكرة مسؤوليته وفكرة النظام الذاتي Autodiscipline والاستقلال الروحي . مثل هذا الاصلاح الروحي الموجه في هذا الاتجاه يمكن ان يعيدها الى الصحة . وقد كانت ازدواجية فكر دوستويفسكي هي التي حالت بينه وبين ان يكون هذا المصلح : ذلك انه لم يكرس لهذه المهمة سوى نصف وجوده حسب ؛ اما نصفه الآخر المنخدع بالنزعتين الشعبية والجماعية ، فكان ـ على العكس ـ عقبة في سبيل تحقيقه .

وقد وجد نفور الروس من الثقافة المتوسطة تعبيرا له في شخصية دوستويفسكي . اذ كان هو نفسه تعبيرا رفيعا عن الثقافة الروسية بل ذروتها ولكنه ليس اقل من ذلك رمزا على الازمة العالمية للثقافة . وهي ازمة محسوسة بخاصة على القمم . والواقع ان الثقافة بما لها من قيم رفيعة لايمكن الا ان تكون وسطا ، اذ لا توجد لها نهاية ، او حدا تقف عنده تطلعاتها . وهي لاتبلغ ابدا الوجود الحقيقي ولا تحققه ، لأنها ليست انطولوجية (وجودية) . وانما رمزية . وأزمة الثقافة في حقيقة الامر هي ازمة النزعة الرمزية symboisme للثقافة التي يقودها الرمزيون بقوة خاصة . ونستطيع ان نعبر عن الموقف بهذه المفارقة : الرمزية هي الرغبة في التغلب على الرمزية ، تحويل الثقافة الرمزية الى ثقافة انطولوجية لا نستطيع ان نقبض فيها على رموز الواقع المتطرف حسب ؛ بل على هذا الواقع نفسه ايضا . الرمزيون هم اذن الواقعيون الحقيقون مادامو يفهمون ان الثقافة التي يبقى « الواقعيون » مسجونين فيها بسذاجة لا تحمل سوى

Twitter: @ketab_n

رموز ، على الروح ان تبحث وراءها عن الوقائع الحقيقة . وازمة الثقافة هي ايضا التعطش الى الانفلات من وسط متوسط للوصول الى منفذ مدمر : فهي تنطوي على اتجاه رؤياوي . وهذا الاتجاه كان موجودا عند نيتشه ولكنه بلغ درجة اقوى كثيرا عند دوستويفسكي . وهذه الاستعدادات الرؤياوية ، والحاجة الى غاية قصوى ، والموقف المتحدي بل المعادي تجاه الثقافة المتوسطة ـ هذه كلها ملامح روسية صرف او هي شكل الروح الخاص بالروس حيث ينبغي ان نلتمس ـ في آن واحد ـ اصالتهم وآفاتهم الروحية ، وانكار كل ثقافة متوسطة يشكل لديهم سمة خطرة ، علامة على العدمية ، والواقع ان افلاس الثقافة اذا حدث عند قمة فكرية كما كانت الحالة بالنسبة لدوستويفسكي فان لذلك دلالة اخرى تماما عما كان قد ظهر عند مواطنيه الذين لايمكلون ثقافة اصيلة وانما مجرد ثقافة اقل من المتوسط او متوسطة . وقد ايقظ دوستويفسكي عند هؤلاء الآخرين ـ وكذلك بين الصفوة ـ الرغبة في الخروج من الثقافة بوصفها رمزا لبلوغ الوقائع الحقيقية ـ فهو يستطيع ببساطة ان يصيب بالشلل كل اتجاه الى الثقافة وان يعزز في هذه الناحية وجهة النظر العدمية وقد رأينا كيف تنضم النزعة الرؤياوية الى النزعة العدمية في روسيا على نحو مذهل . فمن المهم التمييز بينهما في وضوح . والانسان الروسي يجرد نفسه طواعية من كل زينة ثقافية حتى يتجلى في حالة الفطرة ـ الوجود الحقيقي . بيد ان واقع الوجود لا يظهر نتيجة لتحطيم القيم الثقافية . بل انها لفكرة لا غنى عنها التي تبين ـ على العكس من ذلك ـ ان الثقافة هي السبيل الذي يقود الى ذلك الواقع ، وان الحياة الالهية نفسها هي الثقافة الاسمى للروح ، وقد كان تأثير دوستويفسكي مزدوجا : وهذا هو مصير الكتاب الروس العظام جميعا . وعلى كل حال ، ينبغي ان نتذكر انه اذا كان دوستويفسكي قد لاحظ ازمة الثقافة الا انه لم يكن مثل تولستوي عدوا للثقافة . واتجاهاته الرؤياوية تتصالح مع الشعور بالتاريخ وبآثاره وقيمه ، وبالاستمرارية التاريخية . وفي هذا يجب ان يشعر الروسي بخاصة انهم ورثة روحه .

* * *

Twitter: @ketab_n

واذا لم يستطع دوستويفسكي ان يكون استاذا في النظام الروحي ، واذا كان لا بد لنا ان نتغلب في انفسنا على الدوستويفسكية ، بعد ان تغلبنا على النزعة النفسانية ، فعلى الاقل هناك نقطة كانت تعاليمه فيها محددة كل التحديد : فقد كان يريد ان يبين اننا بواسطة المسيح . نلتقي بالنور وسط الظلمات وان الشكل والتشابه الالهي موجودان ايضا عند اشد الافراد سقوطا وانه ينبغي على المرء ان يحب جاره احتراما لحريته . وقد قادنا دوستويفسكي عبر الظلمات ، بيد ان الكلمة الاخيرة لن تكون لهذه الظلمات . ومؤلفات دوستويفسكي لا تترك فينا بحال من الأحوال اي انطباع بالتشاؤم القاتم اليائس مادامت هذه الظلمات تنطوي على النور . لقد غزا نور المسيح العالم فأضاء كل الارجاء المعتمة . وليست مسيحية دوسويفسكي مسيحية مظلمة ، ولكنها مسيحية منيرة مسيحية القديس يوحنا . فهي تحمل عناصر للمسيحية المقبلة ، لانتصار البشارة الابدية لدين التحرر والحب . اشياء كثيرة ماتت في المسيحية : ومن ثم نمت فيها بقايا الجثث العفنة التي جعلت تسمم منابع الحياة نفسها . والمسيحية التاريخية اقرب الى ان تشبه في كثير من النقاط ـ الجماد لا الجسم العضوي الحي : فقد تحجرت . ونحن ننطق بأفواه خلت من الحياة اقوالا ميتة غادرتها الروح . ذلك ان الروح تنفخ حيثما تشاء ! وهي لا تريد ان تنفخ في نفوس تحجرت ونضبت دينيا . فلا بد من اعادة صياغتها واخضاعها من جديد لتعميد متقد لكي ترضى « الروح » باشاعة الحياة فيها . وما انتصار الروح المضادة للمسيح في العالم وضياع الايمان وتقدم المادية ـ سوى نتائج ثانوية لعواقب ظواهر التحجر والموت التي حدثت داخل المسيحية نفسها وداخل الحياة الدينية . فالمسيحية التي تحولت الى بلاغة ميتة ، الى اعتناق شعائر مجردة تخلو من الحياة ، افسدتها الكهنوتية ـ مثل هذه المسيحية لايمكن ان تصير قوة تمنح النفوس ولادة ثانية . ومع ذلك فلا بد ان تخرج منها هذه الولادة الثانية وهذا التجديد للروح . كما ينبغي ان تصبح دين العصر الجديد الذي ينهض ، اذا كانت حقا هي الدين الابدي . ولابد ان تخرج منها ايضا حركة خلاقة لم يعرفها العالم منذ امد بعيد . هذا الانصهار هذا

Twitter: @ketab_n

التعميد المتقد ، هو ماطبعه دوستويفسكي على النفوس . انه يطهر الارض تمهيدا لهذا البعث الروحي ، لهذه الحركة الدينية التي سوف تتجلى فيها المسيحية ، جديدة ، ابدية ، حية . ومن ثم كان دوستويفسكي احق من تولستوي باسم المصلح الديني . لقد حطم تولستوي آثار المسيحية وقيمها وحاول ان يقيم دينه الخاص . وكانت الخدمات التي استطاع اسداءها سلبيته وتنتمي الى مجال النقد . اما دوستويفسكي فعلى العكس ـ لم يخترع دينا جديدا وانما ظل مخلصا للحقيقة ، للتراث الابدي للمسيحية . ولكنه في داخل هذه المسيحية بعث روحا جديدة ، سورة خلاقة ، لا ينبغي ان تحطم شيئا او تلغيه . وكان على استعداد للاعتراف بجميع الصيغ القديمة : كل ما في الامر انه اودع (حَبَّ) فيها روحا جديدة . وفي عصر كانت المسيحية تحيا في الماضي وحده التفت صوب المستقبل فاستحضر « الرؤيا » التي ظلت حرفا ميتا بالنسبة للمسيحية التاريخية . ومن ثم فقد كان عمل دوستويفسكي خصبا بصورة خارقة من اجل النهضة المسيحية ، من حيث انه ظهور تنبؤي ، وايذان بأسمى الامكانيات الروحية . بيد اننا رأينا فيما سبق ان هذا العمل العظيم اصابته آفة الازدواجية المميزة للشخصية الروسية وانطبعت فيه ملكات الروس الرفيعة واخطاره العميقة في آن واحد . وعلى الروس اذن ان يعملوا مقتفين آثاره من الناحية الروحية وان يعرفوا انفسهم وان يتطهروا بالتجربة التي صنعها لهم .

واليوم تتجه اوروبا الغربية التي تسارع في ايقاع العملية الفاجعة الوشيكة ـ تتجه صوب دوستويفسكي ؛ فقد اصبحت الآن اقدر على فهمه . وبواسطة ارادة المصير خرجت من حالة الرضا بالنفس وهي حالة بورجوازية بماهيتها كانت تأمل على ما يظهر ان تظل فيها دائما حتى وقعت كارثة الحرب العالمية . لقد تمسك المجتمع الاوروبي بالوقوف طويلا عند حواشي الوجود قانعا بوجود خارجي ، وكان يريد ان يستقر حتى نهاية الزمان على سطح الارض . ولكن في اوروبا هذه ، المنطقة تنظيما بورجوازيا ، ظهرت طبقة ماتحت الارض على انها بركانية واكتشفت الشعوب الاوروبية عمقا روحيا . وكان هذا الكشف علامة على

Twitter: @ketab_n

حركة تتجه من السطح الى الاعماق ، وان كان لابد ان تسبقها حركات اخرى رهيبة حدثت على السطح في الخارج هي الحرب والثورة . وفي وسط هذه الكوارث وتلك الانقلابات تطلعت شعوب الغرب بعد ان ادركت صوت هذه الاعماق الروحية التي تفتحت فيها ـ تطلعت بفهم يقيني غاية اليقين وبدافع لا سبيل الى مقاومته ، الى العبقرية الروسية العظيمة والعالمية التي كانت اول من اكتشف في الانسان اغوارا باطنية والتي تنبأت للعالم بكارثة محتومة . وهكذا كانت قيمة دوستويفسكي من العظمة بحيث يكفي للشعب الروسي ان يذكر اسمه لكي يبرر وجوده في العالم . وسيكون دوستويفسكي شهيدا عليه يوم قيامة الشعوب .

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد (٧٤٢) لسنة ١٩٨٦

Twitter: @ketab_n

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة

Twitter: @ketab_n

هذا الكتاب

مع ان كتاب (رؤية دوستويفسكي للعالم) قد كُتب سنة ١٩٢١، الا انه يبقى مهماً لاعتبارات عديدة منها ان مؤلفه هو نيقولا بردياثف، الذي انجذب الى دوستويفسكي روحياً زمناً طويلاً عايش خلاله هذا الكاتب من خلال مؤلفاته، فكره، رؤاه المختلفة. والاعتبار الثاني هو ان المؤلف قد تناول في هذا الكتاب جوانب غير اعتيادية تكون في مجموعها رؤية الاديب للعالم، فناقش (الانسان، الحرية، الشر، الحب، الثورة..) لدى دوستويفسكي. واصل هذه المناقشات او الدراسات محاضرات القاها المؤلف في ندوة خصصت للأديب في ١٩٢٠ / ١٩٢١ ودفعته الى ان يلم شتات تأملاته عن الموضوع فيكون هذا الكتاب.